

الجرّة المشروخة

# إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى

مُحَمَّدُ فَتْحُ اللَّهِ كُورِن



سلسلة الجرة المشروخة (١٤)

## إشراقات الأمل

في دياجي الحزن والأسى

Copyright©2015 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

**رقم الإيداع**

2015/20674

**الترقيم الدولي**

ISBN: 978-975-315-696-7

**رقم النشر**

1033

**دار النيل للطباعة والنشر**

**الإدارة:** 22 ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnil.com

www.daralnil.com

الجَرَّةُ المَشْرُوخَةُ

# إِشْرَاقَاتُ الأَمَلِ فِي دِيَاغِي الحِزْنِ والأَسَى

تأليف:

مُحَمَّدُ فَتْحُ اللهِ كُوَيْلِنَ

ترجمة:

د. عبد الرزاق أحمد - د. عبد الله محمد عنتر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## فهرس

١٣	مقدمة.....
١٩	روح السلام.....
٢٠	الهدف هو الردع فحسب.....
٢١	السلام قيمة إنسانية عالمية.....
٢٢	معلّمون تُقبَل أقدائهم.....
٢٣	صَبَغُوا القلوب بالسلام.....
٢٥	الرضا في الدنيا والرضوان في الآخرة.....
٢٦	الرضوان: بشرى السعادة الأبدية.....
٢٧	أيهما أعظم فضلاً: الرضوان أم رؤية جمال الله تعالى؟.....
٢٨	من طلب الرضا نال الرضوان.....
٢٩	جَنَاحان يوصلان إلى الرضوان: إعلاء كلمة الله والإخلاص.....
٣٣	موقف المؤمن والمنافق من المصائب.....
٣٤	الثلوج والزوابع والعواصف تجد مكانها في الذرى.....
٣٦	كل هذا العناء بلاقيه هؤلاء ونحن نسَمي ما يصيبنا عناء!.....
٣٩	رُوح التفاني طوال العمر.....
٤٠	اللهم لا تُخزِ أصدقائي بسببي.....
٤٢	لا بد أن يسبق الحال القول.....
٤٣	التواضع وعدم إثارة عرق الغبطة.....
٤٤	خطر الثبات على القمة.....
٤٥	الاستخدام حسب القابليات.....
٤٧	التوازن بين الواقع والمثالية لدى القلوب المتفانية.....
٥١	الموقف الإيماني من شبكات النفاق الحاقدة.....
٥٢	لم تخطر ببال الظالم النهاية، ولكن.....
٥٣	تعرضت للتضييق والإيذاء طوال حياتي، ولكنني ما يئست قطاً!.....
٥٤	الجُراة والثبات يُفسدان ألاعب ذوي النوايا السيئة.....

- ٥٥ ..... الصبر والنصر
- ٥٦ ..... إثارة الغبار لا تحجب نور الشمس
- ٥٧ ..... فليخس السائرون في الضلال سوء عاقبتهم
- ٥٩ ..... مهمة الإرشاد وأسوار العفة
- ٦٠ ..... لا يقتصر تشوّه السمعة على المخطئ فحسب
- ٦١ ..... "اللهم لا تُخزِ أصدقائي بي، ولا تُخزني بأصدقائي!"
- ٦١ ..... عفة الحديث
- ٦٢ ..... قيمنا التي هي العناصر الأساسية لجنتنا المفقودة
- ٦٤ ..... صيانة الأمانة
- ٦٧ ..... وجدّ القبلة ولا تشبث الهمة
- ٦٩ ..... تحديد مشاكل العصر أولاً
- ٧١ ..... الدساتير القرآنية الماسية وضفة طيبة لعصر مريض
- ٧٢ ..... آفاق جديدة بوجهة نظر جديدة
- ٧٥ ..... يمام العالم الميتافيزيقي والانبعاث المرتقب
- ٧٦ ..... خلفيات الحوادث والحكمة منها
- ٧٧ ..... الدعاء: المفتاح السري للانفتاح على العوالم الميتافيزيقية
- ٨٠ ..... الانغلاق دون العوالم الميتافيزيقية
- ٨٣ ..... النشاط والحيوية في حياة الخدمة
- ٨٤ ..... مجتمع أسير مغلول الأيدي والأعناق
- ٨٦ ..... أبطال الإرادة وكرامة الإسلام
- ٨٧ ..... أسس المحافظة على النشاط والحيوية
- ٨٩ ..... تحويل الإمكانيات الفائية إلى جماليات خالدة
- ٩١ ..... وا حسرتاه! لقد خدعنا، خدعنا بالتصفيق والأبهة والعظمة!
- ٩٣ ..... من أحب الدنيا لم ينل الآخرة!
- ٩٧ ..... دعاء ذو أربعة أسس
- ٩٨ ..... ١- الهدى
- ١٠١ ..... ٢- التقوى

- ١٠٢ ..... ٣- العفة
- ١٠٣ ..... ٤- الغنى
- ١٠٧ ..... دعاء لا تكتنفه الغفلة
- ١٠٨ ..... الدعاء مع العبادة
- ١٠٩ ..... الإيمان والدعاء
- ١١١ ..... الهيجان الوجداني وصوت الرُجفَات
- ١١٥ ..... المعنى الحقيقي للمسكنة
- ١١٦ ..... المسكنة المذمومة الواجب اجتنابها
- ١١٨ ..... المسكنة الممدوحة، ورغبة الرسول في أن يكون عبداً رسولاً
- ١١٩ ..... صرخُ العفة وأبطالها
- ١٢٢ ..... الإنسان ليس مخلوقاً رخيصاً يُشترى ويُباع بالمال
- ١٢٧ ..... التدين الحقيقي واكتساب الهوية السليمة
- ١٢٧ ..... التدريب بالنوافل
- ١٣٠ ..... الاستقامة في الأفعال والتصرفات
- ١٣١ ..... أبطال الصبر أرباب الهوية
- ١٣٥ ..... المخاطر الثلاثة
- ١٣٦ ..... التنافس: التسابق في الخير
- ١٣٨ ..... روح الفتوة والمروءة الممتدة إلى الآخرة
- ١٣٩ ..... الأناية الجماعية
- ١٤١ ..... الوهم والمخاوف التي تُحفِّزُ مشاعرَ العداة
- ١٤٥ ..... التيقُّظُ والحَدْرُ
- ١٤٦ ..... التيقُّظُ في عهدٍ ساد فيه النفاق
- ١٤٧ ..... التيقُّظُ حيال النجاحات
- ١٤٩ ..... "لستُ أنشدُ شيئاً سوى رضاك!"
- ١٥٣ ..... ابتغاء الكمال في الأعمال
- ١٥٤ ..... "كلُّ خطيِّ وإخفاقٍ بسببي أنا!"
- ١٥٥ ..... كلُّ جمالٍ منه، وكلُّ خطيِّ وقصورٍ مِنَّا

١٥٦	استقراء الحوادث بشكل صحيح
١٥٧	الرجوع إلى العقل المشترك
١٦١	النفس المطمئنة
١٦٢	النفس اللؤامة
١٦٤	النفس الملهمة
١٦٤	النفس المطمئنة
١٦٥	النفس الراضية
١٦٦	النفس المرضية
١٦٧	النفس الزكية أو الصافية
١٦٩	روح الإرشاد والثبات على الحق
١٧٠	ثبات العلماء على الحق
١٧١	الثبات على الاستقامة في الدعوة إلى الحق
١٧٢	الانبعاث في أفق القلب والروح
١٧٥	التشاركية في الأعمال الأخروية
١٧٦	وجهة نظر تعتمد على القرآن والسنة
١٧٨	جوهر العمل: الإخلاص
١٨٠	روح الأخوة والتضامن
١٨١	التحرك والسعي وفقاً للعقل الجماعي
١٨٣	الشورى المثالية
١٨٤	الشورى.. حتى في لحظات الغضب والانكسار
١٨٥	الشورى تضمن شراكة الجميع في الأمر
١٨٦	آداب المناقشة والمدارسة عند الشورى
١٨٧	الشورى ليست وسيلة لإرغام الآخرين على تقبل أفكارنا
١٨٩	الأولوية للحق لا للأقدمية والمنصب
١٩٢	يكفي أن تُعبّر الحقيقة عن نفسها
١٩٣	فرء من الغيبة فرأك من الأسد
١٩٥	صَغُفُ العبودية وبروز الأنانية



- التناسب العكسي ..... ١٩٧
- نعم لا تُعدّ تتطلّب شكرًا لا يُحدّ ..... ١٩٨
- إكسير العبودية في عصر الأنانية ..... ١٩٩
- دعاء جامع لسيدنا رسول الله ﷺ ..... ٢٠١
- الطلب الأول: "اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَقْضُنَا" ..... ٢٠٢
- الكثرة العددية ليست هي الهدف الأساس ..... ٢٠٣
- أعظم النعم أن تعرف النعمة على أنها نعمة ..... ٢٠٤
- اللهم لا تعاقبنا بالحرمان! ..... ٢٠٥
- من أعظم الآفات دخول المسلمين تحت وصاية غيرهم ..... ٢٠٦
- نوع آخر من الامتحان: المحاباة ..... ٢٠٧
- سنام العبودية: أفق الرضا ..... ٢٠٩
- الجدارة والاستحقاق ..... ٢١١
- شبكات وخلايا النفاق والاستحقاق ..... ٢١٢
- السعي إلى التجديد شرط مهمّ في اللياقة والجدارة ..... ٢١٣
- عاقبة المرتدّين عن الخدمة ..... ٢١٣
- حبّ الله تعالى هو الأساس في الجدارة ..... ٢١٥
- روح الجهاد في سبيل الله ..... ٢١٦
- الاستخدام هو فضل وإحسان من الله تعالى ..... ٢١٨
- روح التجديد والعناية الإلهية ..... ٢١٩
- ولو حتى طرفة عين ..... ٢٢٠
- لا يُضَيِّعُ اللهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلٍ ..... ٢٢١
- لن يعود أحدٌ خاوي الوفاض بعد الوقوف على بابه ..... ٢٢٣
- التوازن في النهي عن المنكر ..... ٢٢٥
- سبيل العفو والصفح في الحقوق الفردية ..... ٢٢٦
- تجنّب نشر الذنب عند النهي عن المنكر ..... ٢٢٧
- الإرشاد والإنذار بابتسامة حزينة ..... ٢٢٨
- حقّ العامة من حقوق الله ..... ٢٣٠

- أفق التضحية حتى بالأذواق والملذات الأخروية ..... ٢٣٣
- ضحى بدنيه أوّلاً! ..... ٢٣٣
- ما معنى التضحية بالآخرة؟ ..... ٢٣٥
- ضرورة تقديم حقوق الله على كل شيء ..... ٢٣٧
- الابتلاء مع النجاح: نشوة النصر ..... ٢٣٩
- طوبى لمن عرف حدّه فوق عنده ..... ٢٤٠
- الشيخ لا يطير ولكن المريد هو من يدفعه إلى الهاوية ..... ٢٤٢
- مثل الجلد في يد الدبّاع ..... ٢٤٣
- التحذير من الشرور وتصوير الباطل ..... ٢٤٧
- التأثيرات الهدامة للتداعيات السلبية ..... ٢٤٨
- ذهنٌ صافٍ وعاقبة حسنة ..... ٢٥٠
- النهج الموضوعي في الحديث عن الخدمات ..... ٢٥٣
- الإنسان مخلوقٌ مؤهّلٌ للخطيأ والوقوع في العثرات ..... ٢٥٤
- السعي إلى الخدمة التزاماً بالمبادئ الأساسية ..... ٢٥٥
- استحالة نسبة أي فرد أو مجموعة ما يُنجز من خدمات لنفسه ..... ٢٥٦
- فِر من إثارة مشاعر الغبطة فرازك من العقرب والحية ..... ٢٥٨
- الخدمات المبذولة والشعور بالمسؤولية ..... ٢٥٩
- صدق النية وعقلانية الأعمال ..... ٢٦٠
- التفكّر: وسيلة نورانية موصلة إلى الحقيقة ..... ٢٦٣
- القرآن يوجه الأنظار إلى العقل الفاعل النشط ..... ٢٦٣
- بالتفكّر يكشف الإنسان نفسه ..... ٢٦٥
- ينبغي أن تكون مجالسنا مجالس تأملٍ وتفكّرٍ ..... ٢٦٦
- العلاقة بين أنواع الصبر ..... ٢٧١
- الاستقامة على الطاعة تقوي الإنسان من الوقوع في المعاصي ..... ٢٧١
- العبادة تساعد على الاستقامة في الفكر ..... ٢٧٣
- النوابع وانكشاف القابليات ..... ٢٧٧
- القابليات وسيلة امتحان ..... ٢٧٧

٢٧٨	المقهرون تحت الأنانية .....
٢٧٩	تنشئة النواذب يتطلب اهتمامًا خاصًا .....
٢٨٣	تنظيم الوقت وحياتنا الأسرية .....
٢٨٤	"أعط كل ذي حق حقه" .....
٢٨٥	تخطيط الأربع والعشرين ساعة .....
٢٨٦	إقناع من يسرون معنا في نفس الطريق .....
٢٨٧	التبرع بالوقت .....
٢٩١	الولء بالأولاد .....
٢٩٢	الخطاب للأمة كلها في شخص النبي ﷺ .....
٢٩٤	الولء بالولد قد يفتح الباب للشرك .....
٢٩٤	يجب أن يكون حبُّ الأولاد وسيلة لسعادتهم الأبدية .....
٢٩٧	التوازن في حبِّ الولد .....
٢٩٩	تربية الأبوين هي البداية لنشأة الولد الصالح .....
٣٠١	تكامل الطبيعة الإنسانية والإسلام .....
٣٠٢	سبيل النجاة: الإيمان والعمل الصالح .....
٣٠٣	العجز والفقر، الشوق والشكر .....
٣٠٥	التفكر والشفقة .....
٣٠٧	الاستقامة والسعي الدؤوب .....
٣١١	نحو أفق الرضا .....
٣١٢	قطب مرتبة الرضا .....
٣١٣	الشعور بالرضا على قدر المعرفة .....
٣١٤	الإلحاح في الدعاء لتحصيل أكبر نعمة .....
٣١٧	رمضان والقلوب الرقيقة .....
٣١٨	ليس تنوع الطعام، وإنما كثرة الضيوف .....
٣٢٠	صدى من وراء السماوات يدوي في القلوب .....
٣٢١	ليس هناك عملٌ يحل محل العمل في رمضان .....
٣٢٥	مصادر .....



## مقدمة

عند الاطلاع على العنوان الذي يحمله هذا الكتاب "إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى" سَنَدْرِكُ لِأَوَّلِ وهلةٍ أن هذا الكتاب يحمل في طياته ملخصًا لجميع المتطلّبات القلبية والفكرية والعاطفية التي يحتاجها العالم الإسلامي بشدة في هذه الأوقات العصيبة التي يمرّ بها.

بل يمكن القول إن إنسان اليوم يتلوّى في خضمّ أزماتٍ أشدّ عليه مما كان في عصر الجاهلية، فأضحى ينخدع بالأكاذيب، ويهرول وراء الأضواء المزيفة، ويلجأ إلى كلّ السُّبُلِ والأنظمة لَعَلَّهُ يَجِدُ حلاً لِأَزْمَاتِهِ، أو كأنه ينتظر مُنْقِذًا خارقًا أو عصا سحرية تُخْلِصُهُ ممّا حلَّ به، لكنّ هذا السلوك عمق من شَرخِ الأزمات.

وإن تسمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا بـ"إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى" وليس "أيام الحزن والأسى" فحسب ليعكس العالم الفكري لفضيلة الأستاذ فتح الله كولن، ويُجسِّدُ نَظَرَتَهُ الإيجابية إلى ما حوله حتى في أحلك الظروف ومُلَقَى الخُتُوفِ.

أجل، إن الأستاذ كولن قد ذأَبَ في جميع مقالاته ودروسه على اتِّباع أسلوب قرآني مُعَيَّن؛ إذ إنه لا يكتفي بتشخيص الداء فقط، بل إنه في الوقت ذاته يصفُ الدواء الناجع، ويبين نوعية التضخُّم السلبي الناتج عن عدم الأخذ بهذه الحلول، وقدَر الجماليات التي يُمكن أن تُضفي علينا نتيجة التداوي بتيك العقاقير الروحية.

وما كتبه الأستاذ كولن من مقالات نحو: "الفوضى، الابتلاء، الأمل"، "الفوضى، والعالم السحري للإيمان"، "نور في خضم الفوضى"، "الفوضى، والآمال اليانعة" لِيُوَيِّدُ كثيرًا من الأفكار التي عرضناها آنفًا.

وإنَّ مِنْ كَلِمَاتِهِ الرقاقة التي جادت بها قريحته في ختام حديثه في درس له سُجِّلَ ونُشِرَ في موقع (*herkul.org*) بعنوان "الحال والأمل" قوله:

"إن كَلِّيَ أَمَلٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعِنَايَتِهِ فِي أَنْكُمْ سَتَتَمَسِّكُونَ بِالِدَسَاتِيرِ الْمَاسِيَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْقِيمِ الْإِنْسَانِيَةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَتَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْأُمَامِ عَلَى الدَّوَامِ، تَحْدُوكُمْ نَسَمَاتُ الْأَمَلِ فِي فَتْحِ قُلُوبِ النَّاسِ، وَتَتَمَكَّنُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعِنَايَتِهِ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى حُسْنَادِكُمْ فِي الدَّخْلِ، وَتَجَاوِزِ الْمَصَائِبِ وَالنَّكَبَاتِ الْمُحْتَمَلَةِ فِي الْخَارِجِ"<sup>(١)</sup>.

وكتاب "إشراقات الأمل في دياجي الحزن والأسى" يندرج ضمن سلسلة "الجرة المشروخة" التي تحتوي على دروسٍ متنوعة ألَّفَها الأستاذ كولن في السنوات الأخيرة، وهذا الكتاب يرشد الأذهان إلى آفاقٍ عالية، ويعزفُ على الوترِ الحساسِ ويُلامسُ شغافِ القلوبِ بطرحه الفريد لموضوعات شتى؛ بدءًا من تفسيرٍ لبعض الآيات القرآنية حتى تحليل وشرح بعض الأحاديث النبوية، ومن الحياة الروحية والقلبية إلى الحياة الأسرية، ومنها إلى الحياة الاجتماعية، ومن الموقف الذي لا بدَّ أن نتخذه

عند مواجهة الصعوبات التي تعترضنا في حياة الخدمة حتى قضايا التربية والتعليم، ومن الدعاء الذي لا تكتنفه الغفلة إلى الإخلاص الذي هو لبُّ العمل، ومن ذلك كَلِّهِ إلى العلاقة بين الإخلاص والجهاد، والموقف الإيمانيّ إزاء شبكاتِ النفاقِ التي تجيشُ قلوبها حقداً وحَسداً، ومن الأزمات والآلام إلى الآمال التي علينا أن نتحلّى بها.

ونرى أنه من المناسب هنا أن نشارككم بعضَ الموضوعات التي جاءت بهذا الكتاب عليها تُسلطُ الضوء على مجمل ما جاء فيه من أفكار. فعلى سبيل المثال يوصينا الأستاذ فتح الله كولن بابتغاء مرضاة الله تعالى التي هي أعظم إحسانٍ من الله تعالى على عباده، فيقول في المقال المعنون بـ"نحو أفق الرضا":

"لما كان الرضا نعمةً أكبر بكثيرٍ من الجنةِ ونعيمها؛ وجب أن نرفع أيدينا إلى الله، ونضرع إليه بالدعاء دائماً قائلين: "اللهم بَلِّغنا أفق الرضا". أجل، علينا أن تكون أنفاسنا قائمة على "اللَّهُمَّ اهْدِنَا إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى"، ونستشعر دائماً "اللَّهُمَّ عَفْوِكَ وَعَافِيَتِكَ وَرِضَاكَ"؛ لأن الله تعالى وعد بأنه سيمُنَّ على الإنسان بما يطلبه بصدقٍ وإخلاصٍ، لكن لا بدّ من الإلحاح في الطلِّب؛ لأن استجابة الدعاء قد تتأخر بضع سنين أو عقوداً".

ثم يشير إلى الموقف الذي علينا أن نتخذه إزاء المنافقين بقوله في المقال المعنون بـ"الموقف الإيماني من شبكات النفاق الحاقدة":

"إنّ الآلام المستعصية، والخرابات الدائرة ينبغي ألا تُولِّد اليأس في روح الإنسان، وألا تُصيبه بالدُعر، غير أنّ هذا لا يعني أنّ نغض الطرف عن الدمار والتخريب الحادث، بل على العكس علينا مشاهدةً هذا التخريب والدمار المرّوع، لأن رؤيته تُذكّر

الإنسان بمسؤولياته وواجباته، وبهذه الطريقة فإن ذا الفكرة المثالية والإحساس المرهف السليم سيفكر ويتدبر فيما يطلبه الله تعالى من عباده الصادقين تجاه هذا المشهد، ويُركّز على ما يجب القيام به من أمور قائلًا: "ثرى لو أن نبيًا واجه مثل هذا المشهد ماذا عساه أن يفعل، وكيف كان سيتصدى له؟".

وفي مقال "دعاء جامع لسيدنا رسول الله ﷺ" يضع الكاتب يده على مشكلة اجتماعية خطيرة، فيقول:

"كما أن بعض الحكّام الذين جاؤوا من بعدُ عجزوا عن الحفاظ على العدالة التي سادت في عهد الخلفاء الراشدين ولجؤوا إلى سبيل المحاباة؛ فكانوا -على سبيل المثال- إذا ما أرادوا إرسال أحدٍ حاكمًا أو واليًا على مكان ما أو قاسمًا للغنائم اختاروه من بين أقاربهم، بينما لم يُحاب أيُّ واحدٍ من الخلفاء الراشدين ﷺ قريبًا ولا نسيبًا، ولم يميّزوا القريبَ من البعيد، ولم يُجاملوا أحدًا أبدًا؛ لأن الأمة التي تُوسد الأمانة لغير أهلها، وتعهّد بمسؤولياتها إلى الأقارب دون غيرهم أمةٌ قد انتهت أمرها، فكبر عليها أربعًا".

وما أروع أن ننهي هذه الاقتباسات من الكتاب بقول الأستاذ كولن في مقال "الجدارة والاستحقاق":

"مع الأسف يظهر في كل عهدٍ من ينزعج ويتضجّر من نشر الاسم المحمديّ الجليل على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن القلوب التي وهبت نفسها لخدمة الإيمان والقرآن لا تأبؤه -وهي تؤدّي وظائفها- بهذا اللوم الجائر من هؤلاء، ولا تخشى تهديداتهم، ولا تستنكف عن طريقها، بل تسير دائمًا في طريق الحقّ حذرةً كيما تتعثر بالعوائق التي تعترضها".



وأخيراً نرى من الأفضل أن نتطرق إلى مسألة مهمة لها علاقة كبيرة بموضوعنا ألا وهي أن قيمة المرشد الحق إلى الصراط المستقيم وحاجتنا إلى إرشاده وتوجيهاته تتبدى وتزداد أكثر في ساعة العسرة وأيام الأزمات وليالي المحن والاضطرابات، ومع هذا فدهي أنه لا يتمكّن الجميع من الاستفادة من هذه الإرشادات، ولا ينعم بها إلا الذين هيؤوا أنفسهم وقلوبهم لتلقيها.

وفي هذا الصدد نتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى فضيلة الأستاذ فتح الله كولن على إرشاداته وتوجيهاته، وندعو الله تعالى أن يتم نعمته عليه بالصحة والعافية ولا يحرمنا من مؤلفاته وإرشاداته وتوجيهاته. والله أعلم بالصواب.

أكتوبر/تشرين الأول (٢٠١٥م)  
دار النيل للنشر والتوزيع



## روح السلام

سؤال: فحوى فيلم "السلام"<sup>(٢)</sup> أن المسلمين استقرّ بهم المقام في بلاد دخلوها بالسلام، أما البلاد التي دخلوها تحت ظلال السيوف فلم يبق لهم فيها أثر يُذكر مهما طال مقامهم بها، فعلام يدلُّ الدخول بالسلام، وما مدلول روح السلام؟

الجواب: الأصل في الإسلام هو السلام، أما الحرب فهي أمرٌ عارض طارئ، ولا يُشرع القتال في الإسلام إلا للدفاع عن القيم التي لا بدّ من مراعاتها وهي الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فإن زحف عليكم من يقصد السوء والشرّ، وذاهمكم وهدّد وجودكم، فلا يمكنكم أن تستقبلوهم بالزهور، بل إنه ليتعيّن القيام بحملة تعبئة شعبية شاملة وإعداد كل ما تقتضيه المعركة.

ومن الأسباب المشروعة للحرب نصرّة المظلومين ورفع الظلم أينما كان وعلى أيّ شخص وقع، والحيلولة دون من يريد أن يقف حجرَ عثرة في مسار حرية الفكر.

(٢) فيلم "السلام" (٢٠١٣م - باللغة التركية) يتحدث عن معلمين فدائيين ذهبوا إلى أنحاء العالم لينشروا فيها روح السلام التي يحملونها وتضحياتهم ومعاناتهم، وكل محتواه واقعي لا خيال فيه.

## الهدف هو الردع فحسب

أسس القرآن الكريم مبدأ الردع لإرساء الأمن والسلام، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠/٨)، يأمرنا القرآن الكريم أن نتخذ شتى أنواع الإعداد لمواجهة أي خطر محتمل، ولنكون قوة رادعة تزرع الخوف في قلوب الأعداء وتحول دون وقوع الحرب ابتداءً.

وعلى مدى تاريخ الإسلام كلما سوّغت الظروف الحرب لجأت القلوب المؤمنة -مضطرةً- إلى استخدام السيف أحياناً؛ وغالباً ما كان الهدف من استخدام هذا الحق كبخ جماح القوى المعتدية، ومعاقبة المستبدين الذين يخلون بالأمن والتوازن العام في العالم، والحيلولة دون انتشار الفوضى في الأرض، وإقامة الحق والعدل فيها.

ولعلّ سائلاً يسأل: هل رُوّعت هذه الأهداف والمقاصد بتمامها على مدى تاريخ الإسلام؟

المشهد العام يقول: إن المسلمين قد راعوا الاستقامة في هذا الأمر، غير أن هناك فترات وعهوداً معينة وقع فيها البعض في خطأ اجتهاديّ، بتعبير آخر لما رُجّحت العدالة النسبية على العدالة المحضّة في بعض الفترات لم يُراعَ هذا الأساس بحذق ودقة عالية وإن كان ذلك في سبيل إحقاق الحق، فمثلاً بعض المعضلات لم يراعَ هذا الأساس فيها مراعاة كاملة إذ كان يمكن حلّها بالسيف الألماسيّ للقرآن والسنة الصحيحة أي دساتيرهما المحكمة، ولا حاجة حينئذ إلى السيف الماديّ، وأرى أن هذا الضرب من الخطأ في الاجتهاد كان من أسبابِ قِصْرِ عُمرِنا في بعض البلدان خلال فترات مختلفة عبر التاريخ.

## السلام قيمة إنسانية عالمية

بين الماضي واليوم اختلاف كبير في الظروف، فقد تكوّن في العالم كله اليوم قدرٌ ما من الثقافة الديمقراطية، وازدادت أهمية العلم والبيان أكثر مما مضى، وأصبحت للدساتير الألماسية للقرآن والسنة أهمية متميزة وتأثيرٌ خاص في الدفاع عن الحق والحقيقة وتشريبها للقلوب في جوّ كهذا لا تتأتى فيه الغلبة على المدنيين المثقفين إلا بالإقناع؛ فمن الأهمية بمكان استثمار العلم والبيان والفن في التعبير عن القيم الإنسانية العالمية مثل التضحية والتفاني ونذر العمر في سبيل الآخرين؛ تلك القيم التي ولّدتها وعمّرتها القلوب المؤمنة في أعماق أرواحها.

إنّ فيلم "السلام" انطلق من هذا المبدأ أعني انفتاح الأرواح الفدائية على العالم، ولما عرضوا لي أجزاءً منه قبل عرضه لأبدي وجهة نظري حاولت أن أقيمه إجمالاً في حدود معرفتي رغم أنني لا أعلم لي بالأفلام والسيناريو والإنتاج؛ والفيلم عمومًا فيه جوانب إيجابية حرية بالتقدير؛ لأنه يعرض مسألة الفكر والمبدأ والتضحية والإخلاص بما يتوافق ويليق كثيرًا بإنساننا، ومسألة انفتاحهم على أقاليم كثيرة على مستوى العالم من إفريقيا والشرق الأقصى حتى البلقان.

أجل، كان من المهم جدًا أن يُعنى المعلّمون بمن يعيش في مثل هذه البلدان وينشأ على ثقافات ومبادئ مختلفة، وأن يغتموا لأمرهم وينذروا حياتهم في سبيلهم، ويلتئوا قلوبهم بالحب والقيم الإنسانية، ويسموا بهم إلى مستوى نضج معين؛ وهذا الذي حاول الفيلم أن يشير إليه.

وتعلمون أن فطرة الإنسان تكمن فيها ردة فعل تجاه الأجنبي، وتكون ردود الفعل أشدّ وأصعب لدى من سأمه الآخرون الصهر والسحق والنفي

من قبل، إذ يتعسر عليهم قبول الآخرين، ورغم كل هذه العوارض السلبيّة فإن ما قام به المتطوعون التربويون المهاجرون إلى الدول المختلفة، ونفوذهم إلى قلوب الشعوب في هذه البلاد، وتأسيسهم جسورًا من الحب والحوار والسلام بين الثقافات والمجتمعات المختلفة لهو أمرٌ جديرٌ بالاحترام والتقدير.

### معلمون تُقبَلُ أقدامهم

إن إنساننا لما اتَّخذ مبادئ القرآن والسنة الماسية مُرشدةً له غدا رحبَ الصدرِ رحابةً تتيح لكلّ من يدخله أن يتربّع فيه، حتى لكأنه رسالة تدوي في أرجاء الدنيا كلّها تشدّ الحبّ والعالم الجديد.

ومن مشاهد الفيلم: معلّم رأى طالبين على جسر تاريخي يتشاجران، وفجأة سقطا في النهر، فألقى بنفسه على إثرهما لينقذهما، ففداهما بروحه وغرق، فلما رأى الخصمان موقف المعلم الفدائي تعانقا وراحا يبكيان؛ لم أملك عينيّ أمام هذا المشهد، وربما كان هذا حال أكثر المشاهدين، ولا تختلف المشاهد التي مُثِّلت في إفريقيا وأفغانستان عن هذا، وأهمّ ما في هذه المشاهد أنها واقعية، بل إنّ الممثلين للفيلم ذكروا أنّهم سُجِّروا بهذه اللوحة الواقعية من تضحيات المعلمين في الأماكن التي ذهبوا يصورون فيها.

هؤلاء المعلمون الفدائيون وجدوا أنفسهم أحياناً وسط حرب وما برحوا مدارسهم وطلابهم حتى أثناء حصار المدن التي أقاموا بها؛ وكان لمشاعر الوفاء الفياضة هذه أثرها في الحفاظ على الطلاب؛ ولما لم يعبأ هؤلاء المعلمون بالموت ومضوا في أداء رسالتهم انفتحت لهم أبواب القلوب.

ونظّم هؤلاء الفتية المهاجرون في سبيل الغاية المثلى رحلات إلى أرجاء العالم كافة؛ منهم من ترك عروسه بفستان العرس وسافر، ومنهم من ارتحل وقد خطب حديثاً، ومنهم من قبّل أيدي والديه الباكين مستودعاً الله إياهما وانطلق في طريقه، وبعد هذه التضحيات أليس جديراً بهم أن تُقبّل أقدامهم لا جباههم فحسب؟

لا نستطيع القول إن كل واحد منهم يفقه فلسفة النهج الذي يسير فيه بكل أبعاده، إلا أنه لما قيل لهم: "سيروا على بركة الله" امتثلوا متمسكين بشعور التسليم في قلوبهم متوكلين راضين دون أدنى تدمر، يسوقهم الله فينساقون انسياقاً مباركاً، ولم أجد ولم يبلغني - وإن وقع - أن أحداً من هؤلاء المهاجرين تبرم وتقهقر؛ آلاف الشباب النوابغ تخرجوا في أرقى الجامعات، وما إن صدرت شهاداتهم حتى انطلقوا بشوقٍ عارمٍ وعشقٍ بالغٍ، ولم يفكروا إلا في غاياتهم المثالية رغم تطلعات آبائهم وأمهاتهم ومن حولهم، ومضوا في طريقهم عن طيب خاطر وحاديهم:

أبِالْنَفْسِ يُفْتَنُ مَنْ هُوَ بِالْحَبِّ مُغْرَمٌ  
أبِالْحَبِّ يُفْتَنُ مَنْ هُوَ بِالنَّفْسِ مُتَّيِّمٌ  
سلكننا طريق العشق وإننا لمجانينٌ هُتِّمٌ  
أيا قلبٍ مَهْ، فما غايتنا السمعة والمجد

### صَبِّغُوا الْقُلُوبَ بِالسَّلَامِ

انطلق إخواننا هؤلاء ينشرون السلام حيث حلّوا، وغدت الكتب والمجلات وبرامج التلفزة المختلفة مرآة لما فعلوا، فَصَبَّغُوا الْقُلُوبَ بِالسَّلَامِ كما نقشوه بالأقلام<sup>(٣)</sup>، وعلموا طلابهم معنى السلام، فإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً.

(٣) مشهد من الفيلم: يكتب المعلم كلمة "السلام" على السبورة ويشرح معناها للطلاب.

هكذا، فإن سرتم على هذا النحو فسْتُخَلَدون حيثما حللتهم، وتحظى رسالة السلام التي تحملونها بمكانها في النفوس، وتظل تدوي في الأفتدة والصدور؛ فالحق تعالى لا يُضِيع هذه الخُطى سدى؛ فكما ورد في الحديث إن تقربتم إليه شبرًا تقرب إليكم ذراعًا، وإن تقربتم إليه ذراعًا تقرب إليكم باعًا، وإن أتيتموه تمشون أتاكم هرولةً، فكان سمعكم الذي تسمعون به، وبصركم الذي تبصرون به، ويدكم التي تبطشون بها... فكيف لا تُؤثِّرون في النفوس إن منّ عليكم الحق تعالى بهذا اللطف الواسع؟

وحمادى القول أن السلام هو رأسمالنا الوحيد اليوم، يوم أن أغمدت السيوف المادية، ومقتضى السلام أن تكون بلا يد إزاء من ضربك، وبلا لسان تجاه من سبك، وبلا قلب يغضب أمام من آذاك، فعلينا ونحن ماضون في طريقنا ألا نعبأ باللوم، وأن نثبت على موقفنا ونقاوم ما حيينا، وأن نقول: "هذه دارٌ تحمّل، لا دار تضجّر"، وأن نبتغي الحركة الإيجابية دائمًا، وأن نعكف على واجبنا فحسب.



## الرضا في الدنيا والرضوان في الآخرة

سؤال: هل ثَمَّةَ فرقٍ بين الرضا والرضوان؟ وما أهمُّ الوسائل للوصول إلى رضوان الله تعالى؟

الجواب: إن الرضا يكون من الله ومن العبد، وهو والرضوان بمعنى واحد، إلا أن الرضوان يعبر به عن الرضا الكثير، وأعظم الرضا رضا الله تعالى، لذا حُصِّ الرضوانُ في القرآن بما كان من الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

رضا العبد هو أن يرضى العبدُ عن الله ﷻ، وعن دين الإسلام المبين الذي وضعه ربُّه، وعن رسول الله الذي بلَّغنا هذا الدينَ الحنيفَ، وأن يُذعنَ قلبياً لكل ما قدره الله، وأن يستقبلَ ما حلَّ به من بلايا ومصائب بسكينةٍ واطمئنان، ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى مثل هذا الأفق من الرضا بقوله: "ذاقَ طَعْمَ الإِيْمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا"<sup>(٥)</sup>.

(٤) انظر: الراغب الإصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مادة "رض ي".

(٥) صحيح مسلم، الإيمان، ٥٦.

ومن خلال هذا البيان المبارك يكشف النبي ﷺ من جهةٍ عن طبيعة العلاقة بين العبد وربِّه، ويحدِّد لنا من جهةٍ أخرى الهدف الذي يجب علينا أن نصبو إليه؛ وفي قول مولانا تبارك وتعالى في مواضع عدَّة من القرآن الكريم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (سورة المائدة: ١١٩/٥) إشارة إلى أن بلوغ أفاق الرضا هو أسمى غاية ينبغي للمؤمنين الوصول إليها.

فَمَنْ حرص على الرضا، وجعله دائماً جُلَّ همِّه، وغايةَ آماله، وسعى سعياً حثيثاً في سبيله؛ ففي هذا دلالة على رضا الله تعالى عنه؛ لأن الله ﷻ إن لم يرضَ عن عبدٍ من عباده حرَمَهُ الشعورَ بالرضا، وعلى ذلك يمكن أن يُقال إن مَنْ لم يَرْضَ عن الله تعالى وقضائه وقدره ولم يقابل كلَّ مصيبةٍ تنزل به بتسليمٍ وطيبِ نفسٍ فهذا يُعدُّ علامةً واضحةً على عدم رضا الله تعالى عنه.

### الرضوان: بشرى السعادة الأبدية

أما الرضوان في الآخرة فهو الجزء الذي يتحصَّل عليه العبد مقابل سعيه وجهده في الدنيا لنيلِ مرضاة ربِّه، ولا يعزُبُ عن علمكم أن كلَّ عبادةٍ يؤدِّيها الإنسانُ في الدنيا تتمثل له نعمةً من نعم الجنة في الآخرة؛ أو كما يقول الأستاذ بديع الزمان رحمته الله تعالى: "إن كلمة الحمد لله التي يقولها المؤمنُ في الدنيا تصيرُ ثمرةً مجسِّمةً في الآخرة"<sup>(٦)</sup>.

أجل، إن الصائم الذي يصبر على الجوع والعطش في الدنيا سيحظى بالدخول من باب "الرَّيَّان" في الآخرة<sup>(٧)</sup>؛ بمعنى أنه سيصل إلى منبعٍ إذا شرب منه فلن يظمأ بعده أبداً؛ باختصار إن إيمان الإنسان وسلوكياته

(٦) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الحادية والثلاثون، الأساس الثالث، ص ٦٧٨.

(٧) انظر: صحيح البخاري، الصوم، ٤؛ صحيح مسلم، الزكاة، ٨٥.

في الدنيا تتدثر بمعانٍ مختلفة في الآخرة، إذ تتمثل أمامه أحياناً نعمةً محسوسة تُرى بالعين وتُمسك باليد، وأحياناً أخرى انشراحاً في الصدر، أو موجاتٍ تحمل نساءم الرضا.

ومن ثمّ فالرضوان هو الفضلُ والإحسان الذي لا حدودَ ولا شواطئَ له، يأتي على صورة جسمٍ محسوسٍ ملموسٍ يمنّ الله به على عباده المؤمنين في الآخرة، وبعبارة أخرى فالرضوان هو نعمةٌ تفوقُ كلَّ التصوّرات، يتفضّل الله بها على عباده المؤمنين في دار السعادة الأبدية؛ إذ يسقي الله أرواحهم منها؛ فيشعرون بنفحةٍ من الذوق الروحاني واللذة المعنوية التي تُنسيهم حتى نعيم الجنة.

### أيّهما أعظم فضلاً: الرضوان أم رؤية جمال الله تعالى؟

وفي هذا الصدد قد ترد على الأذهان مسألة: أيّهما أعظم فضلاً الرضوان أم رؤية الله تعالى؟ فمن خلال ما ذكره علماء أصول الدين ذوو الدراية الكبيرة بالكتاب والسنة الصحيحة يمكننا أن نستنبط أن رؤية جمال الله هي من أعظم نعم الجنة، وقد عبر الشيخ سراج الدين الأوشي رحمته الله عن هذه الحقيقة في "بدء الأمالي" وبيّن اعتقاد أهل السنة في هذا الأمر فقال:

يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ كَيْفٍ      وَإِدْرَاكٍ وَضَرْبٍ مِنْ مِثَالٍ  
فَيَسْتَوُونَ النَّعِيمَ إِذَا رَأَوْهُ      فَيَا خُسْرَانَ أَهْلِ الْإِعْتِرَالِ<sup>(٨)</sup>

ويقول الأستاذ النورسي رحمته الله: "إن قضاء ألف سنة من حياة الدنيا وفي سعادةٍ مرفّهة، لا يساوي ساعةً واحدةً من حياة الجنة! وإن قضاء حياة ألف سنة وسنة بسرورٍ كاملٍ في نعيم الجنة لا يساوي ساعةً من فرحة رؤية جمال الجميل سبحانه"<sup>(٩)</sup>.

(٨) الأوشي: بدء الأمالي، البيتان ٢٠-٢١.

(٩) بدیع الزمان سعید النورسي: المكتوبات، المكتوب العشرون، المقام الأول، ص ٢٧٨.

نعم، إن رؤية جمال الله فضلٌ إلهيٌّ عظيمٌ يبزُّ نعيمَ الجنة، ومع هذا فإنَّ النبي ﷺ يقول:

"إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ!

فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ!

فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟

فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ.

فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟

فَيَقُولُ: أَجَلٌ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَشْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"<sup>(١)</sup>.

فخطابُ الله تعالى للمؤمنين في الجنة يدلُّ على أنَّ الرضوانَ هو أعظمُ إحسانٍ يبعثُ الجبورَ والانشراحَ في نفس الإنسان لدرجةٍ تُنسيه رؤيةَ جمالِ الله، ويُشعرُه بنسماتٍ من الأذواقِ الروحانية التي يتعدَّرُ تخيلُها وتصوُّرها.

وقد ذكر ربُّنا ﷺ صراحةً في سورة التوبة أن الرضوانَ هو أعظمُ نعمِ

الجنان فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة التوبة: ٧٢/٩).

### من طلب الرضا نال الرضوانَ

حاصل القول: إن رضا العبد عن ربه ورضوانَ الله عن عبده وإن كان كلُّ منهما يعبرُ عن حقيقةٍ مختلفةٍ نظرًا لتعلُّقِهما بالدنيا والآخرة إلا أن بينهما علاقةً وطيدةً تُشبهُ علاقةَ السببِ بالمسببِ والعلةِ بالمعلولِ، فإذا ما

(١) صحيح البخاري، الرقاق، ٥١، التوحيد، ٣٨؛ صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ٩.

أعطيتهم إرادتكم الجزئية حَقَّها في الدنيا، وعَبَّرتكم عن رغبتكم في رضوان ربِّكم، وبذلتكم جهدكم في هذا السبيل شَرَّفكم اللهُ برضوانه نتيجةً ما قمتم به من سعيٍّ وجهدٍ محمودٍ.

غير أن هناك أمراً علينا أن نفهمه على الوجه الصحيح ولا نغفل عنه وهو: أن العلاقة السببية والعِلِّيَّة بين هذين الأمرين لا تتوافق أو تنطبق مع قانون السبب والنتيجة في العالم المادِّي؛ لأنكم إن قَطَرْتُم قطرةً واحدةً من الرضا في الدنيا تتبخَّر هذه القطرة وتَصَعَّدُ في السماء وتَعْظُم حتى تصير بحرًا خِصْمًا في الآخرة، بيد أن القطرة من حيث قانون السبب والنتيجة لا تفضي إلى بحرٍ ألبتة، ولكن الحقُّ تبارك وتعالى بِطُفهِ الذي لا حدَّ له وبرحمته الواسعة المُعَدَّة قد حوَّل رضاكم عنه الذي يُمَثِّل قطرةً في الدنيا إلى محيطٍ متلاطم الأمواج في الآخرة.

### جَنَاحان يوصلان إلى الرضوان: إعلاء كلمة الله والإخلاص

إن من أقصر الطُرُق وأعظم السبل التي توصل الإنسان إلى إحراز رضا الله ورضوانه إعلاء كلمة الله تعالى. أجل، إن تبليغ كلمة الله وإعلاء شأنها في كلِّ الأصقاع المظلمة من الأرض والعدوِّ كالفرس العربي الأصيل دونَ تعبٍ ولا نصبٍ في سبيل أن تُرْفَرَف الروح المحمَّديَّة في كلِّ أرجاء العالم لِمَنْ أعظم الوسائل التي توصل الإنسان على جناح السرعة إلى رضا الله، وعلى ذلك يمكن القول إننا وإن كنا نعتبر إعلاء كلمة الله وسيلةً للوصول إلى الرضوان فهي وسيلةٌ بمستوى الغاية.

فعلى الإنسان أن يهتم في جميع حركاته وسكناته بإحياء الآخرين، وأن يبذل وسعه لتتعلَّم الإنسانية قواعد سلوكية جديدة، وأن يقتنص الفرص في سبيل توجيه الإنسانية إلى الله تعالى، وأن يعشق هذه الوظيفة

ويتعلّق بها؛ حتى إنه إذا لم يقدر على أدائها نَدَبَ حَظُّهُ واعتبر حياته التي يعيشها هباءً وعبثاً.

ولا جرم أن على الإنسان أن يكون مخلصاً عند أدائه لوظيفة إعلاء كلمة الله حتى لا يخسر في موقع هو ادعى للكسب، فالمخلص هو من يُجسِّدُ الإخلاص في شخصه، لكن يجب عليه أن يركّز تركيزاً تاماً على مسألة الإخلاص هذه لدرجة أن يتقالها ويسعى سعياً حثيثاً ليكون من المخلصين، والمخلص هو الذي يصلُ بفضل ربه إلى درجة الخلوص والصفاء ويصفو ويصبح برّاقاً لامعاً حتى لكأنه هو الإخلاص عينه، وهذه ميزة خاصة بمن قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (سورة ص: ٤٧/٣٨) وعلى رأسهم الرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ، ولكن ينبغي للمؤمنين أن يُسدِّدوا نظرهم إلى هذا الأفق العظيم حتى يصلوا إلى هذا الهدف السامي على مستوى "الظليّة" - إذ إن مستوى "الأصليّة" منه خاصّ بالأنبياء ﷺ - وأن يتمثلوا المراد الإلهيِّ دائماً، ويؤدُّوا كلَّ عبادتهم كما أمرهم ربُّهم، وألا يربطوا عبوديتهم بأيّ غايةٍ دنيويّة، بل وينسلخوا من كلّ غرضٍ أخرويٍّ سوى رضوان الله، وبعد ذلك يفوضوا نتيجة الأمر إلى الله تعالى.

وبذلك تبدأ طبيعة الإنسان الذي وصل إلى هذا المستوى من الشعور في إعطاء ردِّ فعلٍ تلقائيٍّ حيال أيّ شيءٍ خالٍ من الإخلاص، فمثلاً نجد هذا الإنسان لا يتشوّف ألبتة إلى أيّ غرضٍ دنيويٍّ كتقدير الآخرين واستحسانهم حتى وإن أحرز نجاحاً يبهر العيون، أو قال كلاماً يُحرّك المشاعر في القلوب، أو كتب مقالاً يمتدحه عليه فُحُولُ الأدبِ والشعر؛ فإن ورد بخياله العفويّ -ناهيك عن تصوُّره واستحضاره- شيءٌ آخر

سوى الله تعالى؛ انزوى على الفور، واستغفرَ ربَّه من الشَّرِّ الخفيِّ، بل وعاتبَ نفسه، ورمى بها في أحواض التوبة والإنابة والأوبة حتى يُخْرِجَهَا طاهرةً مطهَّرةً.

وهذا المستوى من الإخلاص هو من أهم الوسائل للفوز برضوان الله تعالى في الآخرة، فيَقْدَرُ تعمُّقَ الإنسان في إخلاصه في الدنيا بِقَدْرِ وصوله سريعًا إلى رضوان ربِّه في الآخرة، وربما يعصمه الله من هول القبر وفرعه، فلا يذوق عذابه ولا يتجرَّع معاناته؛ فاعتبارًا من اللحظة التي يوضع فيها هذا الإنسان في قبره يرتقي عموديًا منتشياً في هذا الأفق بما متَّعه الله من لطائف ربَّانية.

ومن ثم على كلِّ مؤمن أن ينشد وظيفة إعلاء كلمة الله وأن يراعي الدقة البالغة عند أدائه لهذه الوظيفة من أجل الفوز بالإخلاص والمحافظة عليه.





## موقف المؤمن والمنافق من المصائب

سؤال: شبه سيدنا رسول الله ﷺ في حديث شريف له المؤمن بالزرع والمنافق بشجرة الأرز، فما معنى هذا الحديث؟

الجواب: تعددت وجوه رواية هذا الحديث المشار إليه في السؤال؛ فاختلقت ألفاظه، ومن ذلك ما ورد في صحيح مسلم، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ، لَا تَهْتَرُ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ"<sup>(١١)</sup>.

وتشبيه النبي ﷺ المؤمن بالزرع إنما يدل على أن الزرع هو خيرُ مثالٍ للتعبير عن حال المؤمن إزاء ما يواجهه من بلايا ومصائب، فلا يغيب عن علمكم أن الرياح إذا ما هبت هزّت الزرع وأمالته إلى اليمين مرّةً وإلى اليسار مرّةً، وإلى الأمام تارةً، وإلى الخلف تارةً أخرى؛ وبالتالي يهيم الزرع بوجهه على الأرض، ولكن لا تكاد تهدأ الرياح والعواصف حتى يعود إلى الاستواء مرّةً أخرى، وهكذا المؤمن يتعرّض دائماً للبلايا والمصائب، ولكنّه -بفضل الله وعنايته- لا يسقط أبداً وإن اهتزّ. أجل، إن المؤمن يتعرّض دائماً لكثيرٍ من الابتلاءات والمصائب في هذه الدنيا حتى

(١١) صحيح مسلم، صفة المنافقين، ٥٨.

يرتقي معنوياً، وتصفو طويته، ويرجع إلى فطرته الأصلية، ويحافظ على شدّه المعنوي في كفاحه للشرور والآثام، إلى غير ذلك من الحكم التي نعلمها أو لا سبيل لنا إلى معرفتها، وثمة مقولةٌ دخيلة على اللغة العربية مفادها "المؤمن بلوي"؛ وهذا يعني أنّ المؤمن دائماً ما يتعرّض للبلاء وتحلّ به المصائب كلّ حين، وكما: يقولون العبرة بالمعاني لا بالألفاظ والمباني، فقد جاء في الحديث الذي رواه سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه سأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ صلى الله عليه وآله: "الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ" (١٣).

وإذا نظرنا إلى المسألة من منطلق هذا الحديث سنجد أن آل البيت عليهم السلام هم أكثر الناس تعرّضاً للبلايا والمصائب، فلقد لاقوا شتى أنواع العذاب والاضطهاد على أيدي مراكز القوّة والنفوذ؛ ففُطّعت أطرافهم، بل وسُتِيق بعضهم، وذُبح البعض الآخر، ثم ارتحلوا إلى الحقّ تعالى بعد أن ذاقوا طعم الشهادة، ولكن مع هذا فإن ما أصاب هؤلاء أقل بكثير ممّا نزل بالسابقين الأولين، وما حلّ بالسابقين الأولين أقل بكثير ممّا لاقاه مفسخة الإنسانية صلى الله عليه وآله؛ لأن كل إنسان ينزل به البلاء حسب مستواه وقدره وقيّمته.

### الثلوج والزوابع والعواصف تجد مكانها في الذرى

لما كانت الأرواح السامقة تتبوّأ مكانها دائماً في الذرى العالية؛ فإن الثلوج إذا ما هطلت تجدها تهطل أوّلاً على هذه الأرواح، وإذا ما نزلت حبات الثلوج اصطدمت بدايةً بهؤلاء، وعلى نفس الشاكلة تتحوّل رؤوس هؤلاء أوّلاً إلى كتلة من الجليد؛ بمعنى أن هؤلاء هم أوّل مَنْ يتلقّى الضربات الأولى لكلّ شيء، فمثلاً الإمام الغزالي لم يفهمه المجتمع الذي

يعيش فيه خلال فترةٍ معينة من حياته، فتعرض للتهجير؛ فأخذ نفسه وانزوى بعيداً عن أعين الناس، واضطّر إلى أن يبيت وحيداً بين المقابر، وإذا ما تأملنا في تضرّعات وابتهالات سيدي عبد القادر الجيلاني أدرنا جيداً قدر ما أصاب هذا الرجل الصالح من مصائب وابتلاءات، وكذلك لا يختلف سيدي أبو الحسن الشاذلي عن سابقيه وغيرهم من الأولياء والصالحين.

وإذا ما نظرنا إلى العصر الحالي وتأملنا المعاناة التي كان يكابدها مهندس الفكر في هذا العصر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي سيُختل إلينا وكأن البسمة لا تعرف الطريق إليه، لقد جاء هذا الرجل العظيم إسطنبول وهو في ريعان شبابه، محمّلاً بأفكار رائعة لا تطرق أذهاننا اليوم حتى ولو في المنام ونظرًا لأن "مستشاري السلطان" لم يعقلوا ما جاء به فقد ألقوا به في مستشفى المجانين بحجة أنه يهذي في كلامه، ولما وقف مستشارو السلطان في مواجهة هذه الآراء والأفكار تعذّر حتى على العقلاء من ذوي البصائر في زمانه أن يفهموا كلامه.

والحق أن الإنسان لا يصل إلى الكمال في الإيمان ما لم يُتهم بالجنون بسبب إيمانه<sup>(١٣)</sup>، ولأن هذه القامة الشامخة قد بلغت الكمال في الإيمان فقد وصمها بالجنون.

بعد ذلك شارك الأستاذ النورسي في الحرب ضدّ الروس، فقضى أياماً صعبةً في ظلّ الظروف القاسية هناك، ووقع أسيراً، فتعرض في الأسرٍ للأذى والاضطهاد، ثم عاد إلى وطنه علّه يجد السعادة والهناء، لكنه تعرّض هذه المرة لتنكيلٍ آخر؛ حيث انزوى وحيداً إلى غارٍ في مدينة

(١٣) يقول رسول الله ﷺ "أَكْبَرُوا ذَكَرَ اللَّهُ حَتَّى يَقُولُوا: مَجْنُونٌ" (مسند الإمام أحمد، ١٨/١٩٥؛ أبو يعلى: المسند، ٥٢١/٢).

"وَأَنْ"، فما لبثَ أن قُبِضَ عليه فجأةً وهو يعيشُ عزلته هناك ولم يتخلَّص -طوال خمس وثلاثين سنة عاشها بعد هذه الحادثة- ممَّا يكنه البعض له من مشاعر العداة في الدين، وما يضمرة البعض الآخر من غلٍّ وحقْدٍ وحسدٍ؛ فتوالت عليه الأحكام واحدًا تلو الآخر حتى إنه تعرَّض للنفي والسجن والعزل والسَمِّ والمحاكمات وحُكْم عليه بالإعدام، وغير ذلك.

### كل هذا العناء يلاقيه هؤلاء ونحن نسَمِّي ما يصيبنا عناء!

حُمادى القول: إن أشدَّ الناس بلاءً هم الأنبياء ثم الذين يلونهم، فالأقرب والأقرب كلُّ حسب درجته ومرتبته، ومن أهمِّ الحُكْم في هذا الأمر أن هؤلاء الرواد الذين تحمَّلوا عبء الدعوة إن لم يتعرَّضوا لمثل هذه البلايا والمصائب الكبيرة أخذ أتباعهم ومن ساروا خلفهم يشكون ويتذمرون من أدنى بليَّةٍ تحلَّ بهم، فقرصة البعوضة أو النحلة تؤزِّقهم، وإذا ما رأوا عقربًا أو حيةً همَّوا بالصراخ والصياح دون أن يقتربا منهم، ولكن إن رأى هؤلاء الأتباع الرواد السابقين وهم يتحمَّلون هذا القدر من المعاناة دعاهم ذلك إلى السلوى وقالوا في أنفسهم: كلُّ هذا العناء يلاقيه هؤلاء ونحن نسَمِّي ما يصيبنا عناء! ولذا فإن أحوال من هم في موقع القدوة تنبئ بأموٍ كثيرة لمن يأتون من بعدهم، فمن ينظر إليهم ويشاهد الأحداث التي نغصت عليهم حياتهم تختلف رؤيته ومشاعره وقراءته لتلك الأحداث التي مرَّوا بها، وفي النهاية تحلو له الآلام التي يعايشها.

أما المنافق "وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ" فقد شبَّه الرسول الكريم ﷺ هنا المنافق بشجرة الأرز، ولا يعيننا هنا أن تكون الشجرة المشار إليها في الحديث هي شجرة السرو أو الصنوبر أو الأرز أو الدلب، أمَّا ما يعيننا فهو الوصف الذي اكتسبه المنافق "لا تهتز حتى تُستحصد"؛ يعني أن هذه

الشجرة التي تبدو ثابتة في الظاهر إذا ما تعرّضت لريحٍ شديدةٍ انخلعت من جذرها وسقطت، ولم تستطع الاستواء مرةً أخرى. أجل، إن ذلك المنافق الذي يمشي متبخترًا ويظنّ نفسه أنه غير معرّضٍ للسقوط إذا ما اعترضته ريحٌ شديدةٌ سقط على الفور وعجز عن الاعتدال مرّةً أخرى، أما الزرع فسرعان ما يستوي مرّةً أخرى وينهض مهما كانت شدة الريح التي عصفت به.

وهنا ملمحٌ لطيفٌ يرِدُ بالخاطرٍ ويتعلّق بهذا الحديث الشريف: قد يهتَزُّ المؤمن ويتمائلُ منفردًا فيدورُ رأسه ويعشى بصره إزاء ما يُلَاقِيه من مغريات، فيتعرّض لهزّةً مؤقتةً إن سلم نفسه للذنوب والآثام.

ومن ثمّ يجب علينا أن نأخذ بيديه ونسدي له النصح ونرشده إلى الطريق القويم، ونخلّصه ممّا تردّى فيه، وهذا أمرٌ يسيرٌ عمله بالنسبة للفرد الواحد، ولكن إن عمّت البلوى وانغمس المجتمع كلّ في الذنوب؛ تفحّم من داخله وسقط سقوطًا مدويًا يشبه سقوط شجرة الدلب الضخمة، ولذا علينا أن نمدّد أيدينا إليه، ونساعده على القيام مرةً أخرى، ونبتّ الحيوية فيه مجددًا، وهذا بالطبع أمرٌ شاقٌ كثيرًا مقارنةً بما نفعله مع الفرد.

ولكن يجب أن تكون هذه الغاية السامية هي هدف تلك الأرواح التي نذرت نفسها لإقامة دين الإسلام المبين، بمعنى أنّ على هؤلاء أن يحتضنوا جميعَ شرائح المجتمع وأن يكونوا هم القلب النابض في كلّ مكان، وأن يدلّوا المجتمع الذي يعيشون فيه على طرق الانبعاث من جديد؛ لأن الوظيفة الأساسية والمسؤولية الحقيقية التي تقع على عاتق هؤلاء هي رفع شجرة الدلب الساقطة مرّةً أخرى، وبعث الحيوية والطمأنينة فيها من جديد.



## رُوح التفاني طوال العمر

سؤال: ما الضوابط الأساسية التي يجب مراعاتها لاستدامة الحفاظ على حيوية روح التفاني في القلوب؟

الجواب: بدايةً لا بدّ للقلوب التي نذرت نفسها لخدمة الحق أن تتجنّب شتى الأفعال والتصرّفات التي من شأنها الإضرار بمعايير الثقة، وأنا لا أظنّ أو أتوقّع من هؤلاء الأشخاص -الذين جاشت قلوبهم بالمشاعر الصادقة فوقوا أنفسهم على دعوة ساميةٍ وغايةٍ نبيلةٍ دون التشوّف لأجرٍ دنيوي- أن يتعمدوا القيام بتصرّفات تؤدي إلى تشويه صورة خلطائهم أو الإضرار بدائرتهم، لكن قد يخطو البعض خطواتٍ غير محسوبة ويشرعون في أعمالٍ دون حسابٍ أو تخطيط، فيؤدّي ذلك إلى وقوع بعض الأخطاء التي تتسبّب في تشويه صورتهم، ومثل هذا الحال يقتضي أن يبذلّ هؤلاء الأشخاص الذين اجتمعوا حول فكرةٍ وشعورٍ واحدٍ كلّ وسعهم لتلافي هذه الأخطاء على الفور مستعينين في ذلك بالمشورة والحركة الجماعية، فإن قاموا بهذا؛ تخلّص المخطئ من الخجل، وما أفسح المجال لوجود بعض الأفكار السلبية حول الدائرة التي ينتمون إليها.

## اللهم لا تُخزِ أصدقائي بسببي

كان مولانا "خالد البغدادي" يتحرّى الدقة البالغة في مسألة الاستغناء عن الخلق، وهو أمرٌ يشكّل نموذجاً جيّداً لنا في هذا الصدد، فنراه مثلاً يتبّه طلابه ومريديه منذ البداية إلى بعض الأمور السلبية التي انتشرت في عهده ويحذّرهم منها حتى لا تتغلّب عليهم أو تتسلّل إليهم، وكان يقول لهم: "احذروا من مخالطة الأثرياء والحكّام ورجال الدولة؛ لأن هؤلاء يجعلون من عطاياهم لكم وتوجههم إليكم بل وابتساماتهم في وجوهكم وسيلةً لرشوتكم، فإن خضعتم لهؤلاء اضطرتتم طوال عمركم إلى التكفير عمّا جتّه أيديكم، ولذا عليكم أن تقنعوا بما في أيديكم ولا تستجدوا شيئاً من أحدٍ، فإن كنتم متروّجين من واحدةٍ فلا تتطلّعوا إلى الثانية، ولا تنسوا أن هؤلاء الحكّام وأرباب الدولة يودّون أن يسيطروا عليكم بما سيضرّبونه من أغلال على أيديكم"، ومن ثمّ فإنني أرى أنه ينبغي لمن جعل الأولويّة في حياته للخدمة أن ينأى بنفسه عن أيّ عملٍ قد يؤدّي إلى سوء الظنّ فيه، وألا يحوم ألبتّة حول مواضع التهم والشبهات، فمثلاً عليه أن يأخذ حذره ولا يمر من أمام الماخور حتى لا يجعل أحداً يقول عنه: ماذا كان يفعل هذا هنالك؟ ولذا لا بدّ من توخّي الدقة والحذر حتى لا يُنسب العيب الذي يقوم به الفرد إلى الجماعة.

لكن علينا ألا ننسى أبداً أننا مهما راعينا الدقة؛ فلا بدّ من التعرّض لسهام النقد والاتّهام، فهناك بعضُ الناس رغم أنّكم تبعثون فيهم روح الوحدة والتضامن معهم وتترنّمون بالحب الدائم لهم ولا تقفون موقف العداء من أيّ واحدٍ منهم؛ فإنهم يحملون لكم كلّ حقدٍ وغلٍّ، فلا يصفحونكم ولا يحتضنونكم بل ويردّون باشمئزازٍ على تبسماتكم، وعند



ذلك لا يكون أمامكم إلا أن تعرضوا حالكم على ربكم وتتوسلوا مبتهلين ومضرعين إليه، ولا تنسوا أن هذه الأمور كانت موجودة منذ آدم عليه السلام وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المهم هنا هو أن يتجنب أرباب الحق في حياتهم على المستوى الفردي والأسري والاجتماعي كل فعل أو تصرف قد يجلب العار والخزي للحركة التي ينتسبون إليها، علينا بعد استنفاد أسباب الإرادة التي منحها الله لنا أن نلجأ إليه سبحانه مستعينين بحفظه وعنايته قائلين: "اللهم لا تُخزِ أصدقاءنا بنا ولا تخزنا بأصدقائنا"، فالإنسان مؤهلاً دائماً للوقوع تحت أسارة نفسه؛ لأن العديد من الذنوب ونقاط الضعف تنتج عن الأهواء والرغبات التي قد تسوق الإنسان إلى الوقوع في المهلكات، فضلاً عن ذلك فإن الشيطان يُزيّن للإنسان دائماً هذه المهلكات ويُزخرف له الذنوب والآثام، فمن لم يحذر ويتنبه لكل من هذه المهلكات انساق وراءها دون وعي، وصار وصمة عار -والعياذ بالله- على جبين من حوله.

من أجل ذلك على الإنسان -الذي ينتسب إلى حركة تتعلق بها الآمال- أن يتجنب كل ما يمس شرفه وكرامته، وأن يحرص على الصمود ضد غوايات النفس والشيطان، وألا يتنازل عن صدقه وأمانته أبداً، وأن يتحرز من الاعتداء على حقوق الآخرين الذين يشاركونه الدرب نفسه؛ فإذا ما رفع يديه إلى السماء دعا الله في طمأنينة وسكون قائلاً: "اللهم اخسف بي الأرض ولو كانت لي ألف روح ولا تجعلني سبباً في جلب العار والخزي إلى أصدقائي"، وهذا تعبير عن مدى الصدق والوفاء للدعوة، فيجب على كل روح أوقفت نفسها للخدمة أن تبدل قصارى جهدها -وكانها ممثل للأمن والصدق والعصمة- لعدم تشويه صورة أصدقائها وعدم إفساح

المجال للوقوع في أيّ خطأٍ مهما كان صغيراً. أجل، عليهم التحليّ بروح الاستغناء على الدوام وعدم الاستجداء من أحد، والقناعة بما وهب الله، والابتعاد عن أيّ عملٍ يمسّ الشرف والكرامة.

وعلينا ألا ننسى أن الإنسان الذي يسعى إلى أن يكون صوت الحق والحقيقة قد يكون بتصرفاته وأفعاله الصادقة أكثر إقناعاً من كلامه؛ لأن المغالاة التي لا تعبّر عن الحقيقة أو تتجاوز المقصد قد تستهوي المخاطب لبعض الوقت، ولكنّ فضلاً عن أنها تترك أثراً إيجابياً في النفوس فهي عقبات تحول دون عملية الإقناع، فالتصرفات التي تأخذ صفة الاستمرارية لا يتسرّب إليها الكذب، لأنها تجري دائماً في مجراها الصحيح، والإنسان الذي يملك الإقناع هو ذلك الإنسان الذي يوحى بالصدق والوفاء دائماً، ولا يتخلّى عن عقته وشرفه مطلقاً، ويبعث الأمان والثقة فيمن حوله، ولذا يمكننا أن نقول باطمئنانٍ إن التمثيل مُقدّم على التبليغ.

### لا بدّ أن يسبق الحال القول

فمن صفات النبوة التي كان يتحلّى بها سيدنا رسول الله ﷺ: التبليغ؛ بمعنى تبليغ أمته الرسالة التي تلقّاها عن ربه ﷻ، لكن إن لم يمثّل ويُطبّق هذا القرآن المعجز البيان الذي أنزله الله تعالى شخصٌ مثل سيدنا رسول الله ﷺ ما كان هناك بيانٌ يعلن عن نفسه بما يُحدثه من دويٍّ في آذاننا حتى عصرنا الحاضر، وما وجد له صدّى في النفوس بهذا المستوى، فالقرآن الكريم الذي نُعلّقه في بيوتنا وعُرفَ نومنا ونحفظه في محافظٍ حريريةٍ لم ولن يتّضح تأثيره إلا على أيدي الذين يمثّلونه حقّ التمثيل، ومن ثم فإن عمق التمثيل بالحال لسيدنا رسول الله ﷺ يتقدّم على عمق التبليغ بالقول،

ولقد دُعي ﷺ للعروج إلى السموات العلى ليس لأنه بلغ القرآن فقط بل لأنه مثله في الوقت نفسه حق التمثيل.

### التواضع وعدم إثارة عرق الغبطة

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديث له: "سَيِّدُ الْقَوْمِ خَادِمُهُمْ"<sup>(١٤)</sup>.

وكان من أعظم ممثلي هذه الروح بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي، كان أول حاكم يستخدم لقب "خادم الحرمين"، ولما سمع السلطان "ياووز سليم" -أسكنه الله فسيح جناته- الذي كان يمثل الروح نفسها الإمام يقول في خطبته "حاكم الحرمين"، انزعج كثيراً، واستوى قائماً على ركبته من فوره قائلاً: كلاً، بل خادم الحرمين، ثم أخذ الذين جاؤوا من بعده يلقَّبون أنفسهم بهذا اللقب، من أجل ذلك يجب على الأرواح التي نذرت نفسها للخدمة أيّاً كان موقعها في الحياة الاجتماعية أن تعتبر خدمة الآخرين هي أعلى منزلة لها، وأن يقولوا في أنفسهم إذا اقتضت الحاجة: "ينبغي للإنسان أن يعتبر نفسه خادماً وساقياً بين هؤلاء الذين يعيشون الخدمة ويلتقون حول منطِق وفكرة وغاية واحدة"، وأن يهرعوا لخدمة الآخرين.

من جانبٍ آخر قد تُثير نجاحات البعض في مجالاتٍ معيّنة غبطة الآخرين، بل قد يتحوّل هذا الشعور بالغبطة إلى حسدٍ وغيره لدى ذوي النفوس الضعيفة، وهنا يجب مراعاة المبادئ الإلهية التي وضعها الإسلام لتربية النفوس، ولقد وضع بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله في ضوء هذه المبادئ دستوراً ذكر فيه ضرورة عدم إثارة طلاب القرآن الحقيقيين لمشاعر الغبطة لدى إخوانهم<sup>(١٥)</sup>، مع أن الغبطة شعور لا حرج فيه

(١٤) البيهقي: شعب الإيمان، ٥٨٢/١٠؛ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٣٢٤/٢.

(١٥) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللعة الحادية والعشرون، دستوركم الثاني، ص ٢٢١.

في الإسلام، ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الغبطة تقع على حدّ متاخمٍ للحسد فسيبتين لنا أن الإنسان الذي ينتابه الشعور بالغبطة قد يعبر إلى الطرف المقابل -أي الحسد- دون وعيٍ منه، ولذا جعل بديع الزمان عدم إثارة عرق الغبطة من مسؤوليات طلبة القرآن، أما السبيل للخروج من هذا المأزق فهو تقدير كلّ من يسعى للخدمة وإيثار الآخرين على نفسه في حينه، فهناك البعض من الناس قد تتغلب عليهم بعض نقاط ضعفهم مثل حبّ الاستحسان لما يفعلون، والتهليل لهم، والإعجاب بهم، وحبّ المنصب والمقام، وعلى ذلك لا بدّ أن يُخصّص لكلّ إنسان المجال الذي يناسبه، وتوسّع الدائرة التي سيتحرّك فيها، وبتنوّع المجالات يمكن للأفراد القيام بخدمات أوسع وأرحب، وبذلك يقنعون بالعمل الذي يقومون به، وبجانب هذا لا بدّ من العمل على تزويد هؤلاء بالإيمان والأخلاق الحسنة، وتقوية علاقتهم برّبهم، ومعرفة أن كل ما بحوزتهم إنما هو من الله وحده.

### خطر الثبات على القمة

ومن الأمور التي لا بدّ من مراعاتها أيضاً الثبات على الاستقامة، فقد يوجّهنا الحق ﷻ إلى طريق مستقيم، ولكن لا يكفي سلوك الطريق المستقيم فحسب، بل لا بدّ من مواصلة السير في هذا الطريق حتى النهاية في حيطةٍ وحذر، هناك قول جميل يرويه بعضهم على أنه حديث من أحاديث رسول الله ﷺ: "النَّاسُ كُلُّهُمْ مَوْتَى إِلَّا الْعَالِمُونَ، وَالْعَالِمُونَ كُلُّهُمْ هَلَكَى إِلَّا الْعَامِلُونَ، وَالْعَامِلُونَ كُلُّهُمْ عَزَقَى إِلَّا الْمُخْلِصُونَ، وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ" (١٦).

وإذا كان لنا أن نطلق اسماً على هذا الخطر العظيم نقول: خطر الثبات على القمة، من أجل ذلك يجب أن ترتعد فرائضنا أيّاً كانت القمة التي بلغنا الله إياها خوفاً من أن نقلب رأساً على عقب، لقد هدى الله تعالى أتباع الديانات السماوية السابقة إلى الطريق المستقيم، ولكن وقعت بعض الانحرافات في خطّ الدائرة وتعدّرت تلافيفها لأن هؤلاء لم يراعوا المبادئ الواضحة في مركز الدائرة، فوُصم بعضهم بالضالين، وحُكم على الآخرين بأنهم من المغضوب عليهم، ومن ثمّ: فإذا كان من الصعب سلوك الطريق المستقيم؛ فالأصعب من ذلك هو مواصلة السير في هذا الطريق.

أجل، من الصعب الوصول إلى القمة لكن الأصعب هو المحافظة على التواجد فيها، وفي هذا السياق يشير الأستاذ النورسي رحمته الله إلى "أنّ مَنْ يهوي من برج الإخلاص ربما يتردّى في وادٍ سحيق إذ لا موضع في المنتصف"<sup>(١٧)</sup>.

### الاستخدام حسب القابليات

ثمّة أمرٌ مهمّ لا بدّ من أن تلتفت إليه الأرواح المتفانية حتى يمكنها أن تقدّم خدماتها على مستوى أرحب وأوسع ألا وهو تدبّر الأشياء والأحداث وتجنّب محاربة الفطرة، لقد خلق الحق تعالى الناس بطبائع مختلفة ووهبهم أيضاً قابليات ومهارات متباينة، وربما لا يترك البعض تأثيراً مباشراً فيمن حولهم لأنّ علاقتهم ضعيفة في الحياة الاجتماعية، فمثلاً هناك أناس يمكنهم أن يعبروا بأقلامهم عن الحقّ والحقيقة ويؤثّرون في العديد من الناس ويشيرون شعور الانبعاث في القلوب بكتاباتهم، ولكن إن غرّض عليهم التحدّث في مكانٍ ما قد يخسرون كل المكانة

(١٧) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللمعة الحادية والعشرون، دستوركم الرابع، ص ٢٢٤.

التي حظوا بها بكتاباتهم في أول محاضرة لهم؛ لأن الله تعالى لم يمنحهم مهارة التحدّث بقدر ما منحهم مهارة الكتابة، ولكن هؤلاء أنفسهم يحالفهم الكثير من النجاح والتوفيق عندما يشرحون القيم التي يؤمنون بها من خلال كتبهم ومقالاتهم وما شابه ذلك، من أجل ذلك يجب على الإداريين والمسؤولين أن يكونوا على وعيٍ تامٍّ بهذه المسألة ويكلّفوا الناس بالعمل الذي يتناسب مع قدراتهم وأهليّاتهم.

ولا يعزب عن علمكم أن سيدنا رسول الله ﷺ قد أرسل سيدنا خالد ابن الوليد ﷺ إلى اليمن للإرشاد والتبليغ نزولاً على رغبته، ومّر على ذلك -كما روى أبو موسى الأشعري- يومان وثلاثة وأسبوعان وثلاثة وما من رائجٍ أو غادٍ، في الواقع لم يكن سيدنا خالد ﷺ بالشخص الذي لا يستطيع الخطابة، إذ إن الحقّ تبارك وتعالى جعله مرجوحاً في عالم الإرشاد، راجحاً في عالم القيادة؛ بمعنى أن الله تعالى جعله مفضلاً في جانب آخر، فلو أن خالدًا ﷺ كان خطيباً مفوّهاً على مستوى بعض الصحابة الذين قلّ أن نجد لهم مثيلاً في التاريخ فمن كان إذاً سيدك أركان بيزنطة، ويدمر الساسانيين، ومن ثم رجع سيدنا خالد ﷺ من اليمن إلى المدينة، وبعث رسول الله ﷺ إلى اليمن بدلاً منه سيدنا عليّاً كرم الله وجهه، ذلكم الصحابي الجليل الذي أثار الانفعال في الأرواح بكلامه، وأوصل صوته إلى ما وراء العصور، ووهبه الله مميّزةً وخصوصيّةً معيّنةً فكان خطيباً وواعظاً وناصحاً، وما إن وصل ﷺ إلى اليمن واستقر به أياماً قليلةً حتى توافد الناس على الدخول في الإسلام؛ لأن هذا الجبل الأشمّ كان يعلم متى وأين وماذا؟ يجب أن يتحدّث حتى يستطيع النفاذ إلى القلوب.

وهكذا فإن الوظيفة الملقاة على عاتق الإداريين هي التعرّف على مختلف قابليات من حولهم كلٌّ على حدة، واستغلال كلِّ في مكانه الصحيح حتى يمكن الاستفادة منهم بشكلٍ مثمّرٍ، فكما أن تكليف النملة بما يحمله الفيل يسحقها ويقهّرها فكذلك إذا كلفنا الفيل بما تحمله النملة -وهو الذي يقدر على خلع غابةٍ والذهاب بها- نكون قد قلّلنا من قدر الفيل وأضعنا كرامته.

ومع أن مراعاة ماهية طبائع الأشخاص وقابليتهم يُعدّ أمرًا مهمًّا عند توزيع الأعمال؛ إلاّ أنّه لا بدّ ألا يغيب عن أذهاننا أن التأثير الحقيقي إنّما هو من الله ﷻ، فمثلاً لقد تعرّفْتُ على أناس لا يملكون مهارة الحديث ويتعسّرون في تكوين ثلاث جُمَلٍ متتابعةٍ للتعبير عن مقاصدهم ومع ذلك تراهم إذا تحدّثوا تبدّت مشاعر اللين والرقّة لدى المخاطبين، وليس بوسعنا أن نُرجع هذا التأثير إلى هيئة هذا المتحدث أو إلى شمائله أو قدراته أو سعة فكره، أو مهارته في الحديث، يعني أن القلوب بيد الرحمن ﷻ، وهو الذي يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم، ومن ثمّ ينبغي لأرباب القلوب ألا يستخفّوا بأيّ عملٍ يقومون به في سبيل الله، وعليهم القيام بالمسؤوليات التي تُناتب بهم من خلال استغلال كلِّ الوسائل التي من شأنها النفاذ إلى القلوب مثل دعوة الآخرين على الشاي، واستضافتهم لتناول الطعام، وزيارتهم أحياناً...

### التوازن بين الواقع والمثالية لدى القلوب المتفانية

من جانب آخر لا بدّ من عدم الخلط بين الواقع والمثاليات. أجل، لا بدّ من إعلاء الهمم، والسعي وراء الأهداف السامية، كما يجب على السائرين في سبيل الغاية السامية أن ينشدوا غايات مثلى حتى يمكنهم

تغيير وجه العالم في لحظة واحدة؛ لأنه إن كانت الهمم عاليةً والإمكانات قاصرةً عن إنجاز هذه الأعمال جَبَرَ اللهُ تعالى هذا القصور بفضلِهِ وبسبب النوايا الطيبة، وجازى الشخصَ بما يتناسب مع الهدف الذي كان ينسجه في خياله؛ بمعنى أن الإنسان ينال ثواب نواياه الجميلة التي لم تتحقق.

على الإنسان أن ينشد المعالي، وأن يوسّع من دائرة غاياته العليا، ولكن مع كل هذا ينبغي مراعاة عناصر الزمان والمكان والإمكان والإنسان لتحقيق ما يصبو إليه من أفكار، لا بدّ من مراعاة الظروف القائمة ومدى إمكانية تحقق الأفكار الجميلة من عدمها حتى لا تتعرض أعماله للخطل والخسارة.

أحياناً يسلك البعض طريقاً لتغيير لون العالم ويعيش نوعاً من الطوبيا<sup>(١٨)</sup> ك"المدينة الفاضلة" للفارابي و"مدينة الشمس" لكامبانيا<sup>(١٩)</sup>، ويتخيل في هذا العالم المتخيل أن الناس إذا ما تقابلوا مع بعضهم تعانقوا، وإذا ما ذهب الأسود والذئاب إلى الأغنام طلبوا السماح منها، كما أن السوق أصبح يزدان بالروعة والبهاء لدرجة أن الناس الذين يتسوقون فيه غدوا كالملائكة، فالجميع في هذا العالم لا يحدد ولا يزيغ عن الاستقامة قدر أنملة، حتى إن الأطفال قد صاروا كالملائكة عندما وصلوا إلى مرتبة النضج أو البلوغ وناهزوا خمسة عشر عاماً، دون حاجة إلى تربية أو تعليم.

أجل، من الممكن التفكير في كل هذا وتصوّره، ولكن تحقيق هذا أمرٌ مختلفٌ تماماً، إنكم مضطرون هنا إلى مراعاة طبيعة الإنسان وعلاقات

(١٨) الطوبيا: كل فكرة أو نظرية تسعى إلى المثل الأعلى ولا تتصل بالواقع ولا يمكن تحقيقها. (الناشر)

(١٩) توماسو كامبانيا: راهب وفيلسوف وشاعر إيطالي (ت: ١٣٣٩م) في باريس، وكتابه مدينة الشمس يتناول فيه تصوّراً للمدينة الفاضلة مبنياً على المنطق وحب الله، وكان يعادي فكر أرسطو ويحاول إصلاح الفلسفة ويسعى لجعلها تعتمد على التجريب والملاحظة. (الناشر)



الناس ببعضهم، فما صادفنا حياة بهذا المستوى حتى في محيط الأنبياء، ولم تكن الأسواق على هذه الدرجة من الاستقامة، ولم تتأسس مثل هذه الأخوة بين الذئاب والشيء، ولم تُعرض الأسود عن أكل اللحوم وتتجه إلى أكل العشب قط.

وفي رأيي أن الواقع ما دام يشير إلى هذا فلا بد أن نضع في اعتبارنا مسألة تحقُّق المثاليات التي نطمح في الوصول إليها فإن كنا ننتظر ممَّن يعملون معنا أن يغيروا وجه العالم وأن يقوموا بخدمات تضيء وجهها جديدًا عليه فلا مفرَّ من أننا سنُمنى بخيبة الأمل وستتخطم أمانى الآخرين الذين علّقوا آمالهم علينا، وذلك لأننا بنينا الأحكام على الخيال وتعلّقنا بأمرٍ يصعب تحقيقها، ولذا لا بدّ من مراعاة قابلية كلّ فرد على حدّة حتى لا ننتهي إلى مثل هذه العاقبة، ونقسّم الأعمال تبعًا لذلك، ونأخذ في الحسبان عناصر الزمان والمكان والإمكان والإنسان عندما نودّ تحقيق ما نريد من أفكار جميلة.



## الموقف الإيمانى من شبكات النفاق الحاقدة

سؤال: ما الموقف الذى يجب أن تتخذه القلوب المؤمنة إزاء

الأحداث المنكرة والسلبية التى تقع حولها؟

الجواب: بادئ ذي بدء علينا أن نعرف أن هذه ليست المرة الأولى أو الأخيرة التى تقع فيها أحداث سلبية منكرة، فكثيراً ما يُجلى القرآن الكريم أمامنا هذه الحقيقة فى شكل لوحات حيّة؛ فنراه تارة يقص علينا بمختلف الأساليب والأشكال قصص الأنبياء السابقين، وتارة أخرى يُحدّثنا عن وقائع مختلفة تكفى الواحدة منها لإثارة العجب والدهشة فى النفوس، فكانت هذه الوقائع تبعث السلوى فى قلب النبي ﷺ، وتلفت الأنظار إلى التكرّر التاريخى الدائم، وإننا إذا ما تفحصنا كل هذه الوقائع التاريخية لتبدت أمامنا لوحة لطيفة مفادها أنه ما من قوم انحلّوا وانفرط عقدهم إلا بعث الله فيهم أنبياء لهدايتهم وإصلاحهم، وقد اضطلع المجددون بعد خاتم الأنبياء ﷺ بمهمة بعث الروح التجديدية وإصلاح الخراب الذى عم المجتمع.

## لم تخطر ببال الظالمِ النهايةُ، ولكن...

لم تنفَس المنكرات في مجتمعٍ في أيِّ حقبةٍ تاريخيةٍ كما تنفَّست في مجتمع الجاهلية، وفي هذا يقول شاعر الإسلام "محمد عاكف":

لقد تجاوز البشر الضبَاع وحشيةً وافتراءً  
فالضعيف الحليم يأكلُهُ إخوانُهُ غيلةً واختلاصاً  
وكانت الفوضى تعمُّ أرجاء الأرض جمعاء  
والفرقة التي تقوِّض أركان الشرق  
الآن هي في ذلك العهد داءٌ ووباء

وبعد أن رسم الشاعر هذه الصورة المفجعة عن ذلك العهد يقول:

ثم زال ظلمُ العتاة الجبارة وحلَّ محلُّه الطُّهُرُ  
وانتشى العجز الذي كان يظنُّ  
أن كلَّ حقه الانسحاق والقَهْرُ  
أما الظلم فقد تبدّد وانقشع  
وهو الذي لم يكن يدور بخُلده  
أن يـزول أو يَنقـع

وهنا يشير الشاعر إلى "سنة الله" التي تجري في الحياة الاجتماعية. أجل، قد لا تخطر الحياة والانبعاث ببال العجز اليوم أو غداً، وقد لا يخطر الزوال والانتهاك ببال الظلم، ولكن هذا ما وقع بفضل من الله وعنايته مرّات ومرّات على مدار التاريخ، وما حدث دليلٌ على ما سيحدث، وإن من أعظم الفوائد التي يمكن استخلاصها جزاءً استقراءً التاريخ وبقرٍ بطون كُتبه وإقامة جسور التواصل معه هو استيعاب هذه الحقيقة؛ فإن تتابع وتيرة الهدم والإصلاح بصفةٍ دائمةٍ حتى اليوم، واستمرارية تكوُّر

الليل والنهار دون انقطاع يُعدّ أعظم دليلٍ وأسْطَع برهانٍ على أن الإصلاح يعقب التخريب حقًّا، والنهار يولّد من رجم الليل صدقًا.

### تعرّضت للتضييق والإيذاء طوال حياتي، ولكنني ما نُسْتُ قطًا!

ولزيادة الإيضاح نقول: كثيرًا ما ينحرف البشر عن الطريق، فتتفرّق كلمتهم، ويتناثرون يمينًا ويسارًا مثل حبات السبحة التي انحلت وانفردت عقدها، وتتبع التغييرات السلبية تغييراتٍ أخرى، ويصاب المجتمع بمسحٍ وتشوّهٍ شكليّ كبير، ولكن يجب ألا ننسى أن الله تعالى قادرٌ على أن يوقّد جديد نورٍ ومعرفةٍ في القلوب يكونان سببًا في صحوة الناس وجمع شتاتهم.

إنني شخصيًا لا أدعي أنني قوي الإيمان، ومع هذا فإنني رغم ما تعرّضتُ له من تضييق واضطهاد منذ أن كنتُ في العشرين من عمري لم أياس قط؛ كل هذا لم يؤثر فيّ ولم يُفْتِّ في عضدي، ولم يخطر ببالي -ولو لحظة واحدة- أن أتراجع عن الطريق الذي أسيرُ فيه أو أحيّد عنه، ولم أعبأ ألبتّة بالإهانة أو التهديد، وكنتُ كلّما أجدُ حفنةً من الناس أجلس معهم في المسجد، ونتدارس فيما بيننا، وقد استمرت هذه الاضطهادات، ومع ذلك لم أقع في اليأس أبدًا؛ إذ كانت تراودني هذه الفكرة طوال حياتي:

ولسوف تشرق الأيام التي وعدك بها الله ربّ العالمين

ومن يدري، فربما غدًا، وربما قبل، فكن من الواثقين

لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ

إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يونس: ٨٧/١٢).

وأحسب أنني بهذه الكلمات أعبّر عن عواطف الأرواح المتفانية؛ لأن كلاً منهم إذا ما واجهته أي مشكلة يقول كما قال الشاعر "نسيمي":

أنا عاشقٌ لك ملوّعٌ أيها الحبيب المحبوب  
حتى وإن شققت قلبي بالخنجر  
فلن أتزحج عن حبك أو أؤوب  
ولو وضع النجّاز منشاره على رأسي مهديداً  
بل وإن شقوني نصفين كزكريا مجدداً  
وإن أحرقوا جسمي وذروا رمادي  
يا إلهي يا ستارَ لن أتنازلَ عنك يا مرادي

لأن المهمّة بالنسبة لهم هو رضا الله، ووسيلة الرضا سيرُ موكب الخدمة، ولا أهميّة ولا قيمة لتعرّضنا لبعْض الحوادث التي تُحرق الكبدَ نظيرَ أن يُواصلَ الموكبُ سيره، فليست الخدمات المبذولة منوطةً بأحدٍ منا.

### الجُرأة والثبات يُفسدان الأعياب ذوي النوايا السيئة

مهما تعرّضنا لأحداثٍ تُحطّم الآمالَ وتثبّطُ الهِمَمَ وتُكدِّرُ صفوَ الصدورِ فيجب علينا ألا نفرغَ أو نقعَ في مستنقع اليأس الذي يحول دون كلّ كمال، بل لا بدّ دائماً من الصمود دون تحديٍّ أو عناد؛ فإن جرأة القلوب المؤمنة وثباتها يجمع أصوات ذات النوايا السيئة؛ لأن ترحينا بالموت الذي يهدّدوننا به وقولنا إزاءه: "على الرحب والسعة، كنتُ أتمنى دائماً أن أرتشف كأس الشهادة، وألتقي بربي؛" يثير الدهشة والعجب فيهم ويُسقط في أيديهم. أجل، إن ثبات المؤمنين وصمودهم لهو تعبيريٌّ مهمٌّ عن ثقتهم برّبهم واعتمادهم عليه تعالى، ودافعٌ عظيم يُفسدُ مخططات الطرف المقابل، ويسوقه إلى الذعر والفرع.

## الصبر والنصر

الصبر هو المفتاحُ السِّرِّيُّ السحريُّ الفريد للوصول إلى النجاة، وكما أنه من أهم السُّبُلِ في بلوغ سعادة الجنان، والوصول إلى مشاهدة جمال الرحمن، والفوز بالخلود والرضوان؛ فإنَّ له فائدة دنيوية دون ذلك أيضًا وهي الخلاص من الأزْمانِ وإحراز النجاحات، ويندرج في قائمة الصبر أمورٌ مثل المواظبة على العبادة والطاعة، ومقاومة المعاصي، وتحملِ المصائب، ومعارضة الظلم والعدوان، وعدم استعجالِ الأمور المرهونة بالزمان، والثباتِ في مواجهة مفاتن الدنيا، وإيثار معاناة الخدمة على ما يدعو إليه الاشتياق لجمال الله تعالى.

وهذه الأمور يمكننا أن نسميها أنواع الصبر، فإن لم نُهْمَلْ أيًا منها تستي لنا أن نفتح آلاف الأبواب بهذا المفتاح السِّرِّيِّ، غير أن الإنسان إن ضرب بالصبر عرض الحائط واستعجل الأمور فتعثُرُه مُقَدَّرٌ ومحتومٌ؛ لأن:

العَجُولُ يَعَثُرُ بعباءته

والمتمتني يدرك غايته برويته

أجل، إن من يستعجل السير والخطى يعلق طرف عباءته بقدميه فيتعثُرُ، بينما من يتحرك بحَيَطةٍ وحذرٍ يصلُ إلى مراده ومقصوده، ولهذا ينبغي للمؤمن أن يسير وفقًا لخطة مسبقة الدراسة، كما يجب ألا يحدث خلطٌ بين السير المبني على صبرٍ وسابق حسابٍ وتخطيطٍ وبين الكسل والعزوف عن العمل، بل إن الإنسان يلزمه أن يكون نشطًا دائمًا، ويسير نحو هدفه، وعليه وهو يسير إليه أن يكون في تدبُّرٍ وتذكُّرٍ وتأملٍ وحذرٍ، وأن يفكّر في أوّل الأمرٍ وآخره، وأن يضع أصحاب الحَسَدِ والغيرة في حسابانه، وألا يغض الطرفَ مطلقًا عما يُساور ذوي النوايا السيئة من مشاعرٍ حقدٍ وكره.

## إشارة الغبار لا تحجب نور الشمس

وهنا أيضًا ينبغي لكم ألا تبالوا بالمؤامرات والأكاذيب والتلفيقات التي يقف وراءها بعض الظالمين المعتدين، وكما يقولون في المثل: "لا يضرُّ السحابُ نباخَ الكلابِ"، بمعنى أنكم طالما تسرون في الاتجاه الصحيح وعلى الطريق القويم فلا قيمة ولا أهميَّة لما ستفتره بشأنكم مجموعةٌ من الألسنِ القَدْرَةِ التي انطبعت على الفتنة والفساد، وهنا أجد فائدةً في التذكير بهذه القطعة الشعرية:

فما تبالي السما يومًا إذا نبحت كلُّ الكلابِ وحقَّ الواحدِ الباري  
لو كلَّ كلبٍ عوى ألقمته حجراً لأصبح الصخرُ مثقالاً بدينارٍ

ومن هنا فلندعِ النابحَ ينبح، ولا ينبغي لنا أن نأبه أساسًا بأمر الذين يرموننا بالأدناس، وبالمناسبة فإن لم تكن هذه النوعية من العبارات والأقوال من سجيتنا وأسلوبنا الخاص بنا فينبغي ألا ننسى أن القرآن الكريم نفسه ضرب مثلاً بالحمار والكلب ليبين بعض الحقائق<sup>(٢٠)</sup>، وحين نضع نصبَ أعيننا الأسلوبَ النزيه العفيف للقرآن الكريم يتبين أنه يجب التعبير عن تلك المسألة والقضية بذلك الشكل احترامًا للحقيقة.

أجل، إن كنتم قد برمجتم أنفسكم كي تتلاحموا وتتمازجوا مع روح أمتكم وعقلها وقلبيها، وتتخلصوا من وصاية الدول الأخرى عليكم، وتبؤوا تلك المكانة الرائعة في التوازنات الدولية فعليكم ألا تهتموا بالمواقف والكلمات القبيحة الشاردة الواردة من هنا وهناك، وما دتم واثقين من صحَّة وسلامة الطريق الذي تسرون فيه، ومن أنكم لا تركضون وراء هدف آخر غير نبيل رضا الحقِّ تعالى؛ فينبغي لكم ألا تُلقوا بالألما

(٢٠) انظر مثلاً: سورة الأعراف: ١٧٦/٧؛ سورة الجمعة: ٥/٦٢.



يُمَارَسُ ضِدَّكُمْ مِنْ أُمُورٍ عَدَائِيَّةٍ، وَأَلَّا تَقْفُوا عِنْدَهَا كَثِيرًا، بَلْ وَأَلَّا تَهْتَمُّوا بِهَا أَصْلًا.

### فليخش السائرون في الضلال سوء عاقبتهم

إن كان هناك من يجب عليهم أن يقلقوا ويفزعوا ويتحيروا في أمرهم، متسائلين ماذا عساهم أن يفعلوا؛ فإنهم هم السائرون في الطريق الخطي، حيث إنهم يعجزون عن الخلاص من التخبط والتلوي في مسيرهم رغم أن التخریب أسهل من التعمير؛ ومن يك كذلك لا يتقدم قيد أنملة، وبالرغم من أن أمثال هؤلاء يستخدمون كل أنواع الطرق السلبية والهدامة كالترهيب والتسلط وهدم القيم والتعدي على القيم الخاصة فإنه يستحيل القول إنهم ساروا قدمًا حتى اليوم ولو بقدر يسير.

أجل، إن هذه الآلام المستعصية، والخرابات الدائرة ينبغي ألا تولد اليأس في روح الإنسان، وألا تُصيبه بالدُعر، غير أن هذا لا يعني أن نغض الطرف عن الدمار والتخریب الحادث، بل على العكس علينا مشاهدة هذا التخریب والدمار المروع، لأن رؤيته تُذكر الإنسان بمسؤولياته وواجباته، وبهذه الطريقة فإن ذا الفكرة المثالية والإحساس المرهف السليم سيفكر ويتدبر فيما يطلبه الله تعالى من عباده الصادقين تجاه هذا المشهد، ويُركّز على ما يجب القيام به من أمور قائلًا: "تُرى لو أن نبيًا واجه مثل هذا المشهد ماذا عساه أن يفعل، وكيف كان سيتصدى له؟".

بيد أن المشهد محجوب، والأحداث الجارية لا تُدرِكُ بكل تفاصيلها، وليس معروفًا بالضبط ما الذي يجب فعله، ونتيجة لهذا فإن البعض -حفظنا الله- ربما يخلد إلى الراحة رغم كل المصائب والمخن الجارية؛ ويرى أنه يكفي الانشغال بأمر نفسه وشؤونه الخاصة فحسب دون أن

يهتمّ بالتقلبات التي يعيشها المجتمع، ولا التخريبات التي تعصفُ به، ولا البيوت والمؤسسات التي دُمّرت فأصبحت حصيدًا كأن لم تَعْنُ بالأمس، وهذا أيضًا يُمثّل نوعًا من الأنانية والتبلد الحسّي واللامبالاة؛ ولهذا فإنه يجب ألا نعتبر التوكّل على الله والتحليّ بالأمل وتجاهل التصرفات والأقوال القبيحة البغيضة مناقضًا للتأوّه قلقلًا ومصدقًا لمقولة "أينما تسقط النار فستحرقني أنا أولًا"؛ ومن ثمّ تجبُ رؤيةُ المشهد بخطوطه العريضة وتحليله من جانبٍ، بينما من الجانب الآخر نسعى سعيًا حثيثًا يحدونا إيمانًا راسخ وعزيمةً قويّةً وأملٌ كبيرٌ في ترميم الدمار الموجود ترميمًا يتوافق مع القواعد والأسس المتينة التي توارثناها عن ماضينا.

## مهمّة الإرشاد وأسوار العفة

سؤال: ماذا يعني مفهوم العفة التي يجب أن يتحلّى بها ممثلو نهج النبوة؟

الجواب: أنفق جميع الأنبياء حياتهم في سبيل تقديم الرسالات السماوية إلى البشرية، ولم يتشوّفوا إلى أي أجرٍ من أحدٍ، وعاشوا حياتهم في تواضعٍ ومحو، وتجنبوا الإسراف، ولزموا القناعة، وعاشوا في بساطةٍ وزهد، ومع أنّ بعضهم قد آتاه الله السلطنة والملك -مثل نبيّ الله سليمان وأبيه داود ﷺ- إلا أنّهم لم يدعوا حياة التواضع، بل وجّهوا كلّ قوتهم وإمكانياتهم في سبيل رفع راية الدين الحقّ، لم يسحرهم الملُك الذي آتاه الله لهم، ولم يَغشّ أبصارهم. أجل، لم ينل أحدٌ من عفتهم وعصمتهم، ممّا دفع الناس إلى الثقة بهم، وظلّوا طوال حياتهم أوفياء لخصال النبوة، ومن ثمّ فلا بدّ للذين يسировن في طريق النبوة أن يؤدّوا هذا الطريق حقّه، وهذا لا يتأتّى إلا بالتحلّي بهذه الأوصاف الملازمة للأنبياء؛ أما من لم يتمكن من التحلّي بها -دع عنك عدم أدائه لوظيفة الإرشاد والتبليغ- فمن المحتمل أن يسلك طريق الشيطان وإن كان مسلمًا.

### لا يقتصر تشوّه السمعة على المخطنِ فحسب

وعلى ذلك فإن الذين يسعون في وظيفة الإرشاد والتبليغ قد يجلبون الخزي والعار إلى الهيئة التي ينتمون إليها باقترافهم الذنوب وارتكابهم الأخطاء الصغيرة التي تمس الصدق والعفة، لا سيما إن كانت هذه الهيئة تتبوأ مكاناً عالياً؛ لأن مثل هذه الهيئة مثل الجسد الواحد إذا أصابت النجاسة عضواً منه اشمأزت وتأثرت منها سائر الأعضاء، ولذلك فلا يصح لمن تطايرت النجاسة إلى طرف ثوبه أن يقول: "لا ضير لأنها لم تمتد إلى وجهي ويدي وعيني"، وعلى نفس الشاكلة فليس من الصحيح أن ينتمي الشخص لهيئة ما، ثم لا يتحكم في عينه وأذنه ويده ولسانه، ولا يكتفي بالأذواق والملذات ضمن الدائرة المشروعة، ويظل يحوم حول الدائرة غير المشروعة ثم يقول: "ما أنا إلا مجرد كعب، أو قدم أو كوع في هذا الجسد... ولقد ظننت أن النجاسة التي لطختني لن تلحق بالآخرين الذين يعملون في نفس دربي!".

ومن هنا فإن الوظيفة الملقة على عاتق الذين يسعون في سبيل خدمة الحق هي أن يحذروا من تطاير أو تناثر النجاسة عليهم ويراعوا الدقة البالغة في هذا، وأن يحافظوا على نقائهم وطهرهم على الدوام، وألا يخرجوا عن دائرة العفة في أي شأن من شؤونهم من مأكلي ومشرب وقيام وقعود، ومع استخدام أعضائهم كلها من يد ورجل ولسان وعين، كما يجب على المرشد الحقيقي مبلغ الحق والحقيقة أن يظل وفيًا لغايته المثلى، ثابتاً صامداً، لديه الجرأة والشجاعة لأن يرفع يديه قائلاً: "اللهم إن كنت مددت نظري أو ألقيت سمعي إلى شيء لا ترضاه فخذ مني روعي"، وعليه كذلك ألا يسمح لنفسه بتلطيح وجه الإسلام أو تدنيسه

أبداً؛ لأن الأنبياء وهم الممثلون الحقيقيون لطريق الإرشاد والتبليغ لم يسمحوا لذرة واحدة من الطين أن تلامس أذياتهم وإن كانت من قبيل عموم البلوى، ولم يسمحوا لأحدٍ بأن ينال من شرفهم البتة.

**"اللَّهُمَّ لَا تُخْزِ أَوْصِدْقَائِي بِي، وَلَا تُخْزِنِي بِأَوْصِدْقَائِي!"**

إن أيّ إنسانٍ لا يُراعي هذا القدرَ من الحساسية اللازمة فقد اعتدى على حقّ الآخرين، وألحقَ بهم الضررَ، ومن ثمّ فإن لم يسامح هذا الشخصَ كلُّ من ينتمي إلى تلك الهيئة فدخوله الجنة أمرٌ مشكوكٌ فيه، وهذا يدعوننا إلى أن ندعو الله ونتضرّع إليه دائماً قائلين: "اللَّهُمَّ لَا تُخْزِ أَوْصِدْقَائِي بِي، وَلَا تُخْزِنِي بِأَوْصِدْقَائِي".

ومع الأسف فإن بعضاً ممن يوصفون بأنهم مسلمون اليوم قد اجترحوا من السيئات ما يشدهنا ويجعلنا نتلوّى ألمًا ونحنُ نقول: لَيْتَهُمْ لم يتبعوا هوى أنفسهم ولم يرتكبوا هذه السيئات! ليتهم ماتوا وأُحيوا مرّات ومرّات وما تخلّوا عن عقّتهم وصدقهم، ولم يسلكوا طريقَ هذه اللوثيات!

### عَفَّةُ الْحَدِيثِ

من جانبٍ آخر فلا بدّ لمن يتبوّأ مقامًا معيّنًا - وإن كان هذا أمرًا لا يسري علينا نحن البسطاء - أن يفكّر مليًا قبل أن ينسبَ بينتِ شفّةٍ من أجل الذين يتبعونه؛ لأنّ منزلتهم تقتضي منهم أن يفكروا مليًا في كلّ كلمة قبل أن تخرجَ من أفواههم، ثم يقدّمونها لمخاطبيهم متناسقة على شكل مصاريع من الشّعْرِ؛ لأنّ الكلامَ الذي يُقالُ دونَ مراعاة لما يستوعبه المخاطبون أو حسابٍ لنوعية ردّ الفعل الذي قد تنجم عنه؛ من شأنه أن يَشقَّ جروحًا غائرةً وكأنّه الحربةُ في صدور المخاطبين، ومداواة هذه

الجروح صعبةٌ وعسيرةٌ في كثير من الأحيان، بل إن الكلام الذي يُقال دون تفكُّرٍ ورويةٍ قد يؤدِّي إلى الخلاف والافتراق؛ فربَّ كلمة تُشعلُ فتيلَ الحرب بين المتخاصمين، وربَّ جملة تتسبَّب في هلاك أُمَّة، وربَّ حربٍ أدلَعَتْ نيرانها بنتُ شفة.

### قِيمُنَا الَّتِي هِيَ الْعُنَاوِرُ الْأَسَاسِيَّةُ لِجَنَّتِنَا الْمَفْقُودَةِ

العفة والعصمة والصدق والوفاء هي قيمُنَا التي فقدناها -مع الأسف-، وتلك القيم هي العناصرُ الأساسية التي تقوم عليها جَنَّتِنَا الْمَفْقُودَةُ، فلو أنكم تريدون إقامة جَنَّةٍ من جديد فعليكم أن تهَيِّتُوا هذه المستلزمات الأساسية لهذه الجنة، ولقد وضع لنا الأنبياءُ العظام صلوات الله وسلامه عليهم رسمًا هندسيًّا لهذا البناء الحضاري، ثم جاء مِنْ بعدهم المجتهدون والمجدِّدون والأولياءُ والأصفياءُ، وأنشؤوا صورًا مختلفة لهذا الرسم المعماري استجابةً لدواعي التجديد التي يقتضيها العصر، وكأنهم يقدِّمون للمخاطبين رسالةً مفادها: "وفَّقُوا بين سلوككم وأعمالكم وبين الرسوم والمناهج التي وضعناها لكم؛ لأن المفهوم الحقيقي للعبودية لا يتأتَّى إلا باتباع هذا المنهج".

وما أجمل ما قاله الشاعر "محمد عاكف" في هذا الصدد:

أَيْنَ الْإِسْلَامِ؟ بَلْ أَيْنَ الْإِنْسَانِيَّةِ؟ لَقَدْ افْتَقَدْنَا هُمَا بِالْتِمَامِ

فَإِذَا كَانَتِ الْغَايَةُ خِذَاعَ الْعَالَمِ فَلَا مَخْدُوعَ وَالسَّلَامِ

وَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ حَقِيقِي عَرَفْتُ! إِلَّا أَنَّهُمْ فِي الْقَبْرِ يِرْقُدُونَ تَحْتَ الرِّكَامِ

لَسْتُ أُدْرِي أَيْنَ أَجْدُ الْإِسْلَامِ! كَأَنَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى فَوْقَ الْغَمَامِ!

لا أريد أن أقنط أحداً بقولي هذا، فينبغي للإنسان أن يُوَصد أبواب اليأس ولا ييأس أبداً، لكن يجب عليه إلى جانب هذا ألا يتوانى لحظةً

واحدةً في مراقبة نفسه ومحاسبتها؛ لأن من يُحاسبُ نفسه في الدنيا يَسَلِّمُ في الآخرة، فها هو الإنسان العظيم الذي قال عنه الرسول الأكرم ﷺ "لَوْ كَانَ نَبِيٌّ بَعْدِي لَكَانَ غَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ"<sup>(٢١)</sup>، يقضي حياته كلها محاسباً نفسه ويسائلها وهو الذي قال: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"<sup>(٢٢)</sup>.

ولذا ينبغي للإنسان أن يُنظِّمَ حياته وفقاً لمنطقِ رياضِي جاد؛ لأنه بينما يمكن تكثيرِ الحسنات بحيث تصبحُ الأحادُ عشرات، والعشراتُ مئات، والمئاتُ آلافاً إلى ما لا نهاية؛ فقد يتسبب خطأ بسيطٌ في أن يضيع كلُّ شيءٍ هباءً منثوراً، وبتعبيرٍ آخر؛ فالإنسان إذا عاش حياته بالمحاسبة والمراقبة حقاً استطاع أن يُكثِرَ القليل، وإلا فإنَّ أخطاءً طفيفةً قد تذهبُ بحياته تماماً، ولهذا فإن فضيلة الأستاذ بديع الزمان بينما يثر الضياء على أرواحنا بحكمه يحدِّرنا قائلاً: "فاحذر! وخفِّ الوطاء، وخفِّ من العرق، ولا تُهلك نفسك بأكلةٍ أو كلمةٍ أو لمعةٍ أو إشارةٍ أو بقلةٍ أو قبلة، فتذهب عنك لظائفك العظيمة التي شأنها أن تستوعب العالمين"<sup>(٢٣)</sup>.

وقد قال مفخرة الإنسانية ﷺ: "إِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ، مَنْ تَرَكَهَا مَخَافَتِي أَبَدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ"<sup>(٢٤)</sup>، لأن العين تنظر إلى الشيء أحياناً، فتخطو القدم صوبه مباشرةً، ثم تمتد إليه اليد، وفي النهاية تُرتكِبُ أكثر الأفعال البوهيمية خزيًا وعارًا، فإن كان مُرتكِبُ ذلك الفعل متميماً إلى زمرةٍ معيَّنة فقد يُعزى إلى أفراد تلك الزمرة قاطبةً كلُّ ما ارتكبه من جُرمٍ ومنكرٍ، وإن وضعنا في حسابنا أن هناك من

(٢١) سنن الترمذي، المناقب، ١٧.

(٢٢) سنن الترمذي، القيامة، ٢٥.

(٢٣) بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللعة السابعة عشرة، المذكرة الرابعة عشرة، ص ١٨٧.

(٢٤) الطبراني: المعجم الكبير، ١٠/١٧٣.

يَتَحَيَّنُ فرصة وقوع غيره في مثل هذه العثرات في يومنا الحاضر كي يتسنى له اتِّهَام طائفةٍ عظيمة بهذا الفعل... إن وضعنا ذلك في حسابنا تأكَّدت لنا ضرورةُ الحذر الشديد والحِيطَة في هذا الصدد.

### صيانة الأمانة

إِذَا بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ! هَلَمْ بِنَا نَبِيْنَ أَسْوَارًا خَلَفَ أَسْوَارَ، وَحَصُونًا إِثْرَ حَصُونٍ حَتَّى لَا تُرْتَكَبَ مِثْلَ هَذِهِ النُّوعِيَّةِ مِنَ السَّفَاهَاتِ وَالْوَقَاحَاتِ الَّتِي تُخْجَلُ هَيْئَةً بِأَكْمَلِهَا، وَيَنْبَغِي لَنَا أَلَّا نَكْتَفِي بِهَذَا فَحَسَبَ، بَلْ نُوْصِدُ أَبْوَابًا خَلْفَ أَبْوَابٍ، وَنَقُولُ لِأَعْوَانِ الشَّيْطَانِ إِذَا جَاؤُوا: "لَا تُتَعَبُوا أَنْفُسَكُمْ هَبَاءً، فَالْأَبْوَابُ مَوْصَدَةٌ دُونَكُمْ"، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ نَفِي - آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ - بِوُضُوءِ الإِرْشَادِ وَالتَّبْلِيغِ حَيْثُ نَكُونُ.

حَرِيٌّ بِنَا أَلَّا نَتَّبِعَ هَوَى أَنْفُسِنَا فَنَحْطَمَ دُنْيَانَا الَّتِي مِنْ اللَّهِ بِهَا عَلَيْنَا بِمَا فِيهَا مِنْ أَوْجُهٍ الْجَمَالِ وَالْخَيْرِ، وَالْحَقِيقَةِ أَنَّ الْحَقَّ تَعَالَى وَهَبَ الْقُلُوبَ الْمُؤْمِنَةَ الَّتِي قَدْ لَا تَعْرِفُ بَعْضُهَا الْبَعْضَ كَثِيرًا مِنَ الْإِمْكَانَاتِ وَالتَّجَلِّيَّاتِ الَّتِي لَمْ تَتَيَسَّرْ وَلَوْ حَتَّى لِلْقُوَى الْعَظْمَى، بَلْ وَلَا لِلدُّوَلِ الْكَبِيرَةِ، وَلَوْ أَنَا تَفَرَّغْنَا تَمَامًا لِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا وَهَبْنَا مِنْ نِعَمٍ، وَمَلَأْنَا وَقْتَنَا كُلَّهُ بِتَرَادُفِ كَلِمَةِ "الْحَمْدُ لِلَّهِ" دُونَ أَيِّ انْشِغَالٍ آخَرَ عَنْهَا؛ فَلَنْ نُوفِيَ النِّعْمَةَ حَقَّهَا، وَالشَّاعِرُ "سَعْدِي الشَّيْرَازِي" (٢٥) يَقُولُ: "لَا بَدَّ مِنَ الشُّكْرِ مَرَّتَيْنِ عِنْدَ كُلِّ نَفْسٍ"، أَمَا الْفَضْلُ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ فَإِنَّهُ شَرَفٌ وَمِنَّةٌ تَفُوقُ كُلَّ نَفْسٍ.

وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْحِمْلَ ثَقِيلٌ، وَالْأَمَانَةَ مَقْدَسَةٌ جَدًّا، لَا تَسْتَطِيعُونَ الْوَفَاءَ بِهَا حَتَّى وَإِنْ حَمَلْتُمُوهَا مَحْفُوفَةً بِفَرِيْقٍ مِنَ الْحِرَاسَةِ الْمَشَدَّدَةِ، لِأَنَّهَا أَمَانَةٌ

(٢٥) سعدى الشيرازي (٦٠٦-٦٩٠ أو ٦٩٤هـ): هو الشيخ مصلح الدين، من شعراء الصوفية الكبار، ولد في مدينة "شيراز"، وكان من مريدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار، ونظم الشعر، من أشهر كتبه كتاب "كُلستان".



الله، أمانة رسول الله، أمانة المجديين والسلف الصالح، إذا بالله عليكم هلمّ بنا نقتف آثارهم، فلا نخذل بني جلدتنا في هذا الشأن! ولنعش بعفتنا، ولندفن أهواءنا، بل لا نكتف بدفنها، لنضع صخوراً عليها، ولنحافظ بهذا على إيماننا، فلا نخسر آخرتنا، حرّي بنا ألا نكون مثل من يملؤون جيوبهم وأكياسهم وحقائبهم حين تلوح لهم الفرصة، وألا ننخدع نحن أيضاً كما انخدع الظاننون أنّ الدينا هي كل شيء، وألا نسير على خطى السائرين في إثر قارون، وألا نتفرعن كالمُتفرعين، بل على العكس ينبغي لنا أن نتأسى بسيد الأنام نبينا محمد ﷺ، وخلفائه الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، ونعصّ على سنتهم بالنواجذ.



## وَحَدُّ الْقِبْلَةِ وَلَا تَشْتَتِ الْهَمَّةُ

سؤال: ذكر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله في موضع من رسائله أن الإمام الرباني أحمد السَّهْنَدِيَّ قُدَّسَ سِرُّهُ قد أوصاه في واحدةٍ من التوافقات الخالصة بتوحيد القبلة<sup>(٢٦)</sup>، وبناءً عليه اعتصم بديع الزمان بالقرآن الكريم وجعله المرشدَ الأوحدَ له، فما الذي تكشف عنه هذه الحادثة في وقتنا الحالي؟

الجواب: في البداية أريد أن ألفت انتباهكم إلى أمرين قد يُفهمان خطأً:

(٢٦) يقول الأستاذ بديع الزمان: "وجدتُ كتاب "المكتوبات" للإمام الفاروقي السرهندي، مجدد الألف الثاني ففأملت بالخير تفاعلاً خالصاً، وفتحته فوجدت فيه عجباً... حيث وردت فيه رسالتان كتبهما الشيخُ إلى "ميرزا بديع الزمان" فأحسست كأنه يخاطبني باسمي، إذ كان اسم أبي ميرزا وكلتا الرسالتين كانتا موجّهتين إلى ميرزا بديع الزمان فقلت: يا سبحان الله، إن هذا ليخاطبني أنا بالذات، لأنني كنت ألقب قديماً "بديع الزمان"، ومع أنني ما كنت أعلم أحدًا قد اشتهر بهذا اللقب غير الهمداني الذي عاش في القرن الرابع الهجري، فلا بد أن يكون هناك أحد غيره قد عاصر الإمام الرباني السرهندي وخوَّطب بهذا اللقب، ولا بد أن حالته شبيهة بحالتي حتى وجدت دوائِي بتلك الرسالتين... والإمام الرباني يوصي مؤكداً في هاتين الرسالتين وفي رسائل أخرى أن: وَجَدَ الْقِبْلَةَ أَي: اتَّبَعَ إِمَامًا وَمُرْشِدًا وَاحِدًا وَلَا تَشْغَلْ بغيره! لم توافق هذه الوصية -آنذاك- استعدادي وأحوالي الروحية... وأخذت أفكر ملياً: أي المشايخ أتبع! أأسير وراء هذا، أم أسير وراء ذلك؟ احترت كثيراً وكانت حيرتي شديدة جداً، وحينما كنت أتقلب في هذه الحيرة الشديدة... إذا بخاطرِ رحمتي من الله ﷻ يخطر على قلبي ويهتف بي: "إن بداية هذه الطرق جميعها... ومنبع هذه الجداول كلها... وشمس هذه الكواكب السيارة... إنما هو القرآن الكريم فتوحيد القبلة الحقيقي إذاً لا يكون إلا في القرآن الكريم... فالقرآن هو أسمى مرشد... وأقدس أستاذ على الإطلاق... ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن واعتصمت به واستمدت منه..." (بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب الثامن والعشرون، الرسالة الثالثة، ص ٤٣٠-٤٣١).

الأول: يجب أن نعلم أن الأستاذ النورسي رحمته الله لم يكن يستصوب اتخاذ مثل هذه التوافقات (التفاؤلات) والرؤى أحكاماً عامة؛ لأن الأحكام المستقاة منهما أحكام خاصة وليست موضوعية، فضلاً عن ذلك لا بد من تأويل هذه التوافقات والرؤى تأويلاً صحيحاً، وتأويل الرؤى يُعنى به التوصل إلى نتيجة ما من خلال تأويل بعض الرموز المعينة، ومن ثم يختلف ما يرد في الرؤيا عن الحقيقة التي تعبر عنها، وهذه الأسس التي سقناها حيال التوافقات والرؤى أمورٌ مسلمٌ بها، ولا بد أن الأستاذ النورسي عندما اهتدى إلى هذا التوافق؛ استقرت نتيجته في ذهنه، وصدق عليه قلبه، ورآه متوافقاً مع تجاربه، ولذا أعطاه هذا القدر من الأهمية ونقله لنا.

أما الآخر فهو: إن عبارة "وحد القبله نحو القرآن" التي صاحبت هذا التوافق لا يُقصد منها أن الأستاذ النورسي قد انفصل عن القرآن الكريم وهجره، وأخذ يلهث وراء أمور أخرى حاشاه، فحياته ظاهرة للعيان، ومن المعلوم لدى الجميع أنه قد ظل طوال حياته يسعى وراء الحقائق القرآنية دون سواها، وعلى ذلك فإن عبارة "وحد القبله" ما هي إلا هدفٌ دُلَّ عليه الأستاذ في أفقٍ توافقيٍّ خاص، والواقع أنه كان خلال المراحل الأولى من حياته يبتغي تناسب إقامة الحق والحقيقة والتعبير عنهما مع روح ومقتضيات عصره، وفي هذا السبيل طُوف بالتكايما والزوايا، وتعرف بالكثير من الناس، لكنه لم يقابل أحداً -وفقاً لرؤيته- يعي مشاكل العصر التي ينبغي الوقوف عليها ويهتم بها وي طرح حلولاً تتناسب مع روح العصر، وإزاء هذا الوضع رأى ضرورة تناول المشاكل التي اعترضت حياة المسلمين بأسلوب ومنهجٍ مختلفٍ، وفي النهاية توصل إلى أن القرآن الكريم هو المرشدُ الأوحُدُ الذي يجب الرجوع إليه والاستعانة به.

وإذا ما نظرنا إلى العهد الذي عاشه الأستاذ النورسي لوجدنا أن كلَّ شيء في ذلك العصر قد أصابه الخراب والدمار، وانقلبت جميع القيم رأساً على عقب، ولقد صور لنا الشاعر محمد عاكف هذه الأيام بقوله:

خراب ديارٍ وانهايُ بيوتٍ واستيحاشُ صحراء

وانمحاق البركة من الأيام، وافتقار الليالي إلى الغاية العلياء

فلما شاهد الأستاذ النورسي كلَّ هذا أدرك عِظم الداء، فبحث يميناً ويسرةً عن علاجٍ ناجحٍ له، ورغم أنه حاول أن يوضِّح مدى شدة وفداحة ما وقع من دمارٍ وخراب، وضرورة معالجة المسألة من الأساس مجدداً، والاهتمام بمسألة الإيمان؛ فإنه مع الأسف لم يجد إلا القليل ممَّن يتفهَّمون همَّه، وبناءً على ذلك يَمِّم وجهه شطرَ القرآن الكريم، ولكنه لمَّا فعل ذلك لم يقصر نفسه على مناهج التفسير التقليدية، ولكن انتهج لنفسه منهجاً خاصاً استقاه من منهج القرآن الكريم نفسه، وبهذا المنهج قدَّم لنا وصفاتٍ علاجية من الدساتير الماسية للقرآن الكريم تداوي جميع أمراض عصرنا.

### تحديد مشاكل العصر أولاً

والحقُّ أنَّ الكثير من العلماء ظلُّوا -على مدار قرون متعدّدة- يبحثون عن حلولٍ تلبّي متطلّبات وظروف عصرهم، فحرّروا مؤلّفاتهم على هذا الأساس؛ ولقد ظهرت -على سبيل المثال- العديد من المشاكل المختلفة في عهد الإمام الغزالي مثل: تسلُّ الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي، وانتشار أفكار المعتزلة والجبرية، وظهور فرقتي الباطنية والقرامطة، وقد طعّمت الفلسفة اليونانية بجانبها الباطنيّ العالم الإسلاميّ آنذاك، مما نتج عنه تأثر كثيرٍ من المسلمين؛ فمثلاً نجد الفارابي وابن سينا -في باكورة

أعمالهما الفكرية - قد تأثرا بالفكر الفلسفي الذي وفد علينا من خلال ترجمة مؤلفات أفلاطون وأرسطو التي تعتمد في الأساس على أفكار سقراط، فما كان من الإمام الغزالي إلا أن بذل كل طاقته في سبيل توجيه الناس في عصره إلى نهج النبي ﷺ وصحابته الفضلاء ﷺ أجمعين، وتم له ذلك بفضل من الله؛ إذ أسس منهجاً وطريقاً خاصاً بعيداً عن الفلسفة اليونانية، وأضفى على الفلسفة الإشراقية لوناً خاصاً.

وكذلك اشتغل الإمام الرباني بحلّ المشاكل التي انتشرت في عصره، وكما تعلمون أنه معاصرٌ لسلطان الهند "جلال الدين أكبر شاه" الذي كان مهيمناً على مقدرات بلاد الهند، لقد ادّعى هذا الشاه كالتاريخيين (الحداثيين الذين يُنكرون صلاحية نصوص القرآن لكل زمانٍ وأوان) في عصرنا أن الكتاب والسنة لا يتوافقان من حيث ماهيتهما الحقيقية مع روح العصر الذي يعيشون فيه، وابتدع خلطةً ديانة؛ بمعنى أنه سعى إلى تشكيل ديانة جديدة تشتمل على توليفة من اليهودية والمسيحية والبوذية والهندية وشيءٍ من الإسلام، وبناءً على ذلك شكّل الإمام الرباني أسواراً حول الإسلام يجابه بها هذا الفكر الضالّ المنحرف، واستطاع بزوح التجديد الكامنة في أعماقه أن يُشيدَ صرحَ الروح في العالم الإسلامي مرة أخرى.

والواقع أن هذه الهمة ومثيلاتها مستقاة من همة رسول الله ﷺ عند انزوائه في "سلطنة حراء" قبل زهاء ستة أشهر من نزول الوحي عليه، فمن غير المعقول ألا تفكّر مثل هذه العقلية الرائعة وهذا الإنسان المحظي بجاهزية خاصة في المشاكل التي كانت منتشرة في العصر الجاهلي قبل أن ينزوي إلى "سلطنة حراء"، فكم أضنت هذه الروح الفريدة نفسها وأنهكت عقلها قبل أن تُشرفَ غار حراء في سبيل توجيه الناس إلى الله

والَّذِينَ الْحَنِيفِ! وَفِي النِّهَايَةِ نَزَلَ الْوَحْيَ مِنْهُمْ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَوَجَّهَ اللَّهُ تَعَالَى وَجْهَ نَبِيِّهِ ﷺ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَأَرْسَلَ لَهُ شَرْعَةً جَدِيدَةً فِيهَا الْعِلَاجُ النَّاجِعُ لِكُلِّ أَمْرٍ وَمَشَاكِلِ الْعَصْرِ.

### الدساتيرُ القرآنيَّةُ الماسيَّةُ وَصَفَةُ طَبِيبَةِ الْعَصْرِ مَرِيضٍ

حين طالع الأستاذُ بديعُ الزمان "المكتوبات" للإمام الرِّبَّانِي ووقع له هذا التوافق أخذ بوصيته الداعية إلى ضرورة التوجه التام مجدداً إلى القرآن الكريم، والبحث عن علاج مشكلات العصر في ثنانيا حقائق القرآن الماسية دون سواها، وهذا يعني أنّ النتيجة التي ظهرت لبديع الزمان في هذا التوافق تتفق مع المشاعر والأفكار المستقرة لديه مسبقاً، بل إنها في نفس الاتجاه، وبناءً عليه قَطَعَ علاقته بكل شيء وركّز في نقطة واحدة، وكثف همته على هذا الموضوع حتى إنه لم تُثبته عنه لا المضايقات ولا النفي ولا السجون ولا المعتقلات قط، ولم تُجبره على التراجع ولو حتى خطوة واحدة؛ وذلك لأنه كان يؤمن يقيناً بأنّ نجاة الإنسان المعاصر وخلصه سيتحقق بالدساتير القرآنية الماسية، وأنّ هذه النجاة ستكون مصدر أملٍ لنجاة آخرين كثر.

وإذا ما نظرتم إلى الأمر من زاوية يومنا المعاصر؛ تَعَدَّرَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَرَوْا الشَّنَاعَاتِ وَالِدِنَاءَاتِ الَّتِي ارْتُكِبَتْ فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ رُؤْيَةً كَامِلَةً، وَلَا تَسْتَطِيعُونَ الْوُقُوفَ عَلَى الصُّورَةِ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا، فَحَتَّى كِبَارَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ عَاشُوا فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مِمَّنْ يُوصَفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِـ"الْعَلَامَةِ" تَذَبَذَبُوا بَيْنَ هَذَا وَذَلِكَ؛ بَحِثْ إِنَّكُمْ حِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى مَوْلَفَاتِهِمْ تَجِدُونَ بَعْضَهُمْ قَدْ مَاشَى نَظَرِيَّةَ التَّطَوُّرِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ: إِنَّ التَّطَوُّرَ نَظَرِيَّةٌ، وَإِنَّهُ إِذَا مَا أُثْبِتَتْهَا الْعُلُومُ التَّجْرِبِيَّةُ ذَاتَ يَوْمٍ؛ فَمِنَ الْمُمْكِنِ التَّوْفِيقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

أجل، فى هذه الفترة ارتجّ جذر المجتمع بمقوماته الأساسية، وتوالت فىه الانكسارات والمصادمات تترى، وظهرت عقلية سامية تعرف كيف تنظر إلى الحوادث نظرةً كليّةً شموليّةً، وتبصر الأسباب والتّائج مجتمعة، ولقد أخذت هذه العقلية بعين النظر والاعتبار توصية الإمام الرّباني تلك؛ نتيجة مطلق ثقتها به، وبتعبيرٍ آخر: وافق وافقها هذا توافقاً الداخلىة الخاصة؛ فاستفادت من هذا الاقتران وواصلت المسير فى هذا الطريق.

### آفاق جديدة بوجهة نظر جديدة

يمكن فى يومنا الحاضر أيضاً -انطلاقاً من المنافذ التى تركها بديع الزمان مفتوحة- تقديم صورة جديدة للمسائل والقضايا التى تناولها، وإكساب الناس انفعالاً جديداً؛ فعليكم أن تعرضوا بأسلوبٍ ومنهجٍ مختلفٍ تلك الحقائق التى تناولها هو بحيثُ تأسرُ ألبابَ مَنْ يطلعون عليها فيقولوا: "كنا نقرأ هذه القضية لسنوات عديدة إلا أننا لم نفهمها على هذا النحو قط"، ويشعروا بانفعالٍ وحسٍ جديد فى أرواحهم، والواقع أن معظم كلامه عميق المعنى والمحتوى إلى درجة أن يُشكّل كلُّ منه أطروحةً علميةً مستقلة بذاتها؛ بيد أن القدرة على رؤية هذا العمق تتطلب سعيًا إلى اطلاعٍ وقراءةٍ تتجاوز الشكليات لتنفذ إلى اللطائف الكامنة فى الداخلى، وكما تعلمون فإنّ العالم المغربى المرحوم "فريد الأنصارى" قد ألّف كتاباً جميلاً بعنوان "مفاتيح النور" يعنى بالمفاهيم الرئيسة فى رسائل النور، فلماذا لم تُجر فى بلدنا دراسةً حول آثار هذا الإنسان المبارك تكون بقدر أفقٍ ومستوى تلك التى أجراها الشيخ فريد الأنصارى؟ لماذا عجزنا أن نُقيّم آثار هذه القامة السامقة الممتازة الفريدة تقييماً من زوايا مختلفة؟ الواقع أن المرء يتأوه كلما فكّر فى هذه الأمور ويعجز عن أن يمنع نفسه من التحسّر والأسف.



ومع ذلك فالأمرُ أهمُّ بكثيرٍ من مجرد التفجّع والتأسُّف؛ ففي رأيي أنّ الواجب الذي يقع على عاتق العقول المستنيرة في عصرنا هو مطالعة هذه المؤلفات القيمة للأستاذ بديع الزمان بوجهة نظر جديدة، لا سيّما ذوي الأفق العلميّ الواسع، الخبراء في مجال الدراسات الدينية، فإنّهم يستطيعون من خلال القراءة المقارنة تناول تلك المؤلفات ومطالعتها مع مؤلفات العلماء العظام من أمثال الإمام الماتريدي والإمام الغزالي وعز الدين بن عبد السلام وابن سينا وفخر الدين الرازي؛ مما يولّد في الضمائر هيجاناً وحماساً جديداً تجاهها، بل لا يكتفون بهذا فحسب وإنما يحللون تلك المؤلفات الممتازة وفقّ منهج قراءة ومطالعة جديد، وانطلاقاً من المنافذ التي تركها فضيلة الأستاذ النورسيّ مفتوحاً؛ يستطيعون إعداد جيلٍ من العلماء قادرٍ على استحداثٍ منهجٍ علميٍّ للمستقبل، وتأسيسِ علمٍ المناهج الفقهيّة، إلى جانب إجراء دراسات سليمة حول بعض العلوم كالفقه والحديث والتفسير.



## يَمَامُ العالم الميتافيزيقي والانبعث المرتقب

سؤال: ما الأمور التي يرتبط بها انفتاح الإنسان على المعنويات  
والعوالم الميتافيزيقية؟

الجواب: يعتبر بعضُ الناس المادةَ كلَّ شيء، فيعيشون حياتهم بمنأى عن المعنويات والميتافيزيقا... قد يكون لفطرتهم أثرٌ واضح في هذا التوجّه، غير أنهم لم يُعطوا إرادتهم حقّها، ولم يبذلوا أيّ عزمٍ أو جهدٍ حقيقيّ في هذا المضمّار، لقد انحدرت عقولُ هؤلاء إلى عيونهم، وأصبحوا لا يفكّرون إلّا فيما يرون، وانغمسوا في المادّيات حتى آذانهم وإن كانوا يدّعون الإيمان بربهم؛ فحبسوا أنفسهم بأنفسهم في الإطار الضيق لأفكارهم وقناعاتهم؛ فمثلاً لا يؤمنون بما يُسمّى الكرامات التي نستطيع عدّ الآلاف منها، والتي نُقلت إلينا عبر العصور بالتواتر عن أناسٍ ثقاتٍ يستحيل تواطؤهم على الكذب، بل إن بعض هؤلاء الماديين يرفضون الاعتراف بالمعجزات حتى رغم اضطرارهم إلى قبولها بسبب تواتر وسلامة رواياتها؛ ويحاولون أن يُفسّروها بالأسباب المادّية ويُخضعونها لتأويلاتٍ من قبيل أنفسهم.

لقد قيّد هؤلاء عالمهم الفكري بالماديات، وبمرور الزمن أضعفوا قابلياتهم وقدراتهم على فهم الجانب الميتافيزيقي للأشياء والحوادث، ومن ثم لم يستوعبوا الحكّم التي تحتويها تلك الحوادث التي تبدو شراً مستطيّراً في الظاهر، ونظراً لأنهم لم يستطيعوا الوقوف على علم "تأويل الأحاديث" فلم يستطيعوا إدراك المعاني المختلفة الكامنة في جريان هذه الحوادث.

### خلفيات الحوادث والحكمة منها

إذا نظرنا إلى كفيّة وقوع الحوادث نجدها كآليات البيئات تعبّر عن معانٍ تختلف من شخصٍ لآخر، ولكن على الإنسان إذا ما أراد إدراك ذلك أن ينظر إلى ما يحدث حوله ويستشعره أولاً بلطيفته الربانية، وأن يمتلك القدرة على التحليل والتأليف؛ بمعنى آخر: عليه أن يدرس الأوامر التكوينية كالأوامر الشرعية على أنها كتابٌ مقروء، وأن ينظر إلى الحوادث نظرةً شموليّةً، وأن يبذل وسعه لإدراك الصلة بينهما، وأن يسعى لاستيعاب العلاقة بين السبب والنتيجة، ضارباً بمفهوم "الصدفة" عرض الحائط، وما أجمل ما قاله الشاعر التركي "رَجَائِزَادَه محمود أكرم":

الكون بأسره كتابٌ عظيمٌ لله

إن أعمنتَ النظر في أي حرفٍ منه رأيتَ أن معناه: "الله"

لنفترض أن بعض الحوادث قد وقعت صدفةً، أو أن احتماليّة وقوعها واحد بالمائة، فإذا أضفتَ إليها بعض العوائق والوقائع التي ترتبط بها فستقلّ نسبة احتماليّة الوقوع إلى واحد في الألف، أو واحد في المليون، أو في المليار، ولو أجال الإنسان النظر في حياته، وتناول كلّ ما جال بخاطره وعلق ببصره ولامسته حواسه ومشاعره بنظرة شموليّة؛ فيأمكنه

استنباط الكثير من المعاني العميقة من هذه الحوادث والروابط التي تربط بينها، وسيشاهد بعين اليقين مرّة أخرى مع كل حادثة أنه لا صدفة في الكون ولو بقدر ذرة، ولكن إذا تناولها بشكلٍ مستقلٍّ كما يفعل بعض الفلاسفة فلن يستطيع حينذاك إدراك مضمون ومفهوم الإيمان بالله تعالى المكنون في كلّ حرفٍ من هذا الكون.

وانطلاقاً من هذا فإذا ما رغب الإنسان في الانفتاح على عالم المعنويات فليدقق النظر في الكون وما يجري فيه من أحداث، وليؤمن يقيناً بأنه لا يوجد شيءٌ في الكون دون معنى، فمثلاً إذا ما سقط كوبٌ من يده وانكسر فعليه أن يعلم وفقاً لعلم "تأويل الأحاديث" أن لهذا معنى بالتأكيد، وأن يتأمل فيه حتى يفهم المعنى والرسالة اللذين يعبر عنهما، لكن لا تحملوا كلامي على غير محمله؛ لا أدعو بقولي هذا إلى أن نخضع نظرتنا للحوادث إلى التفاؤل أو الشاؤم وما ينشأ عن ذلك من أملٍ أو يأس، بل إلى إدراك أن لكلّ حادثةٍ معنًى معيّنًا تعبر عنه بلسان حالها.

### الدعاء: المفتاح السري للانفتاح على العوالم الميتافيزيقية

لا بدّ للإنسان حتى يُدرِك البعد الميتافيزيقي للوجود أن يسعى إلى تعميق معلوماته النظرية بأداء العبادات والطاعات، ولا جرم أن الدعاء يأتي على رأس العبادات؛ لأنه مُخُّ العبادة، وهو اسمٌ وعنوانٌ على العبودية الخالصة لله تعالى، كما أنه عبادةٌ تتجاوز دائرة الأسباب، فهو السُّلْمُ الأهمّ في إيصال الإنسان إلى أفق ما وراء الأسباب.

ولكن ما هو أهمّ مطلب لا بد أن يسأله العبدُ عند دعائه لربه؟

إننا نواظب صباح مساء على الدعاء ب"اللَّهُمَّ أَجْزَأْنَا مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ مَعَ الْأَبْرَارِ"، ولا شك أن النجاة من النار والفوز بالجنة من أهمّ

الغايات التي ينشدها المؤمن في الحقيقة، ولكن الأحرى أن يسأل الله تعالى ما هو أعظم من ذلك، ألا وهو: معرفة الله معرفةً يقينيةً، وعدم الغفلة عنه تعالى أبداً.

أجل، هذه هي الغاية الأسمى التي يجب أن يعيها الإنسان ويركز عليها في دعائه، ينبغي له إذا ما رفع يديه بالدعاء لربّه ﷻ أن يطلب معرفة الله ومرضاته أولاً، وأن يلحّ في الطلب حتى يشعر وكأن اللطائف التي تأتيه من ربّه قد أصابت يديه بالخدر والتنميل، أو كأنها تنهال عليه، فإذا ما عاش العبد هذا الشدّ المعنوي من رأسه حتى أخمص قدميه، فعليه أن يدعو الله وكأن قلبه قد انخلع ورأسه قد تصدّع: "اللهم زدني إيماناً ومعرفةً بك ومحبةً لك، وأطربني بالشوق إليك، واملاً قلبي بعشقتك، واجعلني مجنوناً سبيلك!".

جزبوا أن تسألوا الله ذلك ألف مرّة بقلب صادق سليم لا سيما في جوف الليل، ولا يعزب عن علمكم أن الله هو الذي يمزق ستائر الطبيعة ويفتح آفاقاً جديدةً لكم خلفها، ستطلعون بإذنه وعنايته على العوالم الميتافيزيقية، ويجب ألا ننسى أن من طلب جدّ وجدّ؛ أي إن من يتابع أمراً ويحمله على محمل الجدّ يتفضل الله عليه بما يتمنى، فهل يلتفت أحدٌ إلى متسوّل يعقد يديه وراء ظهره، ويعامل الناس باستغناء أعطوه أم منعه؟! وكذلك فإن قبول الدعاء منوطٌ بتوجه الإنسان إلى الله توجّهاً كاملاً، وملازمته السجود على أعتابه، وإصراره في طرُق بابّه، وبقينه باستجابة دعائه.

لكنني مضطّرٌّ أن أقول - وكُلّي حزنٌ - إنّ الدعاء رغم أهميته الكبرى للمسلمين فقد صار أقلّ العبادات اهتماماً عندهم في يومنا الحاضر

للأسف؛ إذ صار ضحيّة الشكليات والمظاهر منذ زمنٍ بعيدٍ، حتى إنّ الأدعية التي تُرْفَعُ وتُرَدَّدُ في الجوامع راحت ضحيّة الشكل في شباك العادة والغفلة.

وينبغي ألا يُفْهَم من عباراتي أنّ العبادات التي يؤدّيها المسلمون الذين تمتلئ بهم الجوامع والأدعية التي يرفعونها لا تُقبل، فحاشا وكلاً! فالله جلّ جلاله يجزي المؤمن ولو على أقل الأعمال وأصغرها حجماً، ويكافئه عليها ولو كانت مثقال ذرة، لكنه ينبغي ألا يُنسى أنّ قيمة الإنسان ومكانته تكون بقدر اهتمامه بما له قيمة، فإن كنتم تُقَدِّرون متاعاً دنيوياً: قصرًا كان أو نُزُلًا فخمًا أو ما شابه ذلك فقد اختزلتم قيمتكم في قيمته، وإن قدرتم الجنة واهتمتم بها صرتم تعدّلونها من حيث القيمة، ولكنكم إن ربطتم عبوديتكم ورجباتكم بعشق الله والشوق إليه فإنكم ترتقون آفاقاً لا حدود ولا نهاية لها، لأنه تعالى خالدٌ باقٍ لا نهاية له، إن تعظّموه وتمجّدوه بالتهليل والتسبيح والثناء، وتقولوا: "اللهم لك الحمد والثناء عدد ذرات الكون"، وتستشعروا ذلك في وجدانكم وأفئدتكم وتحمسوا به؛ وتخفق قلوبكم كلّما ذكرتموه؛ فإنّ هذه الحالة تُشير إلى مكاتكم وقدركم عنده تعالى؛ لأنه ورد في الحديث النبوي الشريف "مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللَّهِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ"<sup>(٢٧)</sup>، فعليكم أن تقدروا الله تعالى حقّ قدره، وتفكروا فيه دومًا، وتراقبوه في كل شؤونكم، وتُرَدِّدُوا اسْمَهُ دَائِمًا، وتُحَافِظُوا عَلَى صَلَاتِكُمْ بِهِ.

(٢٧) المنتخب من مسند عبد بن حميد، ص ٣٣٣؛ أبو يعلى: المسند، ٣/٣٩٠؛ الحاكم: المستدرک، ٦٧١؛ البيهقي: شعب الإيمان، ٢/٦٥.

## الانغلاق دون العوالم الميتافيزيقية

قد يمنُّ الله بمحض فضله على أحد عِباده بأنواعٍ وأنواعٍ من النِّعم بما يزيدُ على اجتهادِ هذا العبد وسعيه، لكنَّ المقياس الموضوعي والأساس هو أن يوفِّي الإنسان إرادته حقَّها؛ لأنَّ الحقَّ تعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (سورة النَّجْم: ٣٩/٥٣)، أي لا شيء يَمُنَّحه الإنسان إلا ثواب سعيه ووفائه بحقَّ إرادته وسيره في سبيل الله.

ومن هذه الناحية فإنَّ مَنْ يقول: "لا أستطيع الانفتاح على العوالم الميتافيزيقية، وأعجز عن النظر إلى الأشياء والحوادث نظرة شمولية، ولا أقدر على أن أربطَ بينها، ولا أن أصلَ إلى تركيبة تجمعها" ينبغي له أن يُراجع نفسه بالدرجة الأولى؛ فينظر هل فعل ما يلزم فعله أم لم يفعل؟ تُرى هل نهض مثل هذا الإنسان لصلاة التهجد أربعين يوماً متتالية دون توانٍ منه أو تراخٍ إلى جانب اهتمامه وحرصه على أداء الفروض؛ فَخَرَّ ساجداً باكياً وسأل الله تعالى ما يجب أن يُسأل ويطلب؟ إنَّ مَنْ لا يفعل هذا يتبين أنه لا يهتم بالمعنويات والروحانيات كما ينبغي، فلا يُتوقع منه أن يكون أفضَّه المعنوي كما يجب، وإن صحَّ القول إن بعض الناس منغلِقون دون المعنويات والروحانيات، إلَّا أنَّ مَنْ ألزَمهم بهذه الحالة ليس هو الله تعالى، بالعكس إنهم انغلِقوا دون المعنويات والروحانيات ولم يحظوا بها لعدم قيامهم بالضروريات اللازمة من أجل الانفتاح على العوالم الميتافيزيقية، وعدم وفائهم بحقَّ الإرادة في هذا.

وثمة قضية أخرى أريد الحديث عنها ههنا وإن لم تكن مطروحةً في السؤال أساساً، وهي: أنَّ استمرارَ مرحلة الانبعث هذه -التي انطلقت تبثُّ الأمل والخير في الإنسانية جمعاء في أيامنا الراهنة- وثباتها ورسوخها



على الساحة سوف يتأتى ويتحقق بيد الإنسان المؤهل والمنفتح على المعنويات والعالم الميتافيزيقي إلى جانب العلوم الطبيعية والشرعية. أجل، إذا نشأنا وأعددنا "جيل الإرادة" المزود بالإمكانات التي تفي بلوازم هاتين العالمين: الطبيعي والميتافيزيقي؛ فسوف تصحو الإنسانية على ربيع جديد بأيدي أبطال المعنويات وأولياء الله هؤلاء الذين يقدمونه على كل شيء، وسيستسم وجه الدنيا مرة أخرى، وتشهد البسيطة جمعاء بعثاً جديداً يمتد من أقصاها إلى أقصاها.



## النشاط والحيوية في حياة الخدمة

سؤال: كيف يمكننا أن نبلغ أفقَ الفعالية والحيوية الدائمة التي يستهدفها الإسلام في الحياة الفردية والاجتماعية؟

الجواب: لا مكان للركود والجمود في فلسفة الإسلام ورؤيته الحياتية، فكلُّ شيء فيها نشطٌ وحيويٌّ بدءاً من الإنسان حتى الأرض، ومروراً بالأشياء إلى الأزمان، فكما أمر الإسلام الفرد أن يتحلّى بالنشاط والحيوية الدائمة في أداء الأعمال الصالحة مثلاً، كذلك أمره بأن يستثمر ويستغلّ المال والأرض والزمان أجود استثمارٍ وأفضل استغلال حتى يجني من ورائها أرجى الثمار.

أما عن أهمّ المسائل التي تتطلّب حيوية المسلم وفعالته فهي المسائل الإيمانية، لذا نقول دائماً في دعائنا: "ربُّنا زدنا علماً وإيماناً و يقيناً"، فعلى المؤمن أن يسعى إلى تجديد إيمانه وزيادة يقينه دائماً بمراجعة الكتب والتعرّف على الحياة المباركة للسلف الصالح والجلسات الإيمانية والتفكير والأوراد والأذكار، وفي هذا السياق فإن التركيز على قراءة الأدعية الواردة

في كتب الأدعية المعروفة مثل "القلوب الضارعة"<sup>(٢٨)</sup> وسبَرِ أغوارها إلى حدٍّ ما من شأنه أن يفتح آفاقاً متعدّدة أمام الإنسان.

إن الحيوية والنشاط والفعالية تمتلك أهميّة بالغة في حلِّ ومواجهة المشاكل المستعصية التي يتعرّض لها العالم الإسلامي منذ عصور، ومحافظة القلوب المؤمنة على وجودها دون التذلل أو الدخول تحت وصاية الآخرين، لقد فقد المسلمون -مع بالغ الأسف- هذا الحماس والنشاط والحيوية منذ قرونٍ، ولم يستطيعوا الحفاظ على مكانتهم كعنصرٍ من عناصر التوازن الدولي، ومن ثمّ فقدوا زعامتهم، ودخلوا تحت وصاية غيرهم في المجال السياسي والثقافي والاقتصادي... إلخ.

### مجتمع أسير مغلول الأيدي والأعناق

ولقد نبهنا الأستاذ النورسي رحمته الله إلى هذه الحقيقة بقوله: "يا أيّها القبور المتحركة برجلين اثنتين، أيّها الجنائز الشاحصة! ويا أيّها التعساء التاركون لروح الحياتين كليهما -وهو الإسلام- انصرفوا من أمام باب الجيل المقبل، لا تقفوا أمامه حجر عثرة، فالقبور تنتظركم... تنحوا عن الطريق، ليأتي الجيل الجديد الذي سيرفع أعلام الحقائق الإسلامية عالياً، ويهزّها خفاقة تتماوج على وجوه الكون"<sup>(٢٩)</sup>؛ ولأن هذا الدين العالمي الخاتم ينوء بتمثيله الإنسان الخامل أو الفكرة البالية أو ضعف الهمة؛ فلقد طلب الأستاذ الثورسي من الأرواح الخاملة الفاقدة للحماسة والتي تشكّل نموذجاً سيئاً للأجيال المقبلة أن تتنحى، وتُفسح الطريق للجيل المقبل

(٢٨) القلوب الضارعة: هو كتاب يجمع بين دفتيه مختاراتٍ من أدعية سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وإخوانه من النبيين والصحابة الكرام وكبار الأولياء والصالحين، أشرف على جمعها الأستاذ فتح الله كولن، ومعظم هذه الأدعية مقتبسة من كتاب "مجموعة الأحزاب" للشيخ ضياء الدين الكومشخانوي من علماء العهد الأخير للدولة العثمانية.

(٢٩) بديع الزمان سعيد النورسي: صيقل الإسلام، المناظرات، ص ٣٧٩-٣٨٠.

الذي سيأتي بعدها متمتعاً بروح الحيوية والنشاط؛ حتى يتبوأ المكانة التي ينبغي له أن يتبوأها، ويؤدي ما يجب عليه أن يؤديه.

أجل، من الأهمية بمكان ألا يكون الإنسان نموذجاً سيئاً، وإنني لا أريد هنا أن أقترّف ذنباً بذكر مساوئ أجدادنا رحمهم الله، ولكنني انطلاقاً من مسؤوليتي إحقاق الحقّ وإجلاء الحقيقة أستميحكم عذراً في أن أنوه بهذا الأمر:

إنّ ممّن تسببوا فيما نعيشه اليوم من ركودٍ وضعفٍ في المهمة آباءنا وأمّهاتنا وأجدادنا وجدانتنا، ووراء أخطائهم ممّن سبقوهم -بقدر ما-، وللإنصافٍ فلقد أدّوا ما يقع على عاتقهم في إيمانهم بربهم وأدائهم لعباداتهم، ولكنهم عجزوا عن تجاوز القوالب الفكرية البسيطة عند تقييمهم للأحداث، فلم يستطيعوا بلوغَ آفاقٍ يُدركون بها عصرهم عند دراسته وتحليله، ومن ثمّ تسبّبوا فيما نعيشه اليوم من قحطٍ وجفافٍ في حياتنا الفكرية والعملية على حدٍ سواء.

وبناءً على ذلك إنّنا نعدّ جيلاً ضائعاً فاشلاً، لأننا لم ننشأ بما يتناسب وأفق إدراك عصرنا، وعلى ذلك لم نستطع أن نحظى بوصف أمناء المستقبل الذين يرثون الأرض، وأصبحنا نحن ممّن نقوم بالتجديف وغيرنا هو ممّن يتولى قيادة الدفة.

وإذا نظرنا إلى المسألة من الناحية الاجتماعية نقول: إما أن تديروا الدفة في التوازن الدولي أو أن تظلوا تُجدّفون طوال عمركم؛ لا توسط بين الأمرين. أجل، إما أن تكونوا حاكمين أو تظلوا محكومين؛ وبعبارة أخرى: إما أن تكونوا عنصرًا من عناصر التوازن الدولي أو تعيشوا ضمن الإطار الذي رسمه لكم غيركم؛ أو قلّ: إما أن تكونوا أصحاب الكلمة

والنفوذ أو تغدوا أسرى لغيركم؛ بمعنى أن تصيروا كالعبيد الذين يحملون أغلالاً في أعناقهم وأقدامهم مقيدةً بالسلاسل، وهذا -للأسف- هو حال المسلمين منذ عدة قرون.

إن التردّي في مثل هذا الحال الناشئ عن عدم تمثيل الإسلام التمثيل الحقّ قد أفضى إلى أننا لم نستطع أن نحافظ على كرامة الإسلام وشرفه، بل وألحقنا به الذلّ والهوان، والحقُّ أننا بقدر ما يتسبّبُ حالنا الكئيبُ هذا في إهانة الإسلام سنلقَى هواناً عند الله، فهذا بذاك، لذا فالعملُ العملُ، والسعيّ السعيّ على طريق استعادة مكانتنا اللائقة بنا مرّةً أخرى، من أجل هذا يجب على الإنسان أن ينشد المعالي والذرى دائماً وأن يُعلي من هِمَّتِهِ، ويرفع من سقف طموحاته.

### أبطال الإرادة وكرامة الإسلام

ليس الإنسان نباتاً ولا جماداً، بل هو كائنٌ حيٌّ منحه الله إرادةً إن أعطاها حقّها بصفيتها شرطاً عادياً، وأحسن استغلال القوة التي وهبه الله إياها استغلالاً سليماً استطاع بإذن من الله أن ينفث نسيمات الانبعاث في جنبات الأرض كلها، فمتى سُحذت الإرادات، وأشعلت مشاعل الآخرين أنارت الأرض كلها وكأنها ساحةٌ للمهرجانات، وإن شئتم فانظروا إلى عصر السعادة من هذه الزاوية؛ ألم يستطع النبي ﷺ أن يحقق في غضون ثلاثة وعشرين عاماً ما لا يمكن أن يحققه غيره خلال عدة قرون؟ أو لم يستطع الخليفة الأول سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن يُقلّم أظفار إمبراطوريتين عملاقتين في تلك الآونة بجيش لا يتعدى قوامه عشرين ألف جندي؟ رغم أنه كان في الوقت ذاته يُصارعُ فلول المرتدين بما فيهم مسيلمة الكذاب الذي كان على رأس جيش يبلغ أضعاف المنظمة الإرهابية التي لم نستطع دحرها في تركيا منذ سنين.

لقد أعطى سيدنا أبو بكر رضي الله عنه إرادته حقها، وتغلب بفضل من الله وعنايته على كل تلك المشاكل والصعاب؛ وهذا مثال حي للفعالية والحيوية التي يجب أن يكون عليها المسلم.

### أُسُس المحافظة على النشاط والحيوية

يمكن إيجازاً أُسُس المحافظة على النشاط والحيوية على النحو التالي:

إن أحد العناصر المهمة في سبيل الحفاظ على نشاط الناس وحيويتهم هو الإرشاد إلى سبيل يتسنى للجميع السير فيه، وتحديد مجال معين واضح المعالم، فالإنسان وإن أنسل من الأناية وتحرك باسم الجماعة لكنه يرغب من الناحية النفسية في معرفة إطار العمل الذي سيقوم به والنقطة التي سيصل إليها، أما تقدير الإنسان بسبب ما بذله من سعي وجهد فإنه يُحفز عشقه وشوقه إلى فعل الخيرات، وإن كان هناك من يخلطون أنانيتهم في العمل كلما حققوا درجاتٍ مختلفة من النجاح إلا أنه ينبغي في مثل هذا الموقف توجيههم إلى الإخلاص بأسلوب ملائم لئلا ينحرفوا.

ومن جانب آخر ففي نفس الوقت الذي تُساعدون فيه غيركم على الانبعاث والحياة تُساعدون أنفسكم أيضاً على البقاء في نشاط وحيوية؛ فالإنسان الذي يُحيي العالم لا يُتصور أن يبقى هو ميتاً؛ لأنه يستحيل عندما تساعدون الآخرين على النهوض من كبوتهم وتستبدلونها بالعمل وتجعلونهم يركضون كالمسابق في سباقات الماراثون أن تتخلفوا أنتم عنهم وتتأخروا دونهم.

إن معرفة القيمة الحقيقية للزمن الذي يمثل خطأً اعتبارياً لأمر في غاية الأهمية كي نحافظ على النشاط والحيوية، وقد تعدد علينا نحن أن ندرك -مدةً طويلة- أن الزمن بِحد ذاته قيمة مهمة، فهو الكنز الفريد الذي يمكن

الفوزُ بالجنة بفضلِهِ إن استُغِلَّ استغلالاً جيّداً. أجل، إنّ الإنسان إذا أحسنَ توظيفَ الزمان فإنّه يفتح على "اللازمانية"، ويفوز بالأبدية خلالَ فترةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ وجيزة، فإنَّ معرفة القيمة الحقيقية الأصلية للزمان وإحياء كل لحظة فيه بالحركة والعمل الصالح لثُمَّلُ أساساً "جوهرياً" من أجل حياة "خدمةٍ حيويةٍ نشطةٍ.



## نحويل الإمكانيات الفانية إلى جماليات خالدة

سؤال: ما الذي ينبغي أن تكون عليه نظرة المؤمن إلى الدنيا حتى يتسنى له تحويل الإمكانيات الفانية في الحياة الدنيا إلى جماليات خالدة في الآخرة؟

الجواب: لقد خلق الإنسان ورشّح للخلود، وذهنه منشغل على الدوام في تصوّر السعادة الأبدية الخالدة، وعلى ذلك يجب على الإنسان أن يقدر الدنيا بقدر فنائها والآخرة بقدر خلودها، ولو كان لنا أن نتحكّم في الطبيعة البشرية وسمحت الأحكام الدينية بهذا فأنا أعتقد أننا إذا ما فكرنا في الدار الآخرة وخلودها سنقول: "يجب علينا أن نقطع صلتنا بالدنيا تمامًا ولا نيمّم وجوهنا إلا إلى الآخرة"، غير أن فطرة الإنسان وشهوته وضعفه البشري لا يُجيز مثل هذا الكلام، كما أن الكتاب والسنة اللذين شرعا الأحكام بما ينسجم مع الفطرة الإنسانية لا يُقرّرا مثل هذا النمط من الحياة، ومن ثمّ يجب على الإنسان ألا يغصّ بصره عن القوانين التي أودعها صاحب الشريعة ﷺ في الفطرة الإنسانية، وأن يكون على وعي لما هو مرشّح له ولنوعية المفاجآت التي تنتظره؛ بمعنى أن يسير في الطريق الذي رسمه له القرآن الكريم ويتغني الدار الآخرة فيما آتاه الله تعالى، ويجعل لها الأولوية في حياته، ولكن لا ينسى نصيبه من الدنيا أيضًا.

وفي هذا الصدد على الإنسان أن يعتبر رغباته وشهواته الدنيوية ككسرة خبزٍ أو قطعة عظمٍ -عذرًا لهذا اللفظ غير اللائق- ملقاة إلى نفسه، وبذلك يستطيع أن يواصل طريقه دون أن تغريه جماليات الدنيا الفاتنة، بيد أن إدراك الإنسان بشكلٍ كاملٍ للدنيا والعقبى وما فيهما من ألوان ونقوش خاصة بهما يتوقف على المعرفة الحقة، فمن لم يستطع أن يُزيّن إيمانه بالمعرفة لا يستطيع أن يشعر بجماليات صعوبات الطريق الذي يوصله إلى الخلود وإن كان مسلمًا، ومن ثم لا يناله إلا التعب والنصب في الطريق الذي يسير فيه.

إن المعرفة في حدّ ذاتها تولّد ضروريًا من المحبة كأمواج البحر المتلاطمة، وأما المحبة فتوجّه نظر الإنسان إلى المحبوب الحقيقي ﷺ، ومن خلالها يتخلّص الإنسان من دغدغة المشاعر، فيطرح عظمةً لرغبات نفسه وضغوطاتها ويواصل طريقه، والدنيا مهما كانت فاتنة فعلى الإنسان ألا يثق بها، أما الشيء الوحيد الذي لا بد أن يوليه الإنسان الأهمية القصوى في هذه الدنيا فهو نشر الاسم الجليل المحمدي ﷺ في كل أنحاء العالم، ورفع كرامة الإسلام الضائعة المنتهكة مثل الرايات التي ترفرف على الأبراج العالية.

فلا قيمة للبقاء في الدنيا إن لم ترتبط قلوبنا بهذه الغاية السامية، فإذا جعل الإنسان غايته مسألة إعلاء كلمة الله وأن تكون الروح المحمّدية روحًا للإنسانية، فلا غضاضة من بقائه في الدنيا إن كان يسعى لتعريف القلوب بروح سيد الأنام ﷺ حتى وإن عمّر ألفًا إلا خمسين عامًا مثل سيدنا نوح عليه السلام، أما الحياة التي تمضي دون أن تكتنفها مثل هذه الغاية السامية فما هي إلا خداع يتوازي مع الإفلاس.

## واحسرتاه! لقد خدعنا، خدعنا بالتصفيق والأبهة والعظمة!

الحقيقة مع الأسف أن هناك كثيرًا من المخدوعين في هذه الدنيا، وفي الواقع لا يمكن التوصل إلى قرار صائب في شيء ما إلا بعد تحديد قدر الأهمية التي نوليها له، فإذا ما وصل الإنسان إلى النهاية قد لا يستطيع أن يجد ما يأمله، وحينذاك يقول كالشاعر الصوفي الشيخ "غالب":

وصلنا إلى ديار الحبيب فلم نلقه

ودخلنا الجنة ولكن هيهات أن نلقاه

بمعنى أن الإنسان الذي لا يستطيع أن يحافظ على التوازن بين الدنيا والعقبى يظل في تعبٍ دائم وهو يظن أنه يعمل من أجل الدين، فإذا ما ارتحل إلى الآخرة لم يستطع أن يلقي أو يرى الحبيب سبحانه الذي تلتفت حوله كل القلوب.

قد يخدع الإنسان بالأعمال الخيرة التي يقوم بها، بسبب أنها أعمالٌ يشوبها الرياء والسمعة والعجب والفخر وحبّ التقدير والتهليل، وبذلك يُحيل الإنسان أعماله الإيجابية التي بذلها طوال عمره إلى أعمال سلبية، يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديث له:

"رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ"<sup>(٣٠)</sup>.

ومن الممكن ضربُ أمثلةٍ متعدّدةٍ ومتنوّعةٍ، فيمكنكم أن تقولوا مثلاً: ثمّة كثيرون يسعون في طريق الحقّ حتى إنهم لو انتقلوا إلى الدار الآخرة ما استطاعوا أن يروا الحبيب؛ لأن هؤلاء قد دتسوا الأعمال التي يقومون

بها على متن هذا الطريق؛ فلم يراعوا آداب السير، وانحرفوا عن الجادة، وأخذوا يتعثرون، ولا شك أن نهاية هؤلاء الذين تعثروا في هذه الدار وضلّوا الطريق هي السقوط والترديّ كلياً - حفظنا الله - يقول تعالى:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٨﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿٤٧﴾﴾ (سورة القمر: ٤٧/٥٤-٤٨).

وهنا يشير ربنا ﷺ بهذا البيان الإلهي إلى أن الذين يعيشون حياتهم زاحفين لاهئين وراء شهواتهم وملذاتهم سيُسحبون في النار على وجوههم.

أجل، لقد وقع هؤلاء أسرى لأهوائهم، وصاروا عبيداً لأنفسهم، ومن ثمّ كان مآلهم الانكباب على وجوههم، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، يقول تعالى حكايةً عن مثل هؤلاء:

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٧٤﴾﴾ (سورة المُنذِر: ٧٤/٤٨).

وحتى لا تتعرّض لمثل هذه العاقبة الوخيمة في الآخرة علينا أن نراقب الله تعالى في كلّ أمور حياتنا، فلا بد أن يتقرّب العبد بشيءٍ من ربّه حتى يُقبل ربّه عليه، فلو امتلأت حياة الإنسان بمشاعر التوقير والتعظيم والتبجيل لله ﷻ في هذه الدنيا أمده الله في الآخرة بيد العناية الإلهية، وخلصه من الذل والهوان وهو في أشدّ الأزمت.

ومن ثمّ يجب أن نملاً حياتنا بالأعمال الصالحة بقدر الاستطاعة، وأن نجبُر أوجه النقص والقصور عندنا بصدق النية وصفائها؛ لأنّ في النية فيوضات وبركات خفيّة تُفيد في جبر أوجه النقص والقصور، وإنّ قطرةً واحدةً منها لتملأ البحار والأنهار، من أجل ذلك على الإنسان أن يوسّع

من دائرة نواياه، فمثلاً عليه أن يقول: "اللهم زوّدي بالفرص والإمكانات حتى يتسنى لي أن أغيّر مدار الكرة الأرضية؛ فيُعرف الاسمّ الجليل المحمّدي في شتّى أصقاع الأرض"؛ لأن قطرةً من النية في هذه المسألة قد يُجازي الله تعالى عليها ثوابًا يعادل البحار؛ بمعنى أن الإنسان إن أنهك نفسه في التفكير حتى كاد رأسه أن ينفجر من أجل إنجاز الأعمال التي لا بدّ من إنجازها، ثم وصل إلى درجة تتجاوز طاقته وقدراته استشفح بيته قائلاً: "اللهم إني عازمٌ على إنجاز هذا الأمر، ولكن طاقتي إلى هذا الحدّ، ولا أستطيع أن أصل بالأمر إلى أبعد من هذا"، حينذاك يقول له من لا حدّ لقدرته ولا نهاية لمشيئته وإرادته ﷻ: "عبي، سأصل بالأمر إلى ما لا تستطيع أن تصل إليه".

### مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا لَمْ يَنْلُ الْآخِرَةَ!

ولنا أن نربط هذه المسألة بما قاله الشيخ محمد لطفي أفندي رحمته:

ألا يحبّ المولى من أحبه؟

ألا يرضى عمّن هرول لنيل مرضاته؟

لو وقفت له على الباب.. وفديته بالروح والنفس والأحباب...

وعملت بأمره، أما يجزل لك الثواب؟

لو خررت خريز الماء، وانهمرت عينك مثل أيوب بالدموع والبكاء...

واكتوى قلبك بالعشق والابتلاء، أما يُقبل عليك رب الأرض والسماء؟

فهذا الهم دواء للهم، والصمد سبحانه يحب من يهتم

ألم يدركك فضل الواحد الأحد.. فهو بلسم لكلّ مغموم مهتم؟

هذه هي خلاصة القول.

إنَّ شعَرَ العبدِ بالمعيةِ في الدنيا روحياً وحسبياً وفكرياً حظي بالمعية الحقيقية في الآخرة، ومَن يعيشون هنا معاً يصلون إلى المعية هنالك، ولذا تمسكوا دائماً بهذه المعية وتعلقوا بها، وادعوا الله دائماً في توسلٍ وتضرعٍ: "اللهم معيتك، اللهم معية حبيبك ﷺ".

أشغلوا أنفسكم بذلك ليلَ نهار، وألهجوا دائماً بذكره؛ حتى تحظوا بهذه المعية عندما ترحلون إلى الآخرة، فلو دخلتم في معيته هنا انهالت عليكم المفاجآت هناك، حتى تنسوا هذه الدنيا الكاذبة الخادعة التي خلفتموها وراءكم، ولكن يا للأسف! اضطربت العقول في أيامنا وتشتت المشاعر والأفكار، وأصبح الناس يفكرون في الدنيا أكثر من الحياة الأبدية والذات الأبدية.

ولو اطلعتهم على كلام الصالحين لأدرتكم قدر معاناتهم وشكواهم من الدنيا، فمثلاً يقول "يونس أمره":

عجزتُ أمام نفسي الظالمة

فهي لا تشبع من ملذات الدنيا الغاشمة

والغفلة غشيت بصري

والعمُر يمضي والنفس لا تدري

فهل تَعْتَبِرُ يا إلهي "مسلمًا"

مَن يتجلبب بالغفلة ويتبع هوى نفسه مسلمًا؟

يكسب ثم يكسب ثم يضيِّعه سُدى

وتأبى نفسه أن ينفق قرشًا منه في سبيل الهدى

إلهي، أرح عن عيني الغفلة والضباب

ولا تسود وجهي يوم تسود الوجوه وترجف الألباب

يقول يونس؛ أصغوا إلى حديثي ولو كان عجبًا

من أحب الدنيا لم ينل من الآخرة نصيبًا

أجل، لا بد أن نكون على أهبة الاستعداد حتى نرى الحبيب ونلقاه،  
لن يضيع هناك ألبتة أيُّ كتابٍ عشقٍ سطرَ تموه هنا، وعندما ترحلون إلى  
هناك يقولون لكم: ها هي الخطابات التي وصلتنا منكم، كما قال الشاعر  
"نسيمي":

جاءني من الحق تعالى النداء

أن أقبل أيها العاشق فأنت محرّم تستحقّ الثناء

وهذا مقام المحارم الأقرباء

وقد وجدناك أهلاً للبرّ والوفاء

فهل هناك قيمةٌ لأيّ مدحٍ وثناءٍ دنيويٍ إلى جانب هذا المدح والثناء  
الذي يُخاطب به الإنسان في الآخرة: لقد فُتحت القسطنطينية على يد  
السلطان الفاتح الذي "أفديه بروحي وإن كان لي ألف روح"، ولكن  
ما قيمة هذا الفتح بجانب السلطنة التي يهبها الله في الآخرة؟ إن هذا كله  
لا يعادل حتى الذرات بجانب الشمس.

الخلاصة: أنّ مَنْ يكسب الدنيا برأسماله هنا لن يبقى له رأسمالٌ  
يكسب به الآخرة، وسيذهب إلى هناك خالي الوفاض، ولكن مَنْ استغلَّ  
إمكانياته في سبيل الفوز بالآخرة انهالت عليه كثيرٌ من المفاجآت عندما  
يرتحلُ إليها.

بعدها أشار الحق ﷻ إلى طبيعة الإنسان في سورة القيامة تحدّث عن

العاقبة التي سينالها كلا الفريقين في الآخرة، يقول تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٣﴾  
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٤﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٥﴾ تَتَّظَنُّونَ أَن يُمْسَلَٰكُم بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٦﴾﴾ (سورة القيامة:

٢٥-٢٠/٧٥).

ندعو الله رب العالمين أن يجعلنا من أصحاب الوجوه الناضرة في ذلك  
اليوم الرهيب!



## دعاء ذو أربعة أسس

سؤال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو فيقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتَّقَىٰ، وَالْعُفَاةَ وَالْغِنَى" (٣١)، فهلا توضّحون لنا هذه الأسس الأربعة الواردة في هذا الدعاء؟

الجواب: لا بدّ أن أتوّه بدايةً بأنّ كلّ هذه الأسس الواردة في الدعاء هي من الخصال العظيمة التي كان يتحلّى بها الأنبياء العظام ﷺ، بل يمكن أن يُقال إنها وصّف ملازمٌ لهم، لا ينفكّ عنهم، وبما أن الأنبياء يضطلعون في تصرّفاتهم وسلوكياتهم بمهمّة الإرشاد لكل المؤمنين؛ فعلى أبطال الإرشاد والتبليغ الذين نذروا أنفسهم للإنسانية وتبليغ الحقّ والحقيقة أن يتحركوا بما يتناسب مع هذه الخصال الجليلة، وأن يترجموا هذا الدعاء: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتَّقَىٰ، وَالْعُفَاةَ وَالْغِنَى" إلى أفعال وتصرفات، وينقلوا كلماته من مناطِ القولِ إلى الحالِ.

(٣١) صحيح مسلم، الذكر، ٧٢؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٧١، سنن ابن ماجه، الدعاء، ٢.

## ١- الهدى

والهدى هو أول الخصال التي سألتها سيّد الأنبياء ﷺ في هذا الدعاء، ويعني رؤية الصواب والشعور به، وبلوغه والثبات عليه؛ ومن هنا كان في غاية التناسب ورود "الهدى" كأول مطلب في هذا الدعاء؛ إذ من المتعذر أن يرى الإنسان الصواب، ويرمج حياته عليه دون هدى من الله، فإذا ما انتفى الهدى فلا مجال حينذاك للحديث عن التقوى والعفاف والغنى؛ لأنّ حصول الخصال الثلاث التي أعقبت "الهدى" وروداً في الدعاء إنما هي مترتبة عليه من ناحية ما.

فالهدى هو أساس ورأس كل أمر، ومصدره هو القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة التي تتناول أقوال وأفعال وأوصاف وتقريرات الرسول الأكرم ﷺ، يقول الله تعالى في الآية الثانية من سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢/٢)، وتلفت هذه الآية الانتباه إلى أنّ القرآن الكريم في حدّ ذاته مصدر هداية بالنسبة للمتقين، وبعدها عدّد ربنا ﷺ خصال المتقين في الآيتين الثالثة والرابعة من نفس السورة أكدّد ﷺ على الهداية مرة أخرى في الآية الخامسة فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة البقرة: ٥/٢)، كما ذكر سبحانه أن التقوى هي الشرط الأساس للاستفادة -بحقّ- من القرآن المعجز البيان، ونوّه بالعلاقة بين الهدى والتقى.

والهدى -كما أسلفْتُ- هو من الخصال التي فطر الله تعالى أنبياء عليها جبلة؛ لأن الله ﷻ أرسل هؤلاء العظماء بمهمة نبيلة، وحاشاه أن يسمح لهم بتصرفات يتدّرع بها الرُغن قليلو الحياء للنيل منهم في المستقبل؛ ومن ثمّ فإن ما قيل في حقّ سيدنا داود وسيدنا سليمان ﷺ

ما هو إلا فِزِيَّة أطلقها بنو إسرائيل، وكذلك ما قيل في حق سيدنا نوح وسيدنا هود عليهما السلام ما هو إلا محض كذب افتترته أقوامهم، كما أن الكلمات النابية التي استهدفت النبي صلى الله عليه وسلم وأخرجته عن دائرة الهداية ما هي إلا تعبير عن الوقاحة وسوء الأدب، وإنها لإِفْكٌ عظيمٌ يهتَرُّ له عرش الرحمن.

وبالمناسبة أريد هنا أن أكشف الستارَ عن الخطأ الذي وقع فيه بعض علماء السوء عند تعليقيهم على قول الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (سورة الضحى: ٧/٩٣)؛ حيث قالوا في معنى الآية: "وجدك الله تعالى على ضلالة فهداك"، وفسروا الضلالة هنا بأنها نقيض الهداية، وانطلاقاً من هذا ادّعوا افتراءً أن سيد العالمين سيدنا ومولانا محمداً صلى الله عليه وسلم كان يعيش -حاشا لله- في ضلالة حتى اللحظة التي أضيء فيها أفقه بنور النبوة، والحقيقة أن من ينسب مثل هذه الضلالة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من يعيش في الضلالة أصلاً، ندعو الله تعالى أن يهديه سواء السبيل.

لأن الله تعالى يقول في سورة النجم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (سورة النجم: ٢/٥٣)، فعَبَّرَ الحقُّ صلى الله عليه وسلم هنا عن انتفاء الضلال بصيغة الماضي فقال: "مَا ضَلَّ" للدلالة على أن حياته السَّيِّئَةَ كلها كانت تقوم على الهداية دائماً.

ورغم أن الآيتين السابقتين تبدوان وكأنهما متناقضتان ظاهراً فمن الممكن التوفيق والجمعُ بينهما بالنظر إلى المعاني المختلفة لكلمة "الضلالة"؛ فالضلالة تنطبقُ على معنى "الانحراف والحياد عن الطريق المستقيم"، وتنطبقُ أيضاً على معنى "عدم القدرة على اختيار الطريق الأسلم والأقوم بين عدة طرق، والوقوع في حيرة وتردد"؛ وعلى ذلك فحريٌّ بنا أن نأخذَ بالمعنى الثاني عند نسبة كلمة "الضلالة" إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛

فلقد عاش ﷺ قبل نبوته حالةً من التردد بين الطرق المختلفة، فبذل جهده لبلوغ الطريق المستقيم، وبذلك شكّل أرضيته مهمّةً لمستقبله حتى اللحظة التي بلغه فيها النور السماوي.

وقد يكون المقصود من قوله ﷺ "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" تلك الدهشة والحيرة والهيمنان الذي عاشه النبي ﷺ عند أول نزولٍ للوحي عليه؛ لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما فوجئَ بهذا الحدث السماوي انتابته صدمةٌ كبيرة، وربما لم يستطع أن يدرك ما الذي يجبُ عليه فعله، إلا أن ذا الفطنة الخارقة صلوات ربي وسلامه عليه أتجه إلى زوجته الرزينة الوقورة والدرّة الطّهورة أمّنا السيدة خديجة (رضي الله عنها)، وأفضى لها بما في صدره؛ فهذأت من روعه، وذكّرتَه بدايةً بسجاياه الطيبة، وعدّدت أخلاقه العالية، وطمأننته قائلةً: "كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (٣٢)، ثم انطلقت به حتى أتت ابن عمّها القسّ ورقة بن نوفل.

وانطلاقاً من هذا يمكننا أن نفهم الآية الكريمة الواردة في سورة "الضحى" على النحو التالي: "لقد كنت في فترةٍ ما لا تدري ما الجنة وما النار، وتلوى وتتألم وتجزع من أحوال الناس العامة، ولا تدري ماذا عساک أن تفعل لهم، ومع أنك كنت تشعر بشيءٍ ما بسبب المعاني التي استلهمتها ممّا بقي من دين إبراهيم (عليه السلام)؛ إلا أنك لم تكن في وضعٍ يسمح لك باتخاذ القرار القاطع في مسألة وضع كل شيءٍ في نصابه، فأرسل الله تعالى لك وحيه، وأزال عنك الحيرة والتردد، وأرشدك إلى الطريق المستقيم".

وثمة أمرٌ آخر لا بدّ من الوقوف عنده فيما يتعلق بصفة "الهدى" التي كان فُطِرَ عليها الأنبياء؛ وهو قولُ الله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (سورة الشورى: ٥٢/٤٢)، وهذا يعني أن رسول الله ﷺ كان على الهدى، ومرشدًا للآخرين إليه، وبما أن الأنبياء جميعهم كذلك فهم يسوقون الناس بمشيئة الله تعالى ويرشدونهم ويفتحون الطريق أمامهم، ويوصلونهم إلى الهداية، وإذا تناولنا هذا الأمر في إطار مفهوم الجهاد والإرشاد فإن هؤلاء الأنبياء قد أراحوا العوائق بين الناس وبين ربهم، وساهموا في وصال القلوب بالله، ولا جرم أن اتقاد جذوة النور الإلهي في قلوب المخاطبين هو من اختصاصات ربنا ﷺ.

## ٢- التقوى

والتقوى هي الخصلة الثانية التي سألتها الرسول الأكرم ﷺ في دعائه، وتعني اتقاء غضب الله سبحانه وعذابه بامتنال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، والواقع أن للتقوى مراتب كما للهدى، فدهليزها أداء الفرائض والواجبات واجتناب الكبائر والمحرمات، وبعد ذلك نخطو من باب التقوى إلى الداخل باجتنب الشبهات وعدم الاقتراب من دائرة المحرمات، ثم نصل في النهاية إلى التقوى الحقيقية بتزك ما لا بأس به؛ حذرًا مما به بأس، والتقوى بمعناها التام هي أداء أوامر الشريعة على الوجه الأكمل، ولكن علينا ألا ننسى أبدًا أنها تعني -إلى جانب ذلك- مراعاة القوانين التي وضعها الله تعالى في الكون والتي نسميها قوانين الشريعة الفطرية.

وعلى ذلك فإن استفادة المؤمن استفادة تامة من الكتاب والسنة الموصليين للهداية مرهونة بـ"تقوى" ترتقي إلى هذا المستوى، وعند النظر إلى الأمر من هذه الزاوية يتبين لنا أن الهداية والتقوى صنوان، وكما أن

الوصول إلى التقوى مرهونٌ بالهدى فإن الفهم الصحيح للمنهج الذي وضعه ربنا ﷺ ونبه ﷺ واستيعاب روحه وسموه وعظمته لا يتأتى إلا بالتعمق في التقوى.

### ٣- العفة

العفة المذكورة في الدعاء ثالثاً تعني أن يتوخى الإنسان الحذر والدقة من أجل حماية وصيانة شرفه، وغضّ بصره وضبط سمعه، وتحكّمه في كلامه بحيث لا يتحدث إلا إذا لزم، ولا يتسوّل أحداً، والخلاصة أن يتحرّك في دائرة الأدب والحياء في كلّ أحواله وأطواره؛ فإن عَفَّ الأفراد عَفَّ المجتمع، وإلا فإنّ مجتمعاً مكوّناً من خليطٍ من المذنبين والمخطئين تستحيل عليه العفة، وإذا فُقِدَتِ العفة من المجتمع شاعت فيه شتى أنواع المفاسد والمساوئ كجرائم السرقة والخطف والرشوة والكذب والنهب وما إلى ذلك، ويشرّع أولو المناصب الصغيرة في السرقة على قدر مستواهم، بينما يشرّع الكبار في السرقة والنهب بقدر أكبر؛ فيسرقون ويختلسون الأموال والثروات.

وقد وصف القرآن الكريم أبطال العفة بقول الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَافًا﴾ (سورة البقرة: ٢٧٣/٢)، أي وصفهم بأنهم حتى وإن جاعوا وطمئوا وتشردوا فإن هذا لا يقودهم إلى التسوّل والتكفّف، والحقّ أنهم جديرون بتقبيل الجباه والتبجيل والاحترام، ومع هذا فإن الإسلام أجاز لمن في مثل هذه الأحوال من الضيق والحاجة أن يطلبوا من غيرهم بقدر ما يقيمون به صلبهم فحسب.

### ٤- الغنى

الأمر الرابع الوارد في دعاء رسول الله ﷺ هو الغنى، وله معنيان اثنان؛ أولهما: غنى القلب والاستغناء عما سوى الله، أما ثانيهما: فهو الثراء والغنى المادّي بالكسب الحلال، ولا حرج في طلب الثاني منهما أيضًا؛ لأنّ كلّ نعمة من نعم الدنيا إنّ أحسنَ استخدامها قد تكون عنصرًا مهمًّا في تقوية ودعم الإيمان والعبادة والطاعة، غير أنه ينبغي أن نتوخى أعلى درجات الحذر عند طلب الغنى المادّي فليكن حلالًا صِرْفًا، ولتجنّب البخل عند أداء حقّ المال، ولا نسمح للقلب أن يتعلّق أو يتكالب بالمال والأموال أو عليهما، ولنذكر دائمًا أن المال والثروة لطفٌ ونعمة من الله، ويتحتّم علينا ألاّ نخذع بما في أيدينا من إمكانيات، فلا نفع بذات الحفرة التي وقع فيها قارون عندما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (سورة القصص: ٧٨/٢٨).

فإن رُوِيتْ هذه الأمور فلا حرج في طلب الثروة والمال من الحقّ تعالى، بالإضافة إلى ذلك فقد استجار سيد الأنبياء ﷺ واستعاذ بالله تعالى في بعض أدعيته من الفقر والجوع إلى جانب بعض الأمور الأخرى، ومن ذلك دُعاؤه ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ" (٣٣)؛ إذ إنّ من يتعرض لمثل هذه المواقف قد يشكو حاله ويتدمر منها، أو يقع في مستنقع التسوّل والشحاذة.

لذا فإنّ الإسلام لم يتبنّ موقفًا تحريميًا ولا رافضًا تجاه طلب الثراء والغنى المادي، ولكنّه نهى عن كنز الثروات، وادّخار المال والنقود من أجل الثراء والمستقبل الشخصي؛ إذ بين القرآن الكريم سوء عاقبة

من يكتزون المال ويمسكونه في أيديهم دون أن ينفقوا منه في سبيل الله فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة التوبة: ٣٤/٩). أجل، إن من يتخذون الخزائن ويكتزون فيها الثروات ويرابون في الأموال، بل ويتحينون الفرص فيتلاعبون بالاقتصاد حسبما يحلو لهم، ولا يخافون الله ولا يفكرون في الآخرة قد بشروا بعذاب أليم، والحق أن الإنسان بوسعه أن ينال البشارة الحقيقية إن أنفق ما في يده من ثروة ومال في مسارها الصحيح، إلا أن من لم يحسن استخدامها ولم يضعها في مكانها الصحيح فإنه يتسبب في تحوّل البشارة إلى عذاب أليم بالنسبة إليه.

وفي الآية الكريمة التي تلت الآية المذكورة أنفاً يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْصَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكُورٌ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ﴾ (سورة التوبة: ٣٥/٩) مبيّناً بالتفصيل شكل وصورة العذاب الذي ينتظرهم في جهنم.

أما المال والثروة التي تُدخّر لثنّفق في سبيل الله تعالى فلها شأن آخر. أجل، إن الثروة والمال الذي يُكتسب بنيات طيبة كأن يُستخدم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وإنشاء المدارس والجامعات في شتى بقاع الأرض، وإعلام الإنسانية بقيمتنا السامية فيمكن تقيمه بطريقة مختلفة، بل إنه ينبغي تحفيز الناس إلى هذا النوع من الغنى كي تتحقّق تلك الغايات السامية.

يمكن التوفيق والجمع بين الاستفادة من نعم الحق تعالى وبين العفة والاستغناء عما في أيدي الناس، وهذا التأليف من صميم الأوامر القرآنية؛ فمثلاً يُشار في قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا



تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿سورة القَصص: ٧٧/٢٨﴾ إلى الاهتمام بالدنيا والعناية بها بقدر ما يلزم فحسب إلى جانب الاهتمام بالآخرة والعناية بها وطلبها.

غير أن الأهم - إلى جانب كل هذه الأمور - هو غنى الروح والنفس؛ فقد عاش الأنبياء العظام يحملون ويُجسّدون شعور الاستغناء هذا دائماً، فلم يتشوّفوا إلى أجرٍ قطُّ في مقابل أدائهم وظيفته التبليغ التي اضطلعوا بها، ولم يسألوا الناس شيئاً قطُّ، وقد عانوا وتجشّموا كثيراً من المشاق والمضايقات من أجل إيصال رسائلهم إلى أقوامهم، لكنهم لم يطلبوا من أيّ شخص مقابلاً ولا مكافأة على ما فعلوه؛ لأنهم فوّضوا أمرهم كلّهُ إلى الله تعالى، وعلّقوا عليه الرجاء، ومن ذلك قولُ نبيِّ الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٠٩/٢٦)، وقولُ هود عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٢٧/٢٦)، وقولُ نبيِّ الله صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٤٥/٢٦)، فلقد استخدم الأنبياء مع أقوامهم أكثر المقومات تأثيراً وفعالية ألا وهو "الاستغناء"، لأن اتخاذ موقفٍ مثل هذا مقنّع تماماً بالنسبة للمخاطبين، وهكذا فإن عدم تشوّف الإنسان إلى أجرٍ دنيويٍّ في مقابل الواجب الذي يضطلع به، وعدم طلبه أيّ مقامٍ ولا منصبٍ دنيويٍّ وانتظاره الأجرَ والثوابَ والمكافأةَ من الله تعالى فحسب يُمثّل عمقاً آخر من أعماق الغنى (القلبي).

ومع هذا فإنه ينبغي للجميع أن يرضى بما قدره الحق تعالى له، وألا يطمع في الأمور المادية والمسائل الدنيوية، لأنه ربما يكون الفقير الذي قُدّر من قِبَلِ الله بحق بعض الأشخاص أفضل وأصلح لحالهم، ومن

يدري فربما لو امتلكوا ثروةً أو مالاً طائلاً لأكبَّهم سوءُ استخدامهم له في جهنّم على رؤوسهم؛ فيهوون فيها تماماً كما هوى قارون، لما في أنفسهم من ضعف أمام المال والثروة، لذا فحرّيّ بنا أن نُسلِّمَ ونرضى بالتقدير الإلهيِّ بحقّنا.

## دعاء لا تكتنفه الغفلة

سؤال: كيف نمزق حجاب الغفلة في الدعاء؟

الجواب: إنَّ من الأهميَّة بمكان بالنسبة لمن يتوجه إلى الله بالدعاء أن يكون لديه شعورٌ كاملٌ بأنه عندما يرفعُ أكفَّ الضراعة فإنَّما هو واقفٌ أمام الحضرة الإلهية، فتساب الكلمات من فيه وهو على وعي كاملٍ بها، وأن يتجنَّب اللغو واللهو؛ لأن رسول الله ﷺ يقول:

"وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَسْتَجِيبُ (وفي رواية: لَا يَقْبَلُ) دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَا" (٣٤).

وهنا ينبهنا رسول الله ﷺ إلى أن الغفلة واللاوعي يشكِّلان عقبةً حقيقيَّة أمامَ قبول الدعاء، وهذا يدعونا إلى أن نتعرف جيِّداً على أهمية الدعاء في الدين أوَّلاً حتى لا يذهب الإلف والتعود بطراوة الدعاء وحلاوته، وألا يفقد كلامنا بريقه وقيمتَه.

## الدعاء مخ العبادة

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ"<sup>(٣٥)</sup>.

فكما أن المخ له أهمية حياتية بالنسبة لبنية الإنسان، وقد يتعرض الإنسان لشللٍ ويصبح طريح الفراش أو يموت إن أصاب مخه خللٌ أو عطبٌ؛ فكذلك الدعاء يحافظ على الصلة بين العباد وربهم، وبه فحسب؛ تتميز العبادة الحقيقية عن غيرها.

وفي الوقت ذاته فإن الدعاء يعني التوجه إلى الله تعالى بطلباتٍ تفوق الأسباب، وهذا له أهمية كبيرة في الوصول إلى الشعور بالتوحيد الحقيقي، لأن الإنسان عندما يرفع يديه بالدعاء ويتوجه إلى الله تزول وتتلاشى كل الأسباب والحجُب بينه وبين ربه ﷻ، فالأسباب هي حجابُ عزته تعالى وعظمته، ولكن الإنسان الذي يدعو يتجاوز كل هذه الحجب، ويتلمس مقبض باب العزيز الجبار مباشرةً، ويسأله -وحده دون سواه- ما يشاء، وبذلك يخلق في أفق التوحيد الخالص.

ومن ثم فعلى المؤمن إذا ما تخلّى عن الأسباب وشعر بامثاله في حضرة مسبب الأسباب جلّ شأنه أن يجعل قلبه يُقَرُّ متفاعلاً مع ما ينطلق به لسانه، وأن يعبر القلب عن كل كلمة تخرج من فيه؛ وتعبير آخر: لا بدّ ألا يكون ثمة تناقض بين القلب واللسان، وأن يُفكّر القلب في المعنى الذي يعبرُ عنه اللسان، فمثلاً إذا قال العبد: "اللهم بلغني رضوانك، وخصني برضاك!" فينبغي له أن يضبط إيقاع قلبه على سُلّم هذه الكلمات، لينبض القلب بها، وإياكم ازدواجية القلب واللسان وأنتم تفقون في حضرة الحنان المنان، وليس هذا في الدعاء فقط بل على المؤمن أن

يتحرّك مقروناً بالوعي في كلّ العبادات، فمثلاً على المصلي أن يصطحب النية التي هي "قصد القلب" عند شروعه في الصلاة، وأن يجعل من هذه العبادة عملاً قليلاً بقدر المستطاع؛ لأن الأعمال التي يقوم بها العبد تُزَهِّن معانيها وقيمتها عند الله على ما يُقدِّمه صاحبها من ولاءٍ وإذعانٍ و يقينٍ قلبيٍّ معها.

### الإيمان والدعاء

ومثل هذا التعمّق في الشعور منوطٌ -في الدعاء وغيره- برسوخ الإيمان بالله بدايةً، فيقدّر إيمان العبد بربه يكون قدرٌ وماهيّة الدعاء الذي يدعوه به، أما من يعيش مشكلةً في إيمانه وصعفاً وضحالةً في يقينه فلا يمكن أن يصل ألبتة إلى تكامل بين القلب واللسان، ومن هنا يمكن القول: إن لم يُخلص الإنسان في دعائه ولم يشعُر بفورانٍ وهيجانٍ الدعاء في قلبه فهذا يعني أنه يعيش بالفعل مشكلةً في إيمانه أولاً ثم في يقينه ومعرفته ثانياً، والأُنكى من ذلك أن الإنسان إن لم يُلقَ بالألأمواج الكفر العاتية، ولم ينزعج ويتبرّم من ضلال الناس وطغيانهم، ولم يعبأ بإيمان هؤلاء الناس بنفس القدر الذي يوليه لأن يكون عنده عسّ وأبناء، ولم يرفع يديه بالدعاء قائلاً: "اللهم افتح واشرح صدور كلّ الناس على وجه البسيطة للإسلام، وإن لزم الأمر فأزهق روعي على أن تُدخل الإيمان إلى قلوبهم؛" فهذا يعني أن ذلك الإنسان يعاني من مشكلةٍ إيمانيةٍ حقيقية، ومثل هذا الإنسان يحتاج أولاً، وبشكلٍ ضروري، إلى إعادة تأهيلٍ كبيرةٍ في مسألة الأركان الإيمانية.

والواقع أننا جميعاً في حاجةٍ إلى إعادة تأهيل كهذه، فكما يقول بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله: "إن أعظم خطرٍ على المسلمين في هذا الزمان

هو فساد القلوب وتزعزع الإيمان بضلالٍ قادمٍ من الفلسفة والعلوم<sup>(٣٦)</sup>،  
 "وإن كلَّ ما تكسبه أيدينا من إثم، وكلَّ ما يُلجُجُ إلى أذهاننا من شبهةٍ يشقُّ  
 جروحًا غائرةً في قلوبنا، ويفجر قروحًا داميةً في أرواحنا"<sup>(٣٧)</sup>.

أجل، كما أنَّ التحقيقَ في الإيمان قد انهزَّ كَلِيَّةً في عصرنا؛ عصرِ  
 النفاق والجهل والأنانية؛ فكَذَلِكَ قد تفكَّكَتْ روابطُ التقليد والتأسي،  
 إنَّ الناسَ قديمًا كانوا ينظرون إلى شيوخهم ومرشديهم ويقلدونهم في  
 أفعالهم وتصرفاتهم، وبذلك يدخلون حظيرة الإيمان وإنَّ كان تقليدًا على  
 الأقل، فيحفظون أنفسهم وفقًا لمقولة: "مَنْ قَلَّدَ عَالِمًا لَقِيَ اللَّهَ سَالِمًا"، لكن  
 معظم الناس في يومنا هذا - مع الأسف - قد حُرِّمُوا مثل هذه الإمكانية.

والحقُّ أنَّ الإنسان إنَّ أصغى إلى نفسه، وتدبَّرَ الأحداث التي تجري  
 حوله، وتأملها جيِّدًا، فسيشعر بالله ويحسَّ به في كلِّ شيء، كما يقول  
 الشاعر التركي "جناب شهاب الدين":

إلهي أنت موجود

موجودٌ دائمًا وأبدًا

موجودٌ في عقلي وخيالي وشعوري

فلو أنَّ الإنسان شاهدَ جمالَ الله تعالى في كلِّ المراتب فقد يُهزُّوْلُ أحيانًا  
 إلى الشجرة مثلًا لأنها تَجَلَّلَتْ من تجلِّيات أسماء الله، ويقبَّلها، ويحتضن  
 العشب، ويكحِّل عينيه بالتراب، وقد يتوجه إلى الشمس التي هي ظلُّ  
 كثيف لاسمه تعالى "النور"، ويعيش من ناحية ما كالمجنون، وإنساناً على  
 هذه الشاكلة يتحلَّى بالإحسان أمام الله، ويتعامل وكأنه يرى الله تعالى،  
 ويتحرَّك موقنًا بأنَّ الله تعالى يراقبه على الدوام؛ وبهذه المنهجية دون

(٣٦) بدیع الزمان سعید النورسی: اللّمعات، اللّعة السادسة عشرة، السّؤال الثاني المثير، ص ١٤٢.

(٣٧) بدیع الزمان سعید النورسی: اللّمعات، اللّعة الثانية، النّکة الأولى، ص ١١.

سواها يستطيع أن يصل إلى أفق اليقين، فإن رفع يديه بالدعاء تغلب على الإلف والغفلة وتجاوز الأسباب ممزقاً حُجُبِهَا، وتوسل وتضرع إلى الله مع شعوره اليقيني بأن الله تعالى يراه.

### الهيجان الوجداني وصوت الرَّجَفَات

أجل، من المهم جداً أن تتخلل الطمأنينة والخضوع والخشوع في الدعاء شعور الإحسان، لدرجة أنه ينبغي للإنسان إذ يتضرع إلى الله تعالى بالدعاء؛ أن يتوجه بكَلِّهِ، ويغيب عن وعيه، ولقد شاهدتُ كُلاً من الشخصيتين الفاضلتين: "طاهر مؤتلو" و"أحمد فيضي أفندي" من طلاب فضيلة الأستاذ بديع الزمان؛ فكانا - وهما يدعوان الله تعالى - يُعبّران عن خلجاتهما الوجدانية، ويتلوّيان ويغيبان عن نفسيهما تماماً، والواقع أنهما كانا يتمثلان السلوك الذي تعلّماه من أستاذيهما.

وهنا أريد أن ألفت انتباهكم إلى أمرٍ ربما يُعتبر مشجّباً أَعْدَارٍ بالنسبة لكم، ألا وهو أننا - للأسف - لم نرَ لا في التكايا ولا في المدارس الشرعية ولا في الجوامع أيضاً أناساً يؤدّون الصلاة حقّ الأداء، ويدعون بإخلاص، ويتوجهون إلى الحقّ من صميم القلب، لم يكن لنا في هذا الشأن من يتقدموننا، ويفتحون آفاقنا، ويرشدوننا بحيث يُظهرون لنا وجه الحقيقة المضيء عبر تفرّج الباب عن التضرّع والخشوع الحقّ، فظُلَّ كلُّ واحد منّا أمياً حيث هو.

ولكنه رغم كلِّ ما سبق فلا تَسْتَقْبِلُوا تحقيق الإيمان الحقيقي، ولا تحسّبوه مستحيل المنال، يا حبذا لو أنكم تغتمّون فتتوجّهون إليه في قلق واضطراب؛ حينها تشهدون ما في تقدير الله من جمال، وتشاهدون آية أبوابٍ من المفاجآت السارة يفتحها لكم.

إن كان الأمر كذلك فَهَلُمَّ بنا نُحْيِ الليل فنؤدِّي صلاة الحاجة لينتشفع ما بداخلنا من غشاوات، وتُحَقِّقَ العبوديةَ في أنفسنا انشراحاً فنتعمق في الإيمان؛ ثم نبتهل إلى الله قائلين: "اللهم أسألك أن تبليغني هذه الليلة مرتبة الإحسان، لا أسألك شيئاً سواها؛ لا كرامةً، ولا إكراماً، ولا هذا ولا ذاك، كُلِّي طَلَبٌ ورجاءٌ أن أوثقَ صِلَتِي بك، وأن أحيا مُشْبِعاً بمعرفتك، فلا غاية لي مِن دُعَائِي إِلَّاكَ، فَأَعْمِ عيني عما سواكَ"، ولنتنبه حين نطلب هذا إلى أن تحمِلَ كُلُّ كلمةٍ تنفوه بها سمةً هذا الشعور وصفته، ولتُلحَّ في طلب هذا من الله تعالى كلَّ ليلةٍ، فلنحاول أن ننهضَ ليلةً أو ليلتين أو أكثر، ولتتضرع إلى الله تعالى بلهفة وحرقة، وإني هنا لا أريد أن أسأل: "هل بينكم من قام الليل أسبوعاً كاملاً في عمره يطلب من الله المعرفة والمحبة والعشق والاشتياق، ويصلي صلاة الحاجة ثم يرجو مثل هذا الرجاء؟" لا أريد أن أسأل هذا بأسلوبٍ يوحي بأنني أتهمكم، لأنني على قناعة بأنَّ عددَ من سيجيبون عن سؤالٍ كهذا بالإيجاب لن يكون كثيراً جداً، وهذا أيضاً يُظهِرُ مدى اهتمامنا بهذه المسألة، فينبغي ألا ننسى أن "مَنْ طَلَبَ وَجِدَّ وَجَدَّ".

أحياناً أنظر عن كَتَبٍ إلى أحوال الطائفين بالكعبة والواقفين على صعيد عرفات والمنتشرين في مرابع المزدلفة ومنى من أجل الحج، وأبحث عن هذا الشعور فيهم، وأنفحصهم؛ أوجد بينهم من يضرع إلى الله تعالى بلهفةٍ وحرقةٍ، ومن يجيش ويرغي ويزبدُ أم لا؟! فلو رَفَعَ أَلْفُ إنسان ممن هناك أكفَ الضراعة بصدقٍ وإخلاصٍ وَعَلَّتْ الأدعيةُ والرجاءاتُ الساميةُ إلى الحقِّ من الأفواه بقدر ذلك الإخلاص؛ فإنه حاشا لله أن يردَّ دعاء اكتسب الكليّة والجماعية كهذا، بل إن اعتقادي في هذا الموضوع هو أنه: لو رفع الثلاثة ملايين مسلم الموجودون في هذا الموقف أكتفهم ودعوا: "اللهم



غَيَّرَ هذه الأَرْضَ! "تَبَدَّلَتِ الأَرْضُ التي تحت أقدامهم في الحال غَيْرَ الأَرْضِ ولصارت عالماً مختلفاً، ولكن هيهات هيهات! فالعالم الإسلامي لم يعيش مثل ما يعيشه اليوم من تشرذمٍ وتمزقٍ وتشتتٍ منذ فجره وحتى اليوم، وهذا يعني أنَّ الناس لا يستطيعون الإحساس بما حلَّ بهم من ذلَّةٍ وبما فُجِعوا به من مصائبٍ رغم ضخامتها، ولو أنهم أَحَسُّوا بذلك لاجتهدوا ولو بالدعاء على الأقل من أجل الخلاص من هذا الوضع الذي هم فيه، وكما أن الناس لا يشعرون بهذه المحنة فإنهم لا يشعرون بقلقٍ من ضربات موجات الكفر المحيطة بهم، ولذا فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى دعاء كَلِّبِي جماعتي.

وختاماً أقول: إنَّه ما لم يتحقَّق الوصول سريعاً إلى أفقِ قلقٍ واضطرابٍ على هذا النحو المنشود وجب على الإنسان أن يُجِبِّرَ نفسه، ويجتهد ويسعى اجتهاداً وسعيًا حقيقيًّا في هذا السبيل، أما دعاؤه رافعاً يديه على نحو: "إن شئت أعطنا وإلا فلا"، فهذا دلالة على الوقاحة وسوء الأدب مع الله، في حين أنَّ الإنسان ينبغي له إذ يدعو أن يكون كالشحاذ؛ فيقول بلسان حاله ومقاله: "أرجوك يا الله، لقد وقفت ببابك، أتوسل إليك، إنني أرجو هذا! اللهم مُنِّ عليّ والطُف بي، اللهم أمتني، ولكن تقبل دعائي!".

أجل، على المؤمن أن يطمح إلى القِمَمِ الساميات، وأن يتطعَّ إليها دائماً وأبداً، وأن يُعَبِّرَ بإخلاصٍ عن رغباته هذه، عسى أن يُدرِكه لطف الله فَيُؤمِّنَ عليه بالإجابة؛ ذلك أنَّ الإنسان يحظى برعاية الله بقدر توجُّهه إليه تعالى، وبمراقبة الله له بقدر مراقبته إياه تعالى.



## المعنى الحقيقي للمسكنة

سؤال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: "اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِّتْنِي مِسْكِينًا، وَأَحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ"<sup>(٣٨)</sup>، فكيف نفهم هذا الدعاء النبوي؟ وما الدروس المستفادة منه؟

الجواب: المسكين كلمة مشتقة من الجذر "سَكَنَ"، وتعني لغةً: الإنسان الذي استسلم للراحة والخمول، وتوقفت حركته، فلم يعد يكسب أو ينتج، وشرعاً: ذاك الذي لا مال له، يفترش الأرض ويلتحف السماء؛ ومن ثمّ فالمسكين من الناحية المادية أسوأ حالاً من الفقير؛ لأن الفقير هو الذي لا يملك من المال ما يبلغ نصاب الزكاة (المقدر بحوالي ثمانين غراماً من الذهب)، بمعنى أن لديه من المال قدرًا قليلاً، أما المسكين فهو لا يملك حتى هذا القدر القليل، وعلى ذلك فالمسكين هو الذي يقبل الزكاة والصدقة، ولا دخل له سوى المعونات من الآخرين.

(٣٨) سنن الترمذي، الزهد، ٣٧؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٧.

### المسكنة المذمومة الواجب اجتنابها

لم يكن النبي ﷺ يرضى أبداً بالركود والخمول، وإهمال العمل، أو أن يكون عالمةً على أحد، وكيف لا وهو الذي شَنَّ حرباً ضروساً على التسوّل، وذمه في أحاديث كثيرة، وحذّر أمته منه! فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: "أما في بيتك شيء؟" قال: بلى، جِلس نلبس بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضُهُ، وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: "أَتَيْتَنِي بِهِمَا"، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: "مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟" قَالَ رَجُلٌ: أَنَا، أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: "مَنْ يَزِيدُ عَلَي دِرْهَمٍ" مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذَهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: "اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قُدُومًا فَأَتِنِي بِهِ"، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: "أَذْهَبْ فَاحْتَطَبْ وَبِعْ، وَلَا أَرَيْتَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا"، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطَبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا تَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْطَعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ" (٣٩).

وفي هذا الصدد يقول النبي الأكرم ﷺ أيضاً: "الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى" (٤٠).

وهنا استخدم ﷺ أسلوب الكناية، مشيراً إلى أن اليد التي تعطي خير من اليد التي تأخذ، وكأنه يقول محفّراً المؤمنين على أن تكون أيديهم هي العليا:

(٣٩) سنن أبي داود، الزكاة، ٢٦؛ سنن ابن ماجه، التجارات، ٢٥.  
(٤٠) صحيح البخاري، الزكاة، ١٨؛ صحيح مسلم، الزكاة، ٩٤، ٩٧.

"لا تقللوا من كرامتكم وعزّتكم الإنسانية بالتزلف والتودّد إلى الآخرين، وما دتمتم تمتلكون يداً تعمل ورجلاً تمشي فاعملوا على تأمين معيشتكم بأنفسكم، ولا تكونوا عالّةً على أحد"، ومع هذا فقد أجاز الإسلام التسوّل عند الضرورة، ويزوّل الجوازُ بزوالِ الضرورة؛ مثل الجوع والعطش، فيجوز التكلّفُ بالقدرِ الذي يدفع عن الإنسانِ الضررَ والهلاكَ، وما سوى ذلك فلا، كما أن القرآن الكريم أباح أكلَ لحم الخنزيرِ لمن وقع في خطرٍ محقّق، ولكن بالقدر الذي يحفظ به حياته ليس إلّا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة البقرة: ١٧٣/٢)، فانتهى الإثم عن المضطرّ على قدرِ ضرورته فقط.

وقد استوعب السلف ﷺ هذا السرّ الوارد في الحديث الشريف، فأوصوا بصيانة كرامة الفقير، بأن يجعل المعطي يده أسفل يد الفقير عند إعطائه الصدقة أو الزكاة، ولقد لعبت "أحجار الصدقة" التي ظهرت في عهد الدولة العثمانية دوراً مهماً في الحفاظ على عزّة وكرامة الفقراء؛ حيث كان الأغنياء يضعون صدقاتهم في هذه الأحجار، ثم يأتي الفقير ويأخذ قدرَ احتياجه منها فقط؛ مما يدلّ على نقاء السريرة وصفاء القلب، وشعور التعاون والتضامن بين أفراد المجتمع العثماني آنذاك، بل يمكن أن يقال إن ذلك المجتمع كان يشبه الملائكة في السماء، فها نحن الآن رغم وجود كمّ هائلٍ من رجال الشرطة والأمن فإننا لم نلمس -مع الأسف- مثل هذا الجوّ من الأمان الذي كان متوقّفاً في تلك الأيام؛ حيث لم يعد هناك رادعٌ قلبيّ، ولم تعد الآخرة محورَ اهتمام الناس، كما أن الشعور بالمحاسبة قد قُتل في نفوس الناس، والحقُّ أنّ الذي مات هو قلبُ الإنسان وضميره.

### المسكنة الممدوحة، ورغبة الرسول في أن يكون عبداً رسولاً

في ضوء ما سبق يتبين لنا أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يسأل الله تعالى المسكنة التي تعني سؤال الناس ومدّ اليد إليهم، وإنما المقصود بالمسكنة هنا هو العيش المتواضع، أو الشعور بالعجز والفقر إلى الله، ولقد عرف الأستاذ النورسي (رحمته) ذلك الفقر الذي جعله أساساً لدعوته بأنه إدراك الإنسان أنه لا يملك شيئاً في الحقيقة، والشعور بالحاجة إلى الله تعالى، وصاحب هذا الشعور العظيم يلوذ إلى حماية الله تعالى وحفظه وكلاءته قائلاً: "يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث أضلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين" (٤١).

لقد كان سيد الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه يرجو أن يحيا بهذه المشاعر، ويرحل بها إلى أفق روحه، وأن يحشر مع هؤلاء المساكين الذين يلجؤون إلى الله دائماً، ويحلّقون في الآخرة بجناحي العجز والفقر، وبعبارة أخرى: إن النبي ﷺ سيكون مرشداً ورائداً لأصحاب هذا الشعور في الآخرة أيضاً؛ لأنه عاش طوال حياته كواحد من الناس، ولم يتخلّ قط عن مَحْوِهِ وتواضعه، فعن أمنا عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: "كَانَ يَأْتِي عَلَيْنَا الشَّهْرُ مَا نُوقِدُ فِيهِ نَارًا، إِنَّمَا هُوَ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنْ نُؤْتَى بِاللُّحِيمِ" (٤٢)، ومن يدري ربما النبي ﷺ كانت تساوره -في وقت ما- بعض الأفكار حول مسؤوليته تجاه أهله.

لقد جَلَسَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مَلَكٌ يَنْزِلُ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: هَذَا الْمَلَكُ مَا نَزَلَ مُنْذُ خَلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ:

(٤١) النسائي: السنن الكبرى، ٢١٢/٩؛ الحاكم: المستدرک، ٧٣٠/١؛ البيهقي: شعب الإيمان، ٢١٢/٢.

(٤٢) صحيح البخاري، الهبة، ١، الرقاق، ٤١٧؛ صحيح مسلم، الزهد، ٢٦-٢٨.

يَا مُحَمَّدُ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ أَمَلَكًا جَعَلَكَ لَهُمْ أُمَّ عَبْدًا رَسُولًا؟ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ﷺ: "لَا بَلْ عَبْدًا رَسُولًا"<sup>(٤٣)</sup>.

لقد عاش النبي ﷺ فقيرًا، وعندما رحل إلى أفق روحه لم يخلف مالا يُحاسب عليه في الآخرة؛ فقد أعطى نعم الله حقها، وأنفق كل ماله في سبيل الحق ﷻ، فسار إلى الديوان المقدس أبيض الوجه ناصع الجبين طاهرًا نقيًا.

### صرح العفة وأبطالها

ومع هذا لم يركن النبي ﷺ للدعة والخمول، ولم يشك لغير خالقه ما تعرّض له من أزمات، ولم يكن عائلةً على غيره، وما استعطى أحدًا، ولم يكن يقبل الصدقة والزكاة أبدًا؛ حتى إنه قد حرّم الصدقة على نفسه وآل بيته<sup>(٤٤)</sup>، وإذا ما جاءت هديّة وزعها على الآخرين<sup>(٤٥)</sup>، حتى إنه قبل أن يرتحل إلى أفق روحه اشترى طعامًا بأجلٍ من يهوديٍّ؛ حتى يفي بحاجيات أهله، ورهن درعه المبارك عوضًا عنه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: "تُؤَفِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ"<sup>(٤٦)</sup>، ومن المحتمل أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكن لديهم علم بذلك، فلو علموا لفعلوا ما استوجبه هذا الأمر.

كان النبي ﷺ أجودَ من الريح المرسلة، يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر، أنفق كل ماله في سبيل الله، وعاش -بمحض إرادته- حياةً أقلَّ من درجة أيِّ فقير من أمته، ومع ذلك لم يمدّ يده إلى أحدٍ مستجديًا، بل لم يقم بأيِّ إشارةٍ تدلّ على ذلك؛ إذ كانت المسكنة التي يشدها هي

(٤٣) أبو يعلى: المسند، ٤٩١/١٠؛ مسند الإمام أحمد، ٧٧/١٢؛ صحيح ابن حبان، ٢٨٠/١٤.

(٤٤) صحيح البخاري، الزكاة، ٦٠، الجهاد، ١٨٨؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٦٦.

(٤٥) صحيح البخاري، الزكاة، ٥٠، الرقاق، ٢٠؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٢٤، الفضائل، ٥٠.

(٤٦) صحيح البخاري، الجهاد، ٨٩؛ سنن الترمذي، البيوع، ٧؛ سنن ابن ماجه، الرهون، ١.

تفضيل الحياة البسيطة العادية مع إظهار مزيد من الكرم والمروءة، ولأنه صلوات ربي وسلامه عليه صرَّح العَفَّة الشامخ لم يكن يتشَوَّف لأيِّ شيءٍ من الآخرين.

وكما أنه ﷺ كان رمزاً فريداً في العَفَّة؛ فقد عاش ساداتنا الصحابة الكرام الذين اقتفوا أثره خطوةً بخطوة حياتهم أبطالاً للعَفَّة، ولقد بجَّل القرآن الكريم وامتدح أبطال الإسلام الأول الذين لم يتكفَّفوا الناس ولم يسألوهم شيئاً، ولم ينظروا إلى ما في أيدي غيرهم ولم يُسَلِّموا أنفسهم للتسول رغم ما عانوه من خصاصةٍ وحاجةٍ وشظفٍ في العيش فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْقَافًا﴾ (سورة البقرة: ٢٧٣/٢).

أجل، إننا حينما ننظر إلى حياة الصحابة الكرام نجدهم قد استنكفوا بحساسية مرهفة وحقيقية عن شتى صور الاستعطاء والتكفَّف، وسدُّوا احتياجاتهم ودبروا أمورَ معيشتهم من كدِّ إيمانهم وعرقِ جباههم، فمثلاً عبد الرحمن بن عوف ﷺ أحدُ العشرة المبشرين بالجنة اضطرَّ إلى ترك كلِّ ثروته في مكة مهاجراً إلى المدينة، إلا أنه ما إن وصلَ إلى المدينة حتى سأل عن السوق وبدأ العمل، ولم يقبل معونةً من أحد، وهو القائل: لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَحَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانظُرْ أَيَّ زَوْجَتِي هَوَيْتَ لَكَ عَنَّا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقٌ فَيُنْفَعُ، فَعَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ تَابَعَ الْعُدُوَّ... (٤٧)، لكنه ما لبث



أن أصبح - بعون الله وعنايته - من أثرى أثرياء المدينة فعن أنس رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا عَائِشَةُ فِي بَيْتِهَا إِذْ سَمِعَتْ صَوْتًا فِي الْمَدِينَةِ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: عَيْرٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ تَحْمِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ - وَكَانَتْ سَبْعِمِائَةَ بَعِيرٍ - فَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةَ مِنَ الصَّوْتِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: "قَدْ رَأَيْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حَبْوًا"، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، فَقَالَ: إِنَّ اسْتَطَعْتُ لَأَدْخُلَنَّهَا قَائِمًا، فَجَعَلَهَا بَأَقْتَابِهَا، وَأَحْمَالِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ <sup>(٤٨)</sup>. أجل، إن ساداتنا الصحابة الكرام الذين خبروا شينَ سلوك التسوّل بحثوا عن سبل الكسب والعيش الحلال دائمًا مما تكسبه أيديهم رغم ما كابدوه من حاجةٍ وفقيرٍ حقيقيين، ومن ثمّ فإنني أرى أنه لا يليق بمن يُنفقون أوقاتهم ويخدمون في سبيل الله تعالى أن يتسوّفوا للحصول على منحة أو عطية من الآخرين، فالأفضل دائمًا الأكل من عرق الجبين ولو حتى بالعمل في قطع الأحجار، أو تنظيف المباني والعمائر، غير أنّ ثمة بعض المواضع والخدمات التي يشتغل بها الإنسان لا تسمح له أن يمارس عملاً آخر غيرها، وفي مثل هذه الظروف فحسب قد يُرخص لهذا الإنسان باستعمال قدرٍ مما يمنح له بحيث يستطيع توفير احتياجاته الضرورية فحسب.

وإنني شخصيًا أشعرُ دائمًا بضرورة التفتيش في حياتي عن هذا الشأن وتحرّيه، فمئلاً عملتُ بالإمامة مدّة ثلاثِ سنواتٍ قبل التّحاقّي بالجيش لأداء الخدمة العسكرية، والحقيقة أنني كنت أستطيع أن أشبع نفسي بوجبةٍ واحدةٍ فحسب يوميًا من راتبي الذي كنت أنفق معظمه على الكتب والخدمات، فلمّا عُرضت عليّ وظيفة العمل بالوعظ شعرت بحاجةٍ إلى أن أستفتي أحدًا: هل يجوز القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر بمقابل مادّي؟ فسألت أحد أقرب طلاب الأستاذ بديع الزمان عن هذه المسألة، فنقل إليّ أن السؤال نفسه طرَحَ على الأستاذ بديع الزمان وأنه أجاب عنه بقوله: "إن لم يسمحوا لك بالوعظ والإرشاد حين لا يوظفونك في هذا المجال فاقبل هذه الوظيفة، وإن لم تكن لديك حاجة إلى هذه الأموال فادفعها إلى من يحتاجها، غير أنك إن كنت محتاجاً فخذ من راتبها بقدر حاجتك فحسب"، وعليه فقد انتسبتُ أنا كذلك لمهمة الوعظ؛ فأخذتُ من الراتب الذي خُصَّص لي من الوعظ بقدر ما يسدُّ احتياجاتي الضرورية، وتركتُ الباقي منه لذوي الحاجة طلباً لرضا الله تعالى، فلما أصبح هناك أجرٌ يأتي من تأليف الكتب لم تمسَّ يدي هذا الراتب، وطلبت أن يُمنح للمحتاجين.

ورجال الخدمة في يومنا هذا أيضاً ينبغي لهم ألا يسألوا الآخرين شيئاً، بل إنّه ليجب على الآخرين أن يهرولوا وراءهم من أجل توفير احتياجاتهم الضرورية، قائلين: "ثمة حاجة وضرورة لهذا كي تخدموا وتتجوا في مجالاتٍ أخرى فتنفعوا المجتمع أكثر"، وفي مثل هذه الأحوال فقد تقبلون كارهين لا راغبين ما يخصصونه من مبلغ بسيط، أما خلاف ذلك من أن يربط الإنسان حياته بما يأتي من الآخرين فإن هذا يدخل -في رأيي- في إطار المسكنة والذلة التي عابها وذمها القرآن الكريم والسنة المطهرة.

### الإنسان ليس مخلوقاً رخيصاً يُشترى ويُباع بالمال

يجب أن تكون القلوب المؤمنة في عصرنا الحالي أكثر حساسية في هذا الموضوع، وتهتم وتتبه لأن تعيش طيلة حياتها شريفةً عزيزةً، وعليها ألا تتشوّف إلى أيّ شيءٍ في أيدي الآخرين مهما كان بسيطاً،

وألا تضطرّ لدفع بدل ومقابل لأيّ إنسان. أجل، ينبغي لهم باعتبارهم أبطال العفة ألا يتدلّوا لأحدٍ ولا يهنوا، وإلا فإنّ شباك المنفعة والمصلحة المتعددة تُخضع إليها هؤلاء الساعين في سبيل الدين وتستعبدُهم، ثم يأتي يوم تجبرهم فيه على التنازل عن شيءٍ من دينهم والعيادُ بالله.

ومن المؤسف جداً أننا نرى كثيراً من الأمثلة المؤلمة لهذا في عصرنا. أجل، نرى ونحن نتقطع ألماً ومرارةً أن البعض يتمّ شراؤهم ثم استغلالهم بمختلف الطرق وشتى الوسائل، في حين أن الإنسان ليس مخلوقاً يُشترى ويُباع بالمال، ولا ينبغي أن يكون كذلك، فقيمته وثمرته هو نيل الجنة، وذروته الفوز برضا الله والنظر إلى جماله، وما عدا ذلك فلا قيمة له. أجل، حتى وإن قُدّر أن يكون فتح إسطنبول بدلاً ومقابلاً للإنسان فيستحيل أن يكون هذا أيضاً ثمناً يبيع الإنسان به نفسه، أي إنّه حتى وإن كانت إسطنبول ستُفتحُ إذا يبيع الإنسان فعليه ألا يرضى بهذا أيضاً، لأن عزة الإنسان وشرفه أسمى وأعلى بكثيرٍ من هذا كلّه.

وإن لم نعترف أنّ البعض ممن في هذه الدائرة القدسية قد وصل إلى صفاء الروح بهذا القدر لكان هذا جحدًا ونكرانًا للحقيقة، غير أنه يجب علينا أن نسعى من أجل إيصال الجميع إلى هذه الحالة الروحية، وتبيّن للناس قيمة الكسب من عمل اليد، وحماية السمعة، وقيمة العيش في عزّة وكرامة؛ لأن اختيار سيدنا رسول الله ﷺ أن يكون عبداً رسولاً يُظهر أنّه يُمكن دائماً تمثيلُ منهج الخدمة - التي تعتبر امتداداً لمنهج ومهمة الرسالة - وأداؤه بنفس الحالة الروحية.

لقد رأيت في الفترة التالية عقب رحيل فضيلة الأستاذ بديع الزمان إلى دار البقاء معظم الطلاب الذين كانوا يُجالسونه، وقد كان في عموم

تركيا آنذاك بضعة بيوتٍ للخدمة تسودها البساطة، ولا طعامَ فيها سوى الحساء اليتيم الخالي من الدسم، وكان يُكتفى بقطعة خبز وجُبِنٍ إلى جوار كوب من الشاي إدامًا، غير أنهم كانوا يعيشون شوقًا ونشوةً حقيقيةً في خدمة الحق؛ فشبُّوا وانتشوا كالجوادٍ عشقًا للخدمة، ومن ثمَّ يمكن القول إنَّهم هم من اضطلعوا بالخدمة الأساسية، وهيؤوا لكم الأرضية الحالية؛ فحراثوا الأرض، وبذروا الحبوب، ثم تعهدوها بالرعاية والعناية، فكان العملُ في موسم الحصاد من نصيبكم أتم.

وقد يثقلُ على البعض العيشُ في عفةٍ واستغناء بهذا القدر، إلا أن مهاجري الغاية المثالية الذين عشقوا فكرة علوية سامية يجب عليهم أن يسعوا ويجتهدوا دائمًا لبلوغ هذا الأفق.

وينبغي ألا ننسى أبدًا أن استمرارَ هذه الغاية السامية مرهونٌ ببقاء هذه الأخلاق والخصال الحميدة فحسب، لأنكم إن عشتم حياة مبهرجةً طئانة اهتزت -لا قدر الله- ثقتهم بكم اهتزازًا يجعلهم يتخلون عنكم، وحينها تتوقف -لا قدر الله- الأنشطة المنتشرة في بقعة جغرافية مترامية الأطراف من العالم. أجل، إنَّ مثل هذه الخدمات تُقدِّم للإنسانية جمعاء؛ ولو لم يكن هناك تضحيات جمَّة وغفيرةٌ من متطوعين لا معدودين لما كان من الوارد استمرارُ هذه الأنشطة والفعاليات، وقد يسأل البعض في يومنا الحاضر أسئلة تشكيكيةً واتهامية؛ إما غيرَ منه أو حسدًا رغم علمه جيدًا بحقيقة الأمر: "من أين يأتي ماء هذا الطاحون؟"، والمؤكد أنَّ دواليب هذا الطاحون لا تدور بالماء أو بالرياح، بل بالمروءة والبسالة والتضحية التي أبداها إنسان الأناضول من قبلُ في حرب الاستقلال على نحو حير العقول والأذهان؛ وعليه فينبغي النأي عن ارتكاب أيِّ خطأ -حتى ولو

كان صغيرًا تافهًا- يشتت أذهان هؤلاء الداعمين الكرماء ويدفعهم إلى إساءة الظن، فهذا -إن حدث- وبالأل لا قبل لنا بتحملة، والله مُحاسبٌ عليه.

لا شك أن أي رجلٍ من رجال الأعمال والتجار يخوض غمار الحياة التجارية سيعمل ويربح، فليبارك الله تعالى لهم في تجارتهم، وعليهم أن يواصلوا العمل والربح، إلا أن الأرواح التي نذرت نفسها للحق المهاجرة إلى غاية سامية المضطربة إلى أن تعيش حياةً بسيطةً بالنظر إلى وضعها، عليها أن تفضّل حياة زاهدة متواضعة حتى آخر أنفاسها، وتستغني عن الدنيا وتهب أحاسيسها ومشاعرها وأذهانها وقلوبها بل وأنفسها بشكل كاملٍ لخدمة الإيمان والقرآن الكريم.



## التدين الحقيقي واكتساب الهوية السليمة

سؤال: ما الذي يجب على المؤمن أن يراعيه إذا ما تعرّض لمعاملةٍ فظةٍ أو كلمةٍ نابية، كيلا يصيب هويته أيّ تصدّعٍ أو انكسارٍ؟

الجواب: الهوية في اصطلاحنا تعني استمرارية أداء الأعمال والعبادات الإسلامية وفقاً لشعور الإحسان؛ أي أن نعبد الله كأننا نراه، فإن لم نكن نراه فإنه يرانا، وأن يكون هذا الشعور بمرور الزمن جزءاً لا يتجزأ من طبيعتنا، وهذا ما يمكن أن نسميه بـ"الهوية الإسلامية"، فهوية المؤمن تعني إذاً أن يوثق صلته بربه ﷻ، وأن يبدي كمال التقدير والتوقير لمفخرة الإنسانية سيدنا محمد ﷺ بما يليق بمنزلته ﷺ، وأن يؤدي ما يقع على عاتقه من وظائف فردية أو أسرية أو اجتماعية على الوجه الأمثل، وأن يسعى جاهداً لتكون حياته كلها على هذا المنوال، إذاً فالهوية عندنا هي انتماء إلى الإحسان.

### التدريب بالنوافل

واكتساب مثل هذه الهوية مرهونٌ بما يُبدل من جهدٍ جهيدٍ وسعيٍ حثيث، غير أن المحافظة عليها طوال حياته أمرٌ جدّ عسير، وهذا يقتضي من المؤمن ألا ينزل عن صهوة جواده أبداً، بل ينشد دائماً مثل هذه

الصعاب، فيها هو النبي ﷺ يذكر أن سورة "هود" قد شيبته، فيقول: "شَيْبَنِي هُوْدٌ وَأَخْوَاتُهَا"<sup>(٤٩)</sup>، و"هُودٌ" هذه هي التي تحتوي على قول الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (سورة هود: ١١/١١٢).

ومن ثم فعلى المؤمن الحقيقي أن يتخذ من الدنو إلى ذلك الأفق الذي عاشه سيد السادات صلوات ربي وسلامه عليه - قدر استطاعته - غايةً عُليا وهدفاً منشوداً، فلو درّب نفسه على أداء العبادات جاعلاً هذه المسألة جزءاً لا يتجزأ من طبيعته؛ فسيخفف قدرًا ما من العبء الذي تنوء به إرادته، ويتمكن من أداء باقي التكليف بشكل أكثر يسرًا وراحة.

وإنّ النوافل لتؤدي هذه المهمة، فمثلاً قد يتقل على النفس صيام شهرٍ متتابع في أيام الصيف الطويلة الحارة، ولكن صاحب الشريعة ﷺ - كما هو معلوم لدى الجميع - قد أوصانا بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ويومي الإثنين والخميس من كل أسبوع<sup>(٥٠)</sup>، فمن يتعوّد على صوم النافلة في الأيام المعتدلة يسهل عليه مقاومة الجوع والعطش في أيام الصيف الطويلة الحارة، ويمكنه أن يؤدي بعون الله فريضة الصوم بشكل أيسر.

ويسري هذا الأمر على الزكاة أيضًا، فقد فرض الإسلام الزكاة - بربع العُشر أو نصف العُشر أو العُشر أو الخمس - في مال المسلم حسب نوعه، فلو لم يمرّن الإنسان نفسه على إيتاء الصدقات تطوعًا - وإن بقدرٍ يسير - شقّ عليه أداء الزكاة التي افترضها الإسلام، ولكن لو عوّد نفسه على التصدّق - ولو بالقليل - رويدًا رويدًا إلى أن يجعل هذا الأمر جزءًا من طبيعته، فلن يستصعب دفع الزكاة التي أمره بها ربّه.

(٤٩) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٥٦؛ مصنف عبد الرزاق، ٣/٣٦٨.

(٥٠) انظر: صحيح البخاري، الصوم، ٥٦، أحاديث الأنبياء، ٣٧؛ صحيح مسلم، الصيام، ١٨١.



وعلى نفس المنوال إن تحيّن الفرد أداء صلاة النافلة في أيسر الأوقات وأنسبها بالنسبة له، وجعل أداءها جزءاً من طبيعته فسييسر عليه فيما بعد أداء صلاة الصبح والفروض الأخرى في الأوقات التي تشقّ على النفس عادةً، كما سيتمكن من اجتياز المعوقات التي اصطنعها نفسه وهواه، يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ شَهْوَةً، وَإِنْ شَهْوَتِي فِي قِيَامِ هَذَا اللَّيْلِ" (٥١).

فالنبي ﷺ يسلط الضوء هنا على فكرة العبادة التي غدت جزءاً لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية ولا تقبل الانفصام عنها، وكأنه ﷺ يريد أن يقول: "إنني أتلدّذ بعبادة ربّي كما يتلدّذ أحدكم بقضاء شهواته".

وهكذا فعلى كل مسلم أن يحثّ الخطى جاهداً ليلبغ هذا الأفق، ومع العلم أنه ليس بمقدور الجميع بلوغ هذه الذروة الشامخة، إلا أن سلوك هذا الطريق وتغيي هذه الغاية هو بحدّ ذاته لمن أعظم الفضائل والمزايا؛ إذ إن كل جهد مبذول في هذا السبيل ليكتب لصاحبه عبادةً، ويرتقي به درجةً.

ولكم أن تأخذوا بهذه الفكرة نفسها في الأمور السلبية التي لا بدّ من تجنّبها وتحاشيها، فمثلاً إذا ما تعرض الإنسان للأمور المنكرة التي تخدعه بها نفسه ويفتنه بها هواه قد يصعب عليه حينئذ أن يؤدّي إرادته حقها، ولكن إن اتخذ الإنسان لنفسه منهجاً في الحياة، فأوصد الأبواب أمام شتى أنواع المحرمات صغيرها وكبيرها، وجعل ذلك بُعداً من أبعاد طبيعته وفطرته فإن الله المتفضّل المعين سيمكّنه من التغلب على أي كارثة تدهوه، حتى وإن تعرض للمنكرات التي تسحر العقول وتكدّر الأبصار، وسيستلّه ممّا يحيق به دون أن يتلوّث أو يتلطّخ بالأرجاس.

## الاستقامة في الأفعال والتصرفات

وكل ما ذكرناه يسري أيضاً على مسألة علاقة المؤمن بالآخرين. أجل، على المؤمن أن يتوخى أمور الدين في معاملته وعلاقاته مع الخالق أو المخلوق، وأن يجعل هذا الأمر جزءاً من طبيعته، ونقول بمزيد من التفصيل: لو لم يستطع الإنسان أن يجعل من الأخلاق الحميدة - كاحتضان الناس بحبٍ بغضٍ النظر عن انتماءاتهم، وإغداق البشاشة عليهم، وإكرامهم والإحسان إليهم، وإغاثة الملهوف منهم - جزءاً من طبيعته فلربما يتصرف عفويًا بفظاظةٍ وغلظةٍ إذا ما تعرّض يوماً لمعاملةٍ قبيحةٍ لم يكن يتوقعها، وسيجد صعوبةً بالغةً في التقيّد بأسلوبٍ إيمانيٍّ أثناء الردّ على ما لقيه من إهانة، وقد يقع في الخطأ والزلل؛ لأنه لم يعود نفسه على مواجهة الإهانات بمثل هذا الأسلوب، ومثل هذه الانحرافات في السلوك والتصرفات قد تخلّ بثقة الناس في ذلك الشخص واعتمادهم عليه، ومن ثم فإن كنا نرغب في جعل أنفسنا محلّ ثقةٍ لمن حولنا فعلينا أن نجعل من العبادات وتجنّب المحرمات وحسن المعاملة بعداً من أبعاد طبيعتنا.

ورغم كل شيءٍ فقد تصيب هويّة الإنسان أحياناً بعض التصدّعات والانكسارات وفقاً لوقوع الحادثة وشدّتها، وقد ينجم هذا الانكسار في الهوية أحياناً عن غيره الإنسان الدينية، وأحياناً عن الافتراءات والإهانات التي يوجّهها البعض لذلك الإنسان والتي تفتقر إلى الإنصاف، وأحياناً أخرى من إثارة نزعة هذا الإنسان وحساسيته، وإزاء هذا الموقف قد يتعكّر تلقائيًا مزاج المؤمن، وقد تقع الكثير من المشاحنات والمنازعات، فتتكسر القلوب وتوغر الصدور، لكن علينا ألا ننسى أن القيام بردّ فعلٍ

لا يتسَّق مع طبيعتنا سيُخِلُّ بثقة الناس فينا، ومن ثمَّ يجب على المؤمن الحقيقي ألا يتخلى عن هويته إزاء أي تجاوز أو إهانة منحطة، وإن كان لا بدَّ أن يردَّ فليردَّ بأسلوبٍ يليق بالمؤمن الذي يمثِّل أنموذجًا للأدب والأخلاق.

### أبطال الصبر أرباب الهوية

الحقيقة أنَّ المؤمنين سُمح لهم في القرآن الكريم بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ (سورة النحل: ١٦/١٢٦) الردُّ بالمثل على ما يتعرضون له من اعتداءات، ورُخص لهم في ذلك، ومع هذا فإنَّ الحق تعالى يُخاطبُ أرباب الهوية الرفيعة في ختام الآية قائلاً: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (سورة النحل: ١٦/١٢٦).

ذلك لأنَّ الإنسان الذي يُصاب في حياته - ولو مرة واحدة - بالتصدُّع في هويته يكون قد هزَّتْ ثقةً مخاطبيه فيه، كما يكون قد فتح الباب لأخطاء لاحقة، ومن تتشقق هويته على هذا الشكل يكون عرضةً للخطأ التلقائي والزلل العفوي، لذا فمن الواجب حمايتها دائماً وأبداً، وألا نسمح بانتهاكها أو تصدعها مهما تنوعت الظروف والأحوال.

فعلى الأرواح الناذرة نفسها لخدمة الإيمان والقرآن والمتعلقة بها قلبياً أن تحافظ على آفاق الحبِّ والتسامح في كل مكان، وألا تُغيَّر منهجها ولا اتجاهها حتى في مواجهة أدنى وأحقر الاعتداءات التي قد تتعرض لها؛ ويُشيرُ إلى هذا "يونس أمره" بقوله:

قَابِلِ الضَّارِبِ بِالصَّفْحِ

وَالسَّابِّ بالعَفْوِ

فِينبَغِي أَلَّا يَكُونَ الزَّاهِدُ جَزِعًا!

وأنتم أيضاً يمكنكم أن تستخدموا العبارة نفسها ولكن تغييروا شرطها الأخير ليكون هكذا: "فينبغي ألا يكون طَالِبُ القرآن جَزِعًا!". أجل، ينبغي لهم ألا يكسروا قلباً وإن كُسرت قلوبهم، وألا يُؤْلَمُوا وإن أولمُوا؛ لأن الذي يتألم ويتأذى باعتبار النتيجة هو القلب، والقلب -حتى وإن لم يكن كذلك في الحقيقة- هو عرش الرحمن باعتبار ما فيه من معاني كامنّة، وبتعبير آخر: فإن القلب يُعتبر بذرة أو نواة تُنبُت شجرة، والحقيقة أنه قد لا تُكتشف هذه القيمة الرفيعة -التي تعتبر نواة بالنسبة للبعض- ما لم تبتدر في أرض خصبة، وما لم يتوفّر لها المناخ الملائم، وما لم تتعانق مع أشعة الشمس، لذا أربأ بكم عن التصرف غير اللائق تجاه هذا المخلوق العظيم الذي خلقه الله كمثالٍ مصعّرٍ لعرش الرحمن.

ويتبادر إلى الذهن حول هذه النقطة مباشرة تساؤلٌ: "حسنًا، هل يصمت المؤمن أمام الشرور والمساوئ، وكيف يتصدّى لها؟"، أولاً: من الواجب على المؤمن أن يعلم أنه إنما يتصدّى للتصرفات والسلوكيات السيئة لعينها هي لا لعين مرتكبيها، فلا بدّ أن يواجه الجهل والإلحاد والنفاق والتمرد مثلاً كي يزيل ما يقتل قيمة الإنسان المعنوية من صفاتٍ وما يقهؤها من سماتٍ، وبتعبير آخر يجب على المؤمن أن يشعر في مواجهة ذوي الصفات السلبية بنفيس القلق والاضطراب والحرص الذي يشعر به تجاه أولاده السائرين نحو جرف هارٍ، أو الذين ينزلقون نحو الهاوية، ويتقطع حزناً وخوفاً عليهم، وعليه أن يسعى جاهداً دون كللٍ أو مللٍ لإرشادهم إلى الطريق الصحيح بتوصياته وتحذيراته، ويصوّر لنا سيدنا رسول الله ﷺ هذا الوضع تصويراً تمثيلاً رائعاً فيقول: "مثلي ومثلكم كمثّل رجلٍ أو قد نارا، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا أخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي"<sup>(٥٢)</sup>.

أجل، إنّ المؤمن الحقيقي رمزٌ للرحمة والشفقة، والسؤال يطرح نفسه بنفسه عليكم؛ هل -باعتباركم مَمَّن يمثّل الرحمة والشفقة على وجه البسيطة- إذا رأيتم إنساناً يتّجه ويندفع هاوياً نحو جهنم تقولون: "فلتذهب نفسك إلى الجحيم! ما دمت تريد الذهاب إليها، فعجّل إذا؟"، أم أنكم تحاولون إثناءً عن هذا الطريق السيئ الذي يسلكه فتفعلون مثلما فعل سيدنا رسول الله ﷺ، وتسعون إلى إنقاذه من المناخ والبيئة التي هو فيها؟ إن الخيار الأول هو خيارٌ من اسودّ ضميره وأظلم وجدانه، أما الثاني فإنه صفة المؤمن الحق؛ لذا فالتصدّي للأوصاف السيئة كما أنه غايةٌ في الأهميّة والنفعة بالنسبة للإنسانية فهو كذلك في غاية الأهميّة لمن ينشدُ رضوان الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً من أولئك الملتزمين بالدين حقاً، الذين تشربوا الإسلام في قلوبهم صدقاً، وجعلوه ديدنهم، واستمدوا منه هويتهم، حتى في مواجهة أكثر الحوادث سلبية وسوءاً.



## المخاطر الثلاثة

سؤال: ذكرتم فيما سبق أنّ مَنْ يسعون في خدمة الإنسانية على موعِدٍ مع ثلاثة مخاطر: إثارة مشاعر الغبطة لدى إخوانهم الذين يُشاركونهم الدربَ نفسه، وإيقاظ الكره والحقد لدى المؤمنين الآخرين بسبب الأنايئة الجماعية، وتحريك مشاعر العداة لدى الخصوم بالتباهي بالأعمال التي تعدّ بمستقبل مشرق، فما الأمور التي لا بدّ من مراعاتها حتى نأمن هذه المخاطر الثلاثة؟

الجواب: رغم أن الغبطة مباحةٌ شرعاً ولا بأس بها إلا أنّ هذا ليس على إطلاقه، بل هو منوطٌ بأشسِّ ومعاييرٍ معيَّنة؛ فمثلاً: قد يرى شخصٌ في أخيه مزيةً جميلةً فيغبطه عليها، ويتمنى أن يحظى بالمزية نفسها، فلا حرج في ذلك بدايةً، لكنّه ومع مرور الوقت ربما ينتقد ذلك الشخصُ القَدْرَ بشكلٍ ضمنيٍّ فيقول في نفسه: "لماذا لا أكون أنا أيضاً محظياً بهذه المزية"، وما تفتأ مشاعر الغيرة والحسد حتى تتبيّظ لديه تجاه مَنْ يغبطه، فإن وقع ذلك فهذا يعني خروجَ الغابط من دائرة المباح، وحوامته حول دائرة الشبهات والمحدورات، وكما أن هذه النوعية من الغبطة محذورة

فكذلك القيام بتصرفات تحرك مشاعر الغبطة لدى الآخرين محذورٌ أيضًا، فقد أوصانا رسول الله ﷺ باتقاء الشبهات في حديثه الشريف الذي يقول فيه: "الْحَلَالُ بَيْنٌ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِزِّهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَّاعٍ يَزْعَمِي حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ"<sup>(٥٣)</sup>.

وهكذا فإن شعور الغبطة الذي من شأنه أن يتحوّل إلى حسدٍ؛ مثله كمثل الوقوف على خطّ بين الحلال والحرام، فإذا ما انحرف الإنسان قليلاً هوى في دائرة الحسد والغيرة؛ ولذا كان هذا النوع من الغبطة وما يثيرها من تصرفات وسلوكيات من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتوقّأها، ولقد نبهنا الأستاذ النورسي (رحمته الله) إلى هذا الأمر وحذّرنا في رسالته "الإخلاص" فقال: "لا تنتقدوا إخوانكم العاملين في هذه الخدمة القرآنية، ولا تثيروا نوازع الغبطة بالتفاخر والاستعلاء، لأنه كما لا غبطة في جسم الإنسان بين اليدين، ولا انتقاد بين العينين، ولا يعترض اللسان على الأذن، ولا يرى القلب عيب الروح، بل يكمل كل منهم نقص الآخر ويستتر تقصيره ويسعى لحاجته... فكذلك نحن جميعاً أجزاء وأعضاء في شخصيّة معنويّة"<sup>(٥٤)</sup>.

### التنافس: التسابق في الخير

والتنافس -الذي يشبه الغبطة من ناحية ما- هو عملٌ إيجابي لا حرج فيه؛ ويعني: التسابق نحو النفيس في سبيل الحقّ والحقيقة، وبذل الجهد والنية من أجل عدم التخلف عن ركب الإخوة الذين يجاهدون ويكابدون

(٥٣) صحيح البخاري، الإيمان، ٣٩؛ صحيح مسلم، المساقاة، ١٠٧.

(٥٤) انظر: سعيد النورسي: الملمات، للمعة الحادية والعشرون، دستوركم الثاني، ص ٢٢١-٢٢٢.



في سبيل إعلاء كلمة الله، ولقد دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى مثل هذا التنافس في الأعمال الأخروية بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (سورة الْمُطَفِّفِينَ: ٢٦/٨٣).

ففي المسابقات الدنيوية ينجح شخصٌ ويخسر آخرون، وقد يولد هذا الوضع شيئاً من الاستياء والامتعاض لديهم، أما القلب المؤمن الموقن بالآخرة فإنه ينظر إلى التنافس الذي يُتغى به مرضاة الله تعالى بالمنظار القائل: "إن إخواني الذين يبذلون جهدهم من أجل إعلاء اسم الله تعالى في كل أنحاء العالم سيُهرعون بمشيئة الله تعالى إلى حوض سيدنا رسول الله ﷺ، ويشربون من يده الشريفة شربةً هنيئةً لا يظمؤون بعدها أبداً، وهذا أمرٌ يدعوني إلى أن أشارك في هذا السباق حتى لا أتخلف عنهم"، ويمكن اعتبار هذه المنافسة الشريفة نتيجةً إيجابيةً للغبطة.

وينبغي في مثل هذا التنافس في الحق أن يتحلّى الناذرون أنفُسهم للخدمة في سبيل الله بروح التضحية فيما أحرزوه من مكاسب وإن كانوا لا يتشوّفون إلى أيّ أغراض دنيوية كالتقدير والتصفيق والمنصب، وأن يُؤثروا الآخرين على أنفسهم، وأن تتسع صدورهم لإمكانية كسب الآخرين هذا السباق، ولا يعزّب عن علمكم المعيار الذي وضعه فضيلة الأستاذ النورسي لطلب المنصب وهو ضرورة ترجيح التبعيّة على المتبوعيّة لِمَا تحمله المتبوعيّة من مسؤولياتٍ وتُندر به من أخطار<sup>(٥٥)</sup>؛ لأن الريادة والإمامة توقضان وتثيران مشاعر نفسانية مختلفة، فينبغي للإنسان أن يكون على وعي كبير وحذرٍ بالغ في هذا الأمر، لذا وإن كنتم أكثر الناس أهلاً لمنصبٍ ما فعليكم تقديم الآخرين على أنفسكم وترجيح التبعية على المتبوعية.

(٥٥) انظر: بدیع الزمان سعید النورسی: اللغات، اللمة العشرن، السبب الرابع، ص ٢١١.

### روح الفتوة والمروءة الممتدة إلى الآخرة

دَع عَنْكَ التَشَوُّفَ إِلَى التَّصْفِيْقِ وَالتَّقْدِيرِ الدِّنْيَوِيِّ، فَلَا بَدَ لِلْمَوْءَمِنِ مِنْ رِحَابَةِ صَدْرٍ يَكشِفُ بِهَا فَتَوَّتَهُ وَمَرْوَةً وَيُؤَثِّرُ أَخَاهُ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى فِي مَسَائِلِ الْإِنْتِفَاعِ بِالنَّعْمِ الْآخِرِيَّةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، يُرَوَى أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْأَغْنِيَاءَ الصَّالِحِينَ إِذَا مَا وَصَلُوا إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ رَغِبَ كُلُّ مِنْهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَخُوهُ عَنْهُ، وَلَعَلَّهُ يَوْجَدُ فِي مِثْلِ هَذِهِ التَّضَحِيَّةِ وَالْمَرْوَةِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالمَتَعَةِ مَا يُحَاكِي الْجَنَّةَ وَنَعِيمَهَا. أَجَلٌ، رُبَّمَا هُنَاكَ ذَوْقٌ رُوحَانِيٌّ لَدُنِّي يَرْجُحُ الْإِمَامَةَ عِنْدَمَا يَنْسَلُّ الْإِنْسَانُ إِلَى الْخَلْفِ كَالْجَمَاعَةِ الَّتِي تَصَطَّفُ وَرَاءَ الْإِمَامِ، وَيُؤَثِّرُ غَيْرَهُ عَلَى نَفْسِهِ.

علينا ألا نضيِّق من دائرة خُلِقَ الْإِيْثَارُ. أَجَلٌ، إِنَّمَا إِنْ قَصَرْنَا الْإِيْثَارَ عَلَى الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالمَلْبَسِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّمَا ضَيَّقْنَا وَاسِعًا، وَحَجَمْنَا دَائِرَةَ التَّضَحِيَّةِ الرَّحْبَةَ وَأَزْهَقْنَا رُوحَهَا، بِيَدِ أَنَّ عَلَى الْأَرْوَاحِ الَّتِي نَذَرَتْ نَفْسَهَا فِي سَبِيلِ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ لَهَا مَوْقِفٌ ثَابِتٌ وَشَجَاعٌ؛ يُوَهِّلُهَا أَنْ تَقُولَ: "إِنِّي لَا أَرْغَبُ حَتَّى فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ رَأَيْتُ إِيمَانًا أَمْتِنَا فِي خَيْرٍ وَسَلَامٍ فَإِنِّي أَرْضَى أَنْ أُحْرَقَ فِي لَهَيْبِ جَهَنَّمَ؛ إِذْ بَيْنَمَا يَحْتَرِقُ جَسَدِي يَرْفُلُ قَلْبِي فِي سَعَادَةٍ وَسُرُورٍ"<sup>(٥٦)</sup>، وَأَنْ تَرْبِطَ خَلَاصَهَا بِخَلَاصِ الْآخَرِينَ، وَأَنْ تَعْمَلَ عَلَى اسْتِغْلَالِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْقَصِيْرَةِ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ مِنْ أَجْلِ الْآخَرِينَ، فَإِذَا مَا تَقَابَلَتْ أَمَامَ بَابِ الْجَنَّةِ مَعَ أَلْفِ مَنْ كَانَتْ وَسِيْلَةً لِهَدَايَتِهِمْ قَالَتْ بِشَجَاعَةٍ: اَللّٰهُمَّ إِنِّي لَا أُدْرِي هَلْ أَدَيْتُ بِحَقِّ شُكْرِ النِّعْمِ الَّتِي أَسْبَغْتَهَا عَلَيَّ، وَهَلْ كُنْتُ مَخْلِصًا فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي قَمْتُ بِهَا، اَللّٰهُمَّ أَدْخِلْ إِخْوَانِي الْجَنَّةَ مِنْ قَبْلِي؛ بِمَعْنَى أَنْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَمْحُو نَفْسَهُ تَمَامًا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَلْفِتَ الْأَنْظَارَ إِلَى غَيْرِهِ عَلَى الدَّوَامِ.

## الأنانية الجماعية

أما الأنانية الجماعية فتتغذى على الأنانية الفردية والنفس، فقد لا تكفي الأنانية الفردية لبعض الناس الذين يتصارعون من أجل التعبير عن أنفسهم، فينتمون إلى جماعة معينة، يركنون إليها ويعتمدون عليها، رغبةً في إظهار أنفسهم بقوة، واستغلال قوة هذه الجماعة أو الحركة في الدعاية لأنفسهم، فيؤكّدون مرّةً أخرى على أنانيتهم، ويحاولون أن يُظهِروا أنفسهم بسلوكيات وأفعال مختلفة؛ وبذلك يغدون أسرى لأنفسهم وشيطانهم بهذه النرجسيّة والأنانية الجماعيّة الأقوى من أنانيتهم الفردية.

ومهما حاول بعضهم إخفاء نواياه الحقيقية في غلافٍ من التواضع والمحو إلّا أنّ فطرة الإنسان تستشعر -بقدرٍ ما- ماهية هؤلاء الأنانيين؛ لذا فإنّ الأنانية تُفقد الإنسانَ اعتباره وقدره، وتمنح الآخرين فرصة الاستخفاف به واعتزاله.

وهكذا فإن الذين يتحركون -في كلّ الدوائر من أدناها إلى أقصاها- وفقاً لأنانيتهم الجماعية يثيرون الغبطة أو الحسد في نفوس أتباع الجماعات والحركات الأخرى، ومع الأسف فإنّ أمثلة كثيرة يمكننا أن نراها في أيامنا الحالية.

لا سيما إنّ هم أتباع حركة معينة وصلت إلى بعض النجاحات وجعلوا أنفسهم على رأس الحركة التي ينتمون إليها، ونسبوا إلى أنفسهم كلّ الجماليات، ورجبوا في أن يُشار إليهم بالبنان على الدوام، وغصّوا الطرف عن خدمات الآخرين، فإن هذا سيؤدي إلى تشكيل جبهةٍ معادية لتلك الجماعة أو الحركة التي يتسبون إليها؛ لأنّ هناك مسلمين صادقين عقلاء متحمّسين في كل شريحةٍ من شرائح المجتمع وفي شتى الجماعات

والحركات، غير أنه لم يكتب لهم أن يقوموا بعُشر معشار الخدمات التي قام بها الآخرون رغم نزاعهم وسعيهم الحثيث في سبيل الحق والحقيقة منذ أمدٍ بعيد؛ ولذا يشعر هؤلاء الناس بشيء من الاستياء إذا ما أخذ أتباع حركةٍ معينة في الحديث عن أنفسهم وعن النجاحات الكثيرة التي حققوها؛ ومن ثمّ فعلى أتباع هذه الحركة التي أحرزت هذه النجاحات أن يكونوا على وعي وحذرٍ بالغ حتى يبتدوا المشاعر السلبية التي قد تنشأ لدى الآخرين الذين يسعون في مختلف سبل الخدمة؛ فإذا ما تحدّثوا عن خدماتهم نسبوها إلى الدوائر الواسعة بقدر الإمكان.

فمثلاً: قد يأتيكم بعض المنصفين العارفين بالجميل من أتباع الحركات الأخرى ويثنون على ما قمتم به من خدمات، فعليكم حينذاك أن تقولوا لهم: "في الواقع إن كل هذه الجماليات كانت من أمانيكم وغاياتكم المثلى، كنتم تُدندنون بها، وتسطّرون ملاحمها طوال سنوات، وبذلتم جهداً كبيراً في هذا السبيل، فكنتم أنتم أوّل من شرع في تقديم هذه الخدمات، ولكن الله تعالى سخر لهذه المرحلة بعض إخوانكم فحقّقوا هذه الغاية المثالية التي بدأت بجهدكم وعزمكم".

والحقيقة أن كل إنسان مُنصفٍ ذي ضميرٍ يُقرُّ بأن لكل جماعة وحركة جهوداً حقيقية مهمةً في انبعاث المجتمع من جديد؛ فترى بعضهم وقد زائوا أرض الوطن -من أقصاها إلى أقصاها- بدورٍ ومراكز تعليم القرآن الكريم؛ إذ إنهم في ذلك الوقت الذي شحّ فيه تعليم القرآن جابوا البلاد قريةً قريةً، وقصبةً قصبةً، وسعوا في شتى الأسقاع إلى تعليم الناس كتاب ربهم ﷺ، والبعض رعى الشباب واعتنى بهم عبر افتتاحه مدارس في كل مكان قدر استطاعته، أما البعض الآخر فقد افتتح المعاهد الإسلامية،

وكليات الإلهيات، والمراكز التعليمية، والمدن الطلابية فأسهموا بذلك في الوفاء بمسؤولياتهم تجاه الشعب والأمة، إذًا فإن كان ثمة انبعاث اليوم بقدر معين، فإنه تحقق بفضل تكاتف الجهود المبذولة من كل الجماعات والحركات، ما ذكرنا منها وما لم نذكر.

وأظن أنكم حين تتناولون المسألة بهذا الأسلوب آنف الذكر فإنه لن يُخَيَّلَ لأيِّ مُنصِفٍ أنه حُكِمَ عليه بالعدم، أو أنه هُضِمَ حَقُّه، أو أنه لم يُؤَبِّه به؛ وبهذا فإنه لن يرتكب ذنوبًا من قبيل إساءة الظنِّ والحسد والغيرة.

### الوهم والمخاوف التي تُحَفِّزُ مشاعر العداوة

ينبغي للأرواح الناذرة نفسها للخدمة في سبيل الله ببصيرة وحكمة أن تتحلَّى بروح الشجاعة والمروءة التي تنسِفُ الهمومَ والمخاوفَ نسفًا، وليس ذلك تجاه بيتِّها الصديقة فحسب، بل وتجاه مَنْ أتوا بتصرِّفاتٍ وحركاتٍ عداويةٍ ضدها لعجزهم عن مشاركتهم المشاعرَ والأفكارَ ذاتها، يقول "حافظ الشيرازي" حول هذا الموضوع: "نيلُ الراحة والسلامة في كلا العالمين توضَّحه كلمتان: معاشرة الأصدقاء بالمروءة والإنصاف، ومعاملة الأعداء بالصفح والصفاء"، فإن كُنَّا مؤمنين وندِينُ بأنَّ الشفقةَ مبدأً من مبادئنا الأساسية فإنه يتَحَتَّمُ علينا أن نتصرَّفَ تجاه الجميع برحمةٍ ولينٍ، إضافةً إلى أنه يجب عليكم - من أجل استئصالِ أوهام مَنْ يتخوَّفُ ويقلقُ من المستقبل - أن تُبينوا بشتى الوسائل أنكم لا تنشُدون أيَّ غرضٍ دنيويٍّ في المستقبل وأنكم لا تبتَغونَ شيئًا آخر سوى الرضا الإلهي، حتى إنه ينبغي أن يُردَّدَ ذكرُ تلك الحقائق ويُكرَّرَ بلغةٍ واضحةٍ وصوتٍ جهوريٍّ تسمعه الدنيا بكلِّ عوالمها.

دَعَمَكُمْ من التشوّف إلى حكمِ بلدةٍ ما أو دولة ما، فإننا لا نطمح حتى إلى زعامةٍ قريّة، وكلُّ هَمِّنا وغايَتنا الوحيدة هي: أن يُسمَعَ اسمُ الله واسمُ النبي ﷺ في كلِّ أرجاء المعمورة، وأن تنهلَ الإنسانيّة التي خُلقت مكرّمةً من مناهل الفضائل التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، وتُبَلِّغَ القلوبَ اسمَ الله الجليل؛ فيرفرف فيها كالراية، وإننا نطرد من أذهاننا كل الأفكار التي تخالف هذا، ونظرها إلى أبعد ما يكون، بل وإن أقبلت علينا الدنيا بكل مفاتها فإننا نرُكِّلُ السلطنة الدنيوية بأطراف أقدامنا، لأننا نسعى إلى اقتفاء أثر سيد السادات محمد ﷺ خطوةً خطوةً، ونتأسى به قولاً وعملاً، إذ رفض الدنيا التي تمثلت له، يقول ﷺ: "هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِلَّتْ لِي فَقُلْتُ لَهَا إِيَّاكَ عَيْبِي!"<sup>(٥٧)</sup>، وذلك لأننا نطلب رضا الله تعالى الأعظم والأكبر من محاسن هذه الدنيا الجذابة الكذّابة، والفانية بكلِّ ما فيها من مفاتن، والواقع أن عدم ضُـدورٍ أو وجودٍ أدنى إشارة أو علامة منا تستدعي قلقاً أو تخوُّفَ بعض الطوائف والشرائح في ثقافاتٍ وفي مناطق جغرافية مختلفة جدًّا ليؤيِّدُ ويؤكِّدُ -بكل وضوح- فكرتنا وقناعتنا هذه.

ومع أن هذه هي الحقيقةُ إلّا أنه يجبُ التأكيدُ على هذه الأفكار في كلِّ مناسبةٍ وموقفٍ، وإلا فإن التزمنا الصمتَ ولم نُقلْ أيَّ شيءٍ في هذا الشأن؛ فلربما يتبنّى بعضُ المخلصين الذين يُحسنون النيةَ قناعاتٍ وآراءٍ خاطئةٍ من عند أنفسهم إذا ما نظروا إلى تطوُّر الخدمات التعليمية وأنشطة الحوار؛ فيخيِّمُ عليهم القلقُ والمخاوف... فإذا كان للمقرِّبين منكم -الذين يقفون عن يمينكم وشمالكم أثناء الصلاة- أن ينغلِقوا على مجموعةٍ من الأفكارِ الخاطئةِ حيالكم؛ فلکم أن تتصوِّروا مدى القلق الذي يمكن أن يَشعر به أولئك الذين يُعادونكم ويجهلون عالمكم الداخلي ولا يعلمون

أن غايتكم اليتيمة هي ابتغاء رضا الله تعالى، ومن هذه الناحية فإن الأرواح الناذرة نفسها للخدمة في سبيل الله - بدءاً من طفل السابعة إلى شيخ السبعين أو حتى من هو أكبر - عليها أن تتذكر دائماً وأبداً أنها لا تضع في حسابها أي شيء مستقبلي بشأن السلطنة الدنيوية ولا تطمح إليها ولا إلى ما يمكن أن تحققه من إمكانات، وينبغي لهم أن يتأوا بأنفسهم عن كل قولٍ وفعلٍ وتصرفٍ وسلوكٍ قد يُثيرُ لدى أهل الدنيا - الذين يرون الدنيا كلَّ شيءٍ ويتعلقون ويربطون حياتهم بها فحسب - الخوفَ من فقدان الإمكانات الدنيوية.





## التيقُّظُ والحذرُ

سؤال: ما الأمور التي يجب الحذرُ منها والْتَيْقُظُ لها في طريق الخدمة الإيمانية؟ وكيف ينبغي أن يكون هذا التيقُّظُ؟

الجواب: التَيْقُظُ من اليقظة بمعنى الصحوّة والإفاقة والتنبه، ولفظُ "الْتَيْقُظُ" فيه معنى التكلّف لأنّه من صيغة "تَفَعَّلَ"؛ ولذا يُقصد به: أكمل انتباهٍ وأبلغُ دقّةٍ وأعمقُ تعمُّقٍ وأعلى حساسيةٍ وأسمى درجات الحيطّة والحذر، كما يمكننا أن نعرّفه بأنّه: إيقاظُ جميع الملكات الشعوريّة والفكرية -فضلاً عن البصريّة- حيال استقراء الحوادث، وتشخيصها تشخيصاً سليماً، وعدمُ الاقتصار على التأويلات والتقييمات التي يوحى بها رأيٌ واحدٌ أو شعورٌ واحدٌ، وفحصُ ومراجعةُ الرؤى والقرارات في كلّ مسألةٍ مرّةً تلو أخرى... فالإنسان المتيقِّظ هو الذي يرى نفسه كطيّارٍ يُدرك أنّ أيّ خطأٍ أو خللٍ يصدر منه مهما كان صغيراً يُمكنُ أن يودي به وبمن معه إلى السقوطِ والهلاك؛ يرى ذلك فيأخذُ بمجامع الحيطّة والحذرِ دائماً حتى لا يتردّي أو يسقط.

### التيقُّظ في عهدٍ ساد فيه النفاق

إن التيقُّظ بالنسبة للأرواح التي نذرت نفسها لخدمة الإيمان والقرآن يحمل أهميَّةً خاصة في هذا العصر الذي استحكَم فيه النفاق، ومن ثمَّ فعلى تلك الأرواح بدايةً أن تحسَّنَ استقراءَ الزمن الذي تعيش فيه، وتعملَ على تحليل الظروف الراهنة تحليلاً سليماً، وتتعرَّفَ جيِّداً على خصومها الذين جُبلوا على العداوة، ولا يغرنَّها قربهم منها فإنهم يستترون وراء ستار النفاق على هيئة دوائر متداخلة؛ ومهما فعلت الأرواح المتفانية وبذلت وسعها حتى لا تظَهَرَ كجبهةٍ مبارزة ومناهضة فإن هؤلاء الذين طارَ صوابُهم حسداً وغيره قد يتحكَّمون بتلك الأرواح، فيشؤون نيران مشاعرهم العدائية في شتى دوائر الحياة أعلاها وأدناها، بل إن هؤلاء الذين أسرَّهم الحقدُ والغُلُّ يتربصون بهم الدوائر.

أجل، ينبغي لهذه الأرواح أن تعي ما تحمُّله على عاتقها من مهمَّةٍ جدِّ حسَّاسيةٍ، وأن تتمتَّع مع كل انطلاقة أو خطوة تخطوها بشجاعةٍ باهرة لا تُقهر، وعقيدةٍ راسخة لا تتزعزع، وثباتٍ على الطريق المستقيم، وإلى جانب هذا كله؛ عليها أن تضع حساباً للتخريبات التي قد تصدرُ عن الجبهات المعادية نتيجةَ فُورَانِ غيظها وتفجُّرِ حَمَمِ حقدِها وكُزْهها، وإلا تسببت في أخطاء وإخفاقات تُضُرُّ بالحركة التابعة لها، لذا فإن اتِّخاذَ الحيطة والحذر والدقَّةَ البالغة في هذا الأمر يُعدُّ عمقاً وبعداً من أبعاد التيقُّظ.

والواقع أن القلب المؤمن يحسب ويُفكِّرُ لِعَدِهِ كما يَحْسِبُ ويُفكِّرُ لِيَوْمِهِ، ولا يتقيَّد بحاضره فحسب، ولا ينبغي له ذلك؛ لأنَّ الحسابات اليومية أو المرحلية لم ولن تقتلَعِ أيَّ مشكلةٍ من جذورها، فمنذ عدة عصور وتُطرح الحلول غير الجذرية لمشاكل العالم الإسلامي، وتوضع

السياسات اليومية المؤقتة للمشاكل العملاقة دون جدوى، ولذا فإن من يحسبون أن السياسات اليومية المؤقتة قادرة على حلّ المشاكل في بلادهم والعالم الإسلامي وجعله عنصرًا من عناصر التوازن الدولي، ومحطّ أنظار العالم وموضع تقديره فقد خدعوا وانخدعوا.

أجل، إننا إذا ما نظرنا نظرة موضوعية إلى ذاتنا كمجتمع لألفينا أنفسنا غير قادرين على التحديد التام لعلل آلامنا الممتدة منذ عصور، ولم نستطع تشخيص الداء تشخيصًا سليمًا، فضلًا عن وصف الدواء وصفًا حكيماً.

لذا فعلى القلوب المؤمنة في زماننا أن تسير متيقّظة كالعيون الساهرة وليس كالذي يسير أثناء النوم، وأن تنظر بشموليّة إلى الحوادث، وأن تُقلّب النظرَ كَرَّةً بعدَ أخرى في كلّ خطوةٍ تخطوها، وأن تراجع مرّةً أخرى كلّ عملٍ تقوم به، وأن تعالج المشاكل كإنسانٍ تيقّظت كلُّ ملكاتِهِ الشعوريّة والفكريّة بتمامها، والأحرى أنّ عليهم أخذَ الحَذَرِ عند نماءِ أيّ طقطقةٍ إلى مسامعهم وكأنهم جنود الوطن المرابطون على حدوده، وأن يحتاطوا في كلّ لحظةٍ تحسُّبًا لأيّ خطر، وأن يستعدّوا دائماً لمكافحة السلبات بما في أيديهم من حلولٍ متاحة.

### التيقُّظُ حيال النجّاحات

ومن جانب آخر: فإنّ ممّا منّ الله تعالى به على الذين يسعون لخدمة الإنسانية في يومنا هذا ابتغاء مرضاته أن جعلهم مبليغين للحقّ والحقيقة في شتى ربوع العالم، فإن لم نحتط لهذا الأمر فلعلنا -معاذ الله- نقع في الغفلة وننسبُ إلى أنفسنا من النجّاحات ما يجب عزُّوه إلى الذات الإلهية، أجل، علينا أن نوقّي إرادتنا حقّها إلا أن الإرادة شرط عاديّ لتحقيق شيءٍ ليس إلا، والحقيقة أنّ الخالق هو، والصانع هو، والفاعل هو، والذي

يجعلُ الشتاءَ ربيعًا هو، والذي ساقنا إلى كل هذه الجماليات هو ﷺ؛ ولذا فلا يصحّ أن تدور بِخَلْدِنَا أفكارًا من قبيل: "نحن فعلنا، نحن صنعنا"، بل يجب أن نعتبر كلَّ جمالٍ نحصل عليه لطفًا وتفَضُّلاً منه ﷺ، وأن ننسب النعمة إلى صاحبها الحقيقي، أخذًا بمبدأِ التحدّث بالنعمة، والحقّ أن مثلَ هذا التصرّف الحذرِ كفيلاً بتوالي مزيدٍ من النعمِ الإلهية تترى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة إبراهيم: ٧/١).

فضلاً عن ذلك علينا أن نتجنّب بقدر المستطاع الغلوّ والإطراء الزائد في نعتِ أصدقائنا الذين يُشاركوننا الدربَ نفسه؛ لأننا قد نوقعهم في عشق المقامات التي يُحسِنُ الناسُ فيها ظنهم، وبذلك ندقّ أعناق أصدقائنا بأيدينا دون وعي متّ، حيث إن استخدام عبارات المدح والثناء في حقّ مَنْ نُحسِنُ الظنَّ بهم قد يثير شعور الغيرة لدى آخرين ممن يشاركونكم الطريق ويتقاربون معكم في المنهج، وقد يسوقهم ذلك إلى الحقد والحسد، فكُلِّمنا طافت ألسنتكم بعبارات المدح والثناء حول شخصٍ تحبُّونه أترُتُم في الآخرين شعور الإنكار والجحود تجاهه، وبذلك يكون جزاؤه منكم الإساءة له بدلاً من الإحسان إليه، لذا فالصدقُ الصدقُ، والحذرُ الحذرُ مع بعضكم البعض، وإياكم ومدقّ الإطراء والإطناب في التقريظ لمن تُحبُّون، وعلينا أن نسعى دائماً لنكون صادقين أوفياء مع بعضنا، وبدلاً من أن نعت فلاناً بالولاية وفلاناً بالقضية ندعو الله قائلين: "اللهم لا تحرمنا من الصدق والوفاء لإخواننا!".

والحاصل أنكم إن كنتم تحملون حبًّا جمًّا وشوقاً صادقاً لشخصيةٍ معيّنة فعليكم أن تُعبّروا عن حبِّكم وشوقكم بالعمل على تحقيق الغاية المثالية التي أرشدكم إليها في إطار الكتاب والسنة، أما الإطناب في إطرائه أمام هذا أو ذاك فمن شأنه أن يُبَيِّرَ حقد وكره الآخرين له، وبذلك

تكونون قد أسأتم له وأنتم تُريدون الإحسان إليه، وهكذا فإن مراعاة الدقة والحساسية في الحديث عن كبارنا الذين نُكِنُّ لهم كل تقدير واحترام يُعدُّ بعداً آخر من أبعادِ التيقُّظِ على طريق الخدمة الإيمانية.

سؤال: ماذا يعني التيقُّظُ بالنسبة للطامحين إلى السياحة في أفق القلب

والروح؟

الجواب: قد يركن "السالكُ طريقَ الحقِّ" إلى الرجاء حيال ما يَرُدُّه من وارداتٍ وهباتٍ أو ما ينهال عليه من تجليات عامة تتحقق في أحوال ومقامات معينة؛ فيدخل في نوعٍ من الشطح والتحرُّر، فثمة حاجةٌ ماسّةٌ جدًّا إلى التمكين والتيقُّظِ في مثل هذه النوعية من الأحوال التي تمثل ابتلاءً وامتحاناً بالنسبة "للسالك"، فالله ﷻ يمتحنكم بتدفُّقِ الإحسان والجماليات، ويمنُّ عليكم بما يساوي الجوهرَ قيمةً، فإن فرحتم كالأطفال بهذه الهباتِ والنعمِ ونسيتم في خضمِّ ذلك صاحبها فإنكم حينئذٍ ترسبون في الامتحان، لذا فالواجبُ على الأعين في مثل هذه الأحوال -التي تُمَطِّرُ عليكم فيها الإحساناتِ وابلًا صبيًّا- أن ترى صاحب تلك النعمِ وترقبه ولا تحيد عنه، وأن تجيشَ القلوبُ بها من باب "شكر المنعم" فحسب، وعلى حدِّ قول فضيلة الأستاذ سعيد النورسي فإنه ينبغي لنا عند شكر أيِّ مُحسنٍ إلينا ألا نتجاهل مَنْ أرسله. أجل، إن الإنسان العازم على السياحة في أفق القلب والروح يحتاج دومًا إلى التمكين والتيقُّظِ الحقيقي كي يستطيع الحفاظ على التوازن اللازم أمام الهباتِ والوارداتِ التي يحظى بها.

**"لستُ أنشدُ شيئاً سوى رضاك!"**

إن الجانبَ المتعلِّقَ من هذه المسألة بالأرواح التي نذرت نفسها في يومنا الحاضر مختلفٌ قليلاً؛ لأنهم -وبحسب مقتضى مسلكتهم- لا يشدُّون مثل هذه المقامات المعنوية، وإنَّ الأستاذ النورسي بعد أن بيّن أن

الهدف الأسمى للإنسان هو الإيمان بالله، ثم معرفة الله التي تنشأ من الإيمان، ثم محبة الله التي تنبع من معرفته ﷺ؛ أضاف إلى ذلك "اللذة الروحية" (٥٨)، بيد أن ثمة أمراً دقيقاً يجب الانتباه إليه ههنا ألا وهو: أن الثلاث الأول مما ذكر أعلاه "إرادتي" بمعنى أن على الإنسان أن يبتغيها بإرادته، وبتعبير آخر: فإنكم تُوفون إرادتكم حقها كشرطٍ عادي في الحصول على الإيمان بالله ومعرفة الله ومحبة الله، وتتوسلون وتطلبون وتبحثون وتتجولون في عوالم الأوامر التكوينية، وتُراعون الأوامر التشريعية، وتذكرون الله وتفكرون، وتبدلون قصارى جهدكم في ذلك.

أما بالنسبة لمسألة اللذة الروحية فإنها ليست "إرادية" بالمعنى نفسه، أي لا تُطلب بالإرادة، وإنما قد يهبُ الله تعالى مثل هذا الفضل لمن يسلكون طريق الإيمان والمعرفة والمحبة، إلا أنكم إن طلبتموها بدايةً، وربطتم بها الإيمان بالله ومعرفة الله ومحبة الله فهذا يعني أنكم خفَضتم سقف مطالبكم وابتغيتم من النتائج ما هو ضئيلٌ وصغير، أما إن ربطتم عبوديتكم برضاه وتوجهه فحسب فهذا يعني أنكم ارتقيتم أفقاً تعجز الدنيا عن تقييمه أو وزنه، بل وتُسْتَقَلُّ وتَتَضَاعَلُ اللذة الروحية إلى جانبه، ومن هنا فإنه لا ينبغي الخلطُ بين "الإرادية واللاإرادية"، وعلينا أن نحث الخطي دائماً خلف ما هو إرادتي وأن نُوفِّي الإرادة حقها في هذا الموضوع، فإن كان الشيء غير الإرادتي قد مُنَّ به علينا وهباً خارج إرادتنا ودون طلبٍ أو رغبةٍ ممَّا فلا بد لنا من مقابلة ذلك بالشكر والحمد، والتعبير عن شعورنا بالمتة والامتنان، والتحدث بنعم ذي الجود والإحسان.

إن الإلهام والكشف واستقراء ما في نفس الإنسان والإحساس بالحوادث قبل وقوعها والانفتاح في الرؤى على عوالم مختلفة... كل هذه الأحوال والمقامات ليست أساساً أو هدفاً يُتغنى؛ فنحن نسلك طريق الصحابة رضي الله عنهم، فهم الذين لم يلتفتوا إلى هذه النوعية من الخوارق التي قد تجد النفس الأتارة إليها سبيلاً، ولم يُلقوا لها بالألأ؛ وإنهم إذ أجرى الله على يد بعضهم بعض الكرامات مثل الإحساس بالشيء قبل وقوعه، وإجراء الحق على لسانهم؛ إلا أنهم لم ينشدوا الكشف والكرامات قط؛ فلم يتغيوا سوى غاية يتيمة؛ ألا وهي الحصول على الرضا الإلهي؛ ولذا فإنه يجب علينا نحن كذلك أن نتحرك في هذا الفلك، فإن حظينا نحن أيضاً ببعض من الهبات والواردات دون أن نطلبها وجب علينا أن نقابلها بقولنا: "إلهي! نعمة لم أكن أنا الحقيير أهلاً لها، فما سرُّ هذا اللطف والإحسان؟!"، وأن نخاف كونها نوعاً من "الاستدراج"، وأن ترتعش فرائضنا خوفاً ووجلأ، وربما ينبغي لنا أن نقول عقب ذلك: "ربي! كنت أريد أن أحبك أنت فحسب حباً ولها، وإني لأطلب لقاءك مثل المجذوب، فإن كنت منحتني هذه الأمور لتبعث في الشوق والغيرة فلك الحمد والشكر والثناء الحسن ألف مرة ومرة! غير أنني لا أطلب شيئاً آخر سوى رضاك".





## ابتغاء الكمال في الأعمال

سؤال: يقول الحق ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: ٣/٥)، ففي هذه الآية ربط الحق ﷻ رضاه بالأكمالية والأتمية، فما هي مناطات تحقيق مثل هذه الأكمالية والأتمية المرجوة؟

الجواب: إن الإسلام عبارة عن جزمة من القيم التامة الكاملة التي لا يشوبها نقص ولا قصور، ومن شأنها أن تلبي متطلبات كل المجتمعات مهما تنوعت وتعاقبت إلى قيام الساعة، ومن ثم فعلى أتباع هذا الدين الخاتم الذي بلغ الله به حد الكمال والتمام أن ينشدوا الأكمالية والأتمية في كل شيء؛ أي أن يتحرزوا الدقة والكمال في أداء وظائفهم ومسؤولياتهم؛ حتى يتسنى لهم الحصول -بالمعنى التام الكامل- على خير النتائج وأفضل الجماليات التي وعدهم بها دينهم، فهذا هو سبيل أفق الرضا الإلهي، والآية صريحة في هذا المعنى.

## "كُلُّ خَطِيءٍ وَإِخْفَاقٍ بِسَبَبِي أَنَا!"

وإنَّ تحقُّقَ أفق الرضا هذا متوقِّفٌ على شروطٍ؛ أولها: أن يكون لدى الإنسان نيةً صافيةً وعزيمةً عاليةً موجهتان لاستغلال جميع الإمكانيات والقدرات التي وهبها الله له استغلالاً تاماً على الوجه الأمثل والأكمل؛ فبعض الناس يمتلك ندوة الصوت، وبعضهم يمتلك مهارة القيادة والإدارة، وبعضهم يُجيد الكتابة والتأليف أو الكلام الجميل... لذا فعلى كلِّ شخصٍ أيًّا كانت قدراته ومهاراته أن يستغلَّها إلى أقصى حدٍّ حتى يتسنى له التعبير عن الحقِّ والحقيقة، فإن لاحت في الأفق بعضُ الأخطاء والعيوب فعليه أن يفتش عن عيب نفسه لا عن عيب غيره، وأن ينسبهما إلى نفسه مجتهداً في البحث عن سبيلٍ لتلافيهما.

ويجب على من وهب نفسه لخدمة الإيمان والقرآن -بغضِّ النظر عن الوظيفة التي يقوم بها في شتى مجالات الحياة- أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن عدم بلوغ هذه الوظيفة درجة الكمال والتمام والإتقان، وأن ينسب إلى نفسه كلَّ مشكلة تحدث.

والحق أن العبد لو قال في نفسه: "لم أستطع أن أؤدِّي بحقِّ المسؤولية الملقاة على عاتقي، لقد قصَّرت في هذه الوظيفة حتى باتت لا تؤتي ثمارها باطراد على الوجه الأمثل، وإنَّ ما اقترفته من أخطاءٍ هو السبب في ذلك"، فهذا القول يُعدُّ توبةً ضمنيَّةً، بل إنابةً أو أوبةً حسب اتساع قلبه وعمق مداركه، ولا شك أن الله تعالى يستجيب بلطفه وكرمه دعاء مثل هذا القلب المهموم، وسينعم عليه -إن شاء- بمزيدٍ من فضله وعنايته حتى يتدارك ما وقع فيه من أخطاء.

ولكن إن نظرَ الإنسانَ بعينِ الكمالِ إلى كلِّ أعماله، واعتقد أن أفعاله معصومةٌ عن أيِّ قصورٍ أو خللٍ، وأنَّ خططه ومشروعاته بلغت من الدقة والكمالِ درجةً يكاد أن يكتشف بها حتى السموات، ثم عزا كلَّ الأخطاء إلى أن مَنْ حوله لا يصغون لكلامه ولا يفقهونه ولا يطيعونه؛ فإنَّ هذا هو عينُ الهديانِ الفرعونيِّ القائل: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٢٤/٧٩)، إلا أن التعبيرَ عنه جاء بأسلوبٍ مختلفٍ.

نعم، فلا بدَّ من التناسبِ الطرديِّ بين ما يقوم به الإنسان من أعمال وبين محاسبة النفس عما يصدر منها من زلات وهفوات، ولا بدَّ أن تتعمق المحاسبة أكثر فأكثر كلما ازدادت أعباء الوظيفة؛ بمعنى أنه كلما ازدادت الدوائر المتداخلة التي يعمل الإنسان في إطارها كلما كان عليه أن يعزو لنفسه شتى الأخطاء والإخفاقات التي تقع في أيِّ دائرة منها؛ فينبغي له أن يُفتش عن الأسباب في طيات نفسه، وأن يحملها مسؤوليته ذلك كله، لأنَّها لم تستطع أن توثق صلتها بالله ﷻ، ولأنَّها لم تستشعر الإسلام بكلِّ جوانحه، ولم تستوعب الدساتير التي وضعها سيّد الأنام ﷺ، ولم تُقيم الظروف التي تعيش فيها، ولم تتعرّف جيّدًا على الخصوم.

### كلُّ جمالٍ منه، وكلُّ خطأٍ وقصورٍ مِنَّا

والحقُّ أن القرآن الكريم قد وضع دستورًا واضحًا في هذا الأمر، والآية التالية تُعني عن كثيرٍ من الكلام، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (سورة الشُّورَى: ٤٢/٣٠).

وهنا يُبينُ الحقُّ تعالى أن ما يقع من أخطاءٍ وثرعاتٍ ناجمٌ عما رنت إليه أعينكم، وسمعت به آذانكم، وعالجته عقولكم، وتشدقت به أفواهكم، وأمسكت به أيديكم، وخطت إليه أرجلكم، وعبرت عنه مشاعركم... إلى غير ذلك من الأمور التي تتنافى والغاية من الخلق، ويعفو الله عن كثير.

ويقول الرسول ﷺ: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ" (٥٩)، مشيراً إلى أن الإنسان بفطرته مهياً للخطيأ وغرضة له، لكن المهم هو أن يعي خطيأه فيعمل على تداركه، فنجد حتى الخلفاء الراشدين يلومون أنفسهم بعبارات مثل: "ليتني فعلتُ هذا، وددتُ أني لم أفعل هذا...". أجل، لقد كان هؤلاء الخلفاء العظام يحاسبون أنفسهم، ولا يستنكفون عن كشف بعض الأخطاء التي اعترت أعمالهم -عِلماً أن أخطاءهم وهم المقربون حسناً بالنسبة لغيرهم-.

### استقراء الحوادث بشكل صحيح

ينبغي للإنسان أن يعتقد بأن المحن والمصائب التي تُلمُّ به إنما هي من عند نفسه، حتى وإن لم تكن مرتبطة من جهة ظهورها بإرادته وحتى إن لم يتعمدها أصلاً؛ فمثلاً عليه ألا يعتبر الشوكة التي يُشاكُّها في قدمه أمراً عرضاً أو صدفةً إن جاز التعبير، بل عليه أن يعتقد أنها نتيجة عيوبه وأخطائه الشخصية، وللتوضيح والتمثيل أسوقُ الحادثة الآتية فأقول: "إن لكم صديقاً يحقن نفسه بالإنسولين مرتين أو ثلاثاً يومياً، فإنه إن سقطت من يده حافظةُ إبرة الحقنة فعَلَّ وربطَ ذلك بأنه "لم يبدأ باسم الله تعالى" قائلاً: "إلهي! لو أنني بدأتُ باسمك لَمَا سَقَطَتْ هذه من يدي"، وكذلك أيضاً لو أصابت الإبرة عصباً أو شعيرةً دمويةً في بدنه أثناء الحقن فسال منه الدمُ عَزّاً الأمرَ إلى انحرافاته وعدم استقامته في الفكر وعجزه عن الصلة بالله تعالى والارتباط به؛ هذا هو التصرف والسلوك الواجب علينا اتخاذه وانتهاجه تجاه الابتلاءات والمصائب، فالإنسان إن لم يؤمن بأن ما يصدر من نقص أو خلل أو عيب نابغ من نفسه ولم يسألها عن ذلك؛

عجز -مدى حياته- عن التخلُّص مطلقاً من سوء الظنِّ واتِّهام الآخرين، بل إنه يظنُّ دائماً أنَّ من حوله من الناس هم مَنْ يُحوَّلُ تصرِّفاته وسلوكياته الإيجابية إلى سلبية ويُعرَّضُ أعماله للخطر، ونظراً لعجزه عن رؤية عيوبه وإدراكها فهو عن تداركها وتلافيها أعجزُ.

هذا وإنَّ الإنسان الذي يُدرك أخطاءه ويعيها يفكر في الأمر ملياً كلِّماً واجهته حادثة سلبية، ويبدأ في البحث والتنقيب عن سببٍ بديلة تكفل سلامته من الوقوع في الخطأ نفسه مجدداً. أجل، إنَّ الإنسان الذي يعتبر أنَّ الفشل والخطأ نابعٌ من ذاته يتحرَّك لاحقاً في إطار المنطق والعقل كي لا يقع ثانيةً في المشكلة ذاتها، ويسعى لاتخاذ جميع التدابير اللازمة، فمثلاً: إنَّ الإداريَّ الذي يتولَّى إدارةً وتوجيه مجموعةٍ من الناس، إذا ما نشبتْ خلافاتٌ بين أفرادٍ مجموعته فإنه سيأخذُ الدروسَ ويستقي العبرَ من ذلك، ويدرس جميع الاحتمالات حتى يمنع تكرُّر المنغصات نفسها مرةً أخرى، ويُنتجُ حلولاً متعدِّدة تحسُّباً لأيِّ طارئٍ محتملٍ؛ أي إنَّ الخططَ والمشاريع التي يضعها ويُقرُّها ستحتوي من البداية على حلول بديلة متعدِّدة ومختلفة لمواجهة المشكلات المحتملة.

### الرجوع إلى العقل المشترك

هناك مبدأ مهمٌّ يكفل تحقيق الأعمال كاملةً وتامةً كما خُطِّطَ لها، ويحمي الإنسان من الوقوع في الخطأ والزلل، ألا وهو "الرجوع إلى العقل المشترك"، وقد بيَّن سلطان الكلِّم عليه السلام أنه "مَا خَابَ مَنْ اسْتَخَارَ، وَلَا نِدِمَ مَنْ اسْتَشَارَ"<sup>(٦٠)</sup>، انظروا: إن سيدنا رسولَ الله صلى الله عليه وآله رغم أنه مؤيِّدٌ بالوحي ومرتبِّطٌ بما وراء السماوات، فإنه يُخضِعُ كلَّ أمرٍ للمشورة والرأي؛ إذ

(٦٠) الطبراني: المعجم الأوسط، ٣٦٥/٦؛ المعجم الصغير، ١٧٥/٢؛ القضاي: مسند الشهاب، ٧/٢.

كان يستشير أصحابه ممن علمهم هو ﷺ ماهية الدين والحق والحقيقة والمشورة. أجل، كان يُنحى رفعة وتفوقه المطلق جانبًا، ويشاور أصحابه بشأن المشكلات والنوازل بصفته واحدًا منهم، لقد كان سيّد السادات ﷺ يُفعل هذا رغم أنه معصومٌ من الخطأ؛ إذًا فإن أفضل الطرق لتقليل احتمالية الوقوع في الخطأ من أمثالنا من البشر -الأكثر عرضة للخطأ والزلل- هو إحالة المسائل والقضايا والنوازل إلى نظر العقل المشترك.

وإنّ الفرد والمجتمع اليوم ليعيش في مواجهة مباشرة مع سلسلة من المشكلات، فإن لم تُعملوا آية الاستشارة التي تستطيع أن تحلّ أعتى المشكلات المستعصية وتُفعلوها، فإنكم ستقعون تحت وطأة سلسلة من الأخطاء، ثم يُداخلكم إحساس بالذنب، فتبحثون حولكم عن ارتكب هذا الذنب، وفي النهاية لا يبقى قلب حولكم إلّا وقد حطّمتموه، ولا إنسان إلّا وقد أغضبتموه، ورغم أنّ الذنب والقبح من عند أنفسكم فإنكم لا تفتوّون تتهمون منّ حولكم، وتزغزعون ثقتهم بكم؛ فتبعدونهم عنكم وتُفِرّونهم منكم، وكما قال الشاعر:

لا تدوم الدولة والملك لأحد  
ولا الفضة والذهب ولا العيش الرغد  
أما الفن والمهارة فأصلاح قلبٍ خربٍ  
هكذا علّمنا الأحد الفرد الصمد

لو بقي الذهب والفضة لأحد ونفعاه لكان قارون أولى بذلك، ولكنه حُسفت به الأرض مع خزائنه، وليس هذا فحسب، بل إنّ الناس سيظلّون يخسفون به الأرض معنوياً كلّما قرؤوا قول الله تعالى: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ ❁

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئِنَّ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ  
 مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئِنُّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٢٨﴾  
 (سورة الفَصِّص: ٢٨-٨١-٨٢)، ومن هنا فإن الفن والمهارة والحدق الحقيقي في  
 إصلاح القلوب لا في تحطيمها، وكما يقول "يونس أمره":

جئنا لِنُشِيدَ القلوب ونبنيها لا لنهدمها أو نُفنيها

أجل، إن وظيفتنا هي إصلاح القلوب وعلاجها لا هدمها وتخريبها،  
 لذا فعلى الإنسان ألا ينسب إلى الآخرين ما ارتكبه هو من أخطاء، وألا  
 يتهمهم بما قارفه من زلات؛ فهو بذلك يحطم ويهدم قلوباً كان ينبغي له  
 أن يُشيدها ويبنيها.





## النفس المطمئنة

سؤال: إن من جملة الصِّغِ التي أوصانا النبي ﷺ أن ندعو بها قوله: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَفْسًا بِكَ مُطْمَئِنَّةً، تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ، وَتَرْضَى بِقَضَائِكَ، وَتَقْنَعُ بِعَطَائِكَ"<sup>(٦١)</sup>، فما الذي يمكن أن نفهمه من لفظة "النفس المطمئنة" الواردة في هذا الدعاء الشريف؟

الجواب: إن الحديث حول النفس المطمئنة يتطلّب استطرادًا بعض الشيء، يقول النبي الأكرم ﷺ في الحديث الشريف: "أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ"<sup>(٦٢)</sup>.

وهنا يشير النبي ﷺ إلى أن النفس هي الدّ أعداء الإنسان؛ وعليه أن يتعهدها بالمجاهدة والتزكية على محور الدقة والحذر، وكما هو معلوم لمّا رجع النبي ﷺ من جهاده مع المشركين قال: "قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ"، قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الْأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:

(٦١) الطبراني: المعجم الكبير، ٩٩/٨.

(٦٢) الديلمي: الفردوس بماثور الخطاب، ٤٠٨/٣.

"مُجَاهِدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ"<sup>(٦٣)</sup>؛ لَأَنَّ مَجَاهِدَةَ الْإِنْسَانَ لَعَدْوٍ خَفِيِّ بَيْنَ جَنَابَتِهِ يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ لِلْهَجُومِ عَلَيْهِ لَهُوَ أَصْعَبُ كَثِيرًا مِنْ جِهَادِ الْعَدُوِّ الَّذِي يَرَاهُ عَيَانًا بَيِّنًا أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَمَهْمَا بَلَغَتْ الصَّعُوبَاتُ الْمَادِيَّةَ الَّتِي تَتَخَلَّلُ جِهَادَ الْأَعْدَاءِ مِنْ تَضَارِبٍ وَاقْتِتَالٍ فَتَمَّةٍ اِحْتِمَالِيَّةٍ لِلظَّفَرِ بِالْغَنَائِمِ أَوْ مَا شَابَهَا مِنْ مَكْتَسَبَاتٍ آجِلَةٍ بِوُقُوعِ النُّصْرِ، غَيْرَ أَنَّ مَا يَجْنِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ مَجَاهِدَتِهِ لِنَفْسِهِ وَغَلْبَتِهِ عَلَيْهَا وَقَهْرُهَا لَا يَدْرِكُهُ غَالِبًا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، وَإِنَّمَا يَفُوزُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَالْحَالُ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبِيعَتِهِ يَطْمَعُ فِي الثَّوَابِ الْآتِي الْعَاجِلِ كَمَا قَالَ رَبَّنَا ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢﴾﴾ (سورة القيامة: ٢٠/٧٥-٢١).

أجل، إن الإنسان بطبيعته يريد أن يحصل على نتيجة سعيه وجهده على الفور، وأن ينال أجر عمله على وجه السرعة، وعلى ذلك فالجهاد من أجل إعلاء كلمة الله وإن كان كبيرًا بحد ذاته إلا أنه يظل صغيرًا مقارنة بالجهاد الأكبر، وإن المجاهدة التي نتحدث عنها تكون لأولى مراتب النفس وهي "النفس الأمارة بالسوء": ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ ﴿١﴾ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾ (سورة يوسف: ٥٣/١٢).

### النفس اللوامة

كما هو معلوم فإن النفس التي هي ألد أعداء الإنسان وإن كان من شأنها أن تأمر بالسوء إلا أنها مهتأة أيضًا للتبدل والترقي، ولو أننا أحسننا تربيتها وتزكيتها لتحوّلت إلى مطية تقرب الإنسان من الله وتجره نحو الفلاح، ومثال تبدل ورقبي النفس قوله ﷻ: ﴿وَلَا أُفْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿١﴾﴾ (سورة القيامة: ٢/٧٥).

فالنفس هنا هي تلك التي خطت الخطوة الأولى وحققت الانطلاقة الأولى في مثل هذا التبدل والترقي، وهي التي تلوم صاحبها على ما أصابه من خطأٍ أو ارتكبه من معاصٍ، فتحاسبه وتجعله يبحث عن سبيل للخلاص ممّا تردى به من دركات اللوثيات، أو عن أسبابٍ أخرى للكفاح حتى لا يتكرّر سقوطه في نفس الأخطاء والمعاصي مرّةً أخرى، وتسوقه إلى التوبة والاستغفار، وإنّ تخلّص الإنسان من أسارة نفسه الأمارّة، وانتقاله إلى مرتبة النفس اللوامة له أهميةٌ بالغة في تزكية النفس وترقيتها؛ لأنّ هذه الخطوة هي نقطة انطلاقٍ أولى على سلّم مراتب النفس الأخرى، فلا يتحقّق ارتقاء الإنسان تدريجيًّا إلى النفس المُلهمة، ومنها إلى النفس المطمئنة، وإلى النفس الراضية، فالنفس المرضية، وصولًا إلى النفس الصافية أو الزكية إلا بالانتقال أولاً من النفس الأمارّة إلى النفس اللوامة، وكما أنّ الزاوية الصغيرة في مركز الدائرة تشكّل زاوية كبيرة في محيطها فكذلك هذه الانطلاقة وإن كانت صغيرة في المركز إلا أنّ لها أهميةً كبيرة بالنسبة للنفس، كما أنّها صعبةٌ بقدر أهميتها؛ لأنه لا بد من تعيّرٍ معين حتى تتحقّق مثل هذه الانطلاقة؛ وتعبيرٍ آخر لا بد من محو القديم ووداع الماضي والإعراض عن الإلف والعادة، وسلوك طُرُقٍ جديدة.

وهكذا فإنّ النفس التي تلوم صاحبها على ما اقترفه من أخطاء وما ارتكبه من معاصٍ، وتتوجّه دائماً إلى الله بقولها ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٣/٧)، وتكشف عن إرادتها وعزمها على عدم التردّي في هذه الذنوب مرّةً أخرى؛ إن استمرت على مكافحتها ومجاهدتها فإنها ترتقي إلى مرتبة النفس المُلهمة التي تخفق وتحلّق في سماء أفق القلب والروح.

### النفس الملهمة

والنفس الملهمة هي التي قطعت كلَّ السبل أمام أنواع الشرور متوجهةً إلى ربها ﷻ في حركاتها وسكناتها، وتتجلى فيها المواهب الإلهية بقدر ما فيها من الصفاء والنقاء والطهارة، وإن الله ليلهمها الحسنی والطیبات وما یفضي إلى رضوانه ﷻ، وهو القائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩/٢٩)، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿۱﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (سورة الشمس: ٧/٩١-٨).

### النفس المطمئنة

والنفس المطمئنة هي التي بلغت أوج الكمالات في أفق الإيمان والعرفان، وأغلقت الأبواب وأصدتها دون كلِّ الأشياء ما عدا رضا الله تعالى ومرضاته، فلم يكن لها أي تشؤفٍ آخر، يقول جل وعلا: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿۱﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿۲﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿۳﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ (سورة الفجر: ٢٧/٨٩-٣٠).

مثل هذه النفس تعيش دائماً في توجهٍ إلى الله، وتستغل كلَّ دقيقةٍ أو ثانيةٍ من عمرها في سبيل الفوز برضا الله، وترضى دائماً بقضاء الله تعالى وقدره؛ إذ إنَّ إحساس الإنسان بالرضا في نفسه عن الإجراءات الإلهية لهو مؤشِّرٌ على رضا الله تعالى عنه أيضاً؛ وعلى ذلك يرى بعض المحققين أن النفس الراضية والنفس المرضية بمثابة جناحين مفتوحين للنفس المطمئنة، فمثل هذا الشخص الذي يرضى الله عنه ويرضى عن الله لا يفرق بين الجفاء إن كان من جلاله والوفاء إن كان من جماله، فكلاهما صفاء بالنسبة له، فضلاً عن ذلك فإن هذا الإنسان على اعتبار أنه من أبطال "هل من مزيد؟" يحاول ويسعى إلى أن يزيد معرفته دائماً وأن يكون قريباً من ربه بناءً على قربه ﷻ منه، وذلك بتخطي المسافات التي تبعده عنه.

## النفس الراضية

نلاحظ أنّ سيدنا رسول الله ﷺ طلب في دعائه المذكور أنّنا نُفَسًا مطمئنةً أولاً، ثم طلب لها أوصافاً يمكننا أن نسميها أعماق تلك النفس أو أجنحتها التي تُحلّق بها في الآفاق الربانية.

وبعد أن طلب النبي ﷺ من ربه "نفساً مطمئنةً" أعقب ذلك مباشرةً بِطَلَبٍ أن تكون هذه النفس "مؤمنةً بقاء الله المحتوم عاجلاً أم آجلاً" بقوله: "تُؤْمِنُ بِلِقَائِكَ"؛ لأن إيمانها بأن الطريق الذي تسيّر فيه سيوصلها إلى الذات الأبدية لا محالة، وتحرقها رغبةً في لقاء الله وشوقاً إليه، وانشغالها بذلك سيُلقي في أعماق الإنسان طمأنينةً راسخة لا تتزعزع.

ويرغبُ النبي الأكرم ﷺ بقوله: "وَتَرَضَى بِقَضَائِكَ" أن تملك النفس المطمئنة صفة الرضا بقضاء الله تعالى، ومع أنّ بعض العلماء عرّف القضاء بأنه: تحديد الحقّ تعالى الأشياء وفقاً لـ"التعيّنات"؛ فإن معظم علماء أصول الدين يرون أنّ القضاء هو: إنفاذ ما قُدِّرَ وكتب في لوح المحو والإثبات إذا ما حان وقته.

والحوادث التي يتعرّض لها الإنسان طوال حياته قد تكون حسنة، وقد تكون سيئةً بالنظر إلى ظاهرها، إلا أنّ الإنسان يستطيع ببنيته أن يُحوّل كلّ ما قُدِّره الله تعالى له إلى خير كامل؛ فإن استقبل -مثلاً- المحنّ والمصائب بالصبر والرضا، وقرن كلّ نعمةٍ ونجاحٍ بالحمد والشكر فقد نجح في توجيه هذا كله إلى ما يعود بالنفع عليه، لكن إن كان يتشكّى ويسبّ القدرَ وعابه كلما أصابه "جفاءً من جلاله تعالى"، وأنكر الجميل وجحد كلما أصابه "وفاءً من جماله تعالى"، وإن زعم أنه أوتي ما أوتي على علمٍ عنده؛ صار هذا شراً وضرراً بالنسبة له، أي إن كون النعمة

أو النعمة خيرًا أو شرًا بالنسبة للإنسان أمرٌ مرتبط ومرهونٌ بموقفه تجاهها، والحاصل أن رضا الإنسان عن كلِّ ما قدَّره الله ﷻ وقضاه بحقه أمرٌ في غاية الأهميَّة.

### النفس المرضيَّة

وأخيرًا يطلب سيِّدنا رسول الله ﷺ من الله تعالى بقوله: "وَتَقْنَعُ بَعْطَائِكَ" القناعة والقبول بكلِّ شيءٍ قدَّره له، ومَن به عليه، وثمَّة موضعٌ يجدرُ بالإنسان ألا يقنع عنده، بل عليه أن يحرص عليه ويستزيد منه، ألا وهو الإيمانُ بالله تعالى وطلبُ رضاه سبحانه؛ ويلزمه أن يتصرَّف بشغفٍ وهويس وحرصٍ شديدٍ طلبًا لرضا الله تعالى، وألا يقنع أو يتوقَّف عن طلب المزيد من ذلك، وبتعبيرٍ آخر؛ فإن كان ثمَّة موضعُ الطمع فيه والحرصُ محضُ عبادةٍ فهو محبةُ الله ورسوله. أجل، ينبغي للإنسان ألا يكتفي أبدًا بما يتحصَّل عليه وهو يسير في درب الرضا الإلهي، وعليه دومًا أن يستزيد من طلب رضاه تعالى قائلًا: "هل من مزيد، هل من مزيد؟" إلا أن الأساس فيما يتعلَّق بالأمور الخاصَّة بالدنيا والبدن والجسمانية هو القناعة بقضاء الحقِّ تعالى وقدَّره، وهذه صفةٌ أُخرى من صفات الإنسان الكامل الذي أبحرَ نحوَ عالم "النفس المطمئنة".

يطلب سيِّدنا رسول الله ﷺ من الحق تعالى هذه الأمور المهمة كُلِّها في دعائه هذا صباح مساء، ولا ريب أنه يطلب هذا كلُّه ارتباطًا بأفقه الفسيح وطلباته الخاصَّة السامية النبيلة، فإن قيِّمنا طلباته هذه من زاوية ضحالتنا وأهدافنا البسيطة؛ فقد ارتكبنا حماقةً وأسأنا الأدب معه ﷻ وصرنا وكأنا نحاول إنزاله إلى مستوانا الوضع نحن، إلا أنه ينبغي لنا أن نستفيد مما

طلبه سيدنا رسول الله ﷺ من أمورٍ في دعائه، ونَتَّخِذُهُ دَلِيلًا وَهَادِيًا لَنَا، وَفِي دَعَائِهِ هَذَا يُعَلِّي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْهَمَّةَ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِهَا؛ فَيُعَلِّمُنَا بِذَلِكَ أَنْ نَطْلُبَ الذَّرْوَةَ دَائِمًا وَالْمَعَالِيَ أَبَدًا، وَمَنْ تَمَّ فَيَنْبَغِي لَنَا أَلَّا تَضْعُفَ هَمُّنَا أَوْ تُفْتَرَّ أَبَدًا، بَلْ عَلَيْنَا كَذَلِكَ أَنْ نَشْحِذَ هَمَّانَا وَإِرَادَتَنَا دَائِمًا، فَعَلَوْ الْهَمَّةَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَنَسْعَى وَنَجْتَهِدُ طَلَبًا لِرِضَا اللَّهِ ﷻ بِنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ مُؤْمِنَةٍ حَتَّى آخِرِ نَفْسٍ مِنْ أَنْفَاسِنَا.

### النفس الزكية أو الصافية

وهذه هي ذروة سنام الأمر وغايته، وهي مرتبة المقربين، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (سورة الشمس: ٩/٩١)، وإن السالك حينما يتدرج على سلم مراتب النفس مرورًا بالمطمئنة وغيرها ويصل إلى هذه المرتبة العالية فإنه يحس بخفقان أجنحة الملائكة من حوله حتى لكأنه يتجول في الآفاق الملائكية، ولن نتعدى الحقيقة إن قلنا:

إن الإنسان حينما يبلغ هذه القمة يغدو مخلوقاً أعلى من الملائكة.





## روح الإرشاد والثبات على الحق

سؤال: يقول فضيلة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "إن ما في المصدر من قدسيّة هي التي تحضّ جمهور الأمة والعوام على الطاعة وتسوقهم إلى امتثال الأوامر أكثر من قوّة البرهان"<sup>(٦٤)</sup>، فما معنى هذا الكلام؟

الجواب: يُقصد بجمهور الأمة والعوام هنا من لا دراية لهم بالعلوم الإسلامية، المقلّدون في حياتهم الدينية، المتعذّر عليهم النفوذ إلى روح الدين، فمثل هؤلاء الناس يجهلون غالبًا الأدلة العقلية والمنطقية والفلسفية، أو لا قدرة لهم على معرفتها؛ فالاستنباطات العلميّة يصعبُ عليهم سبزها، والعلوم الوضعيّة يعانون في فهم مُعطياتها، ومن ثمّ فلا جدوى من مخاطبتهم بالأدلة العقلية والفلسفية، وهذا ما يُحتم علينا إذا أردنا أن نحدّثهم عن أيّ حكم شرعيّ فرضًا كان أم حرامًا، مباحًا كان أم مندوبًا، أن نقول لهم: "إن القرآن الكريم قد حكم بهذا في هذه المسألة، أو إن السنة الصحيحة تُقرّر هذا..."، فهذا الأسلوب هو الأكثر فاعليّة وإلزامًا بالنسبة لهم؛ لأن القرآن والسنة مصدران قدسيّان متينان في نظرهم -وهما بالفعل كذلك- لا بدّ من الاعتماد عليهما والامتثال لهما.

(٦٤) بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، اللوامع، ص ٨٢٦؛ المكتوبات، نوى الحقائق، ص ٥٧٢.

لذا يجب علينا في الحديث إلى العوام أن نبتعد عن التحليلات الفقهية والقواعد الكلية، وأن نعطى الأولوية للآيات القرآنية وأقوال النبي ﷺ وأفعاله؛ وبتعبير آخر: علينا أن نربط المسائل التي نرغب في الحديث عنها بحياة النبي ﷺ بأن نقول مثلاً: "كان سيد السادات عليه ألف ألف صلاة وسلام يتعامل هكذا، ويجلس هكذا، ويقوم هكذا، ويأكل هكذا، ويشرب هكذا... إلخ"، فهذا الأسلوب من شأنه أن يكون أكثر إقناعاً وتوجيهاً.

نعم، إن المصدر الأساس هو الكتاب والسنة، ومع ذلك فقد نالت بعض الشخصيات العظيمة ثقة الناس واحترامهم؛ نظراً لأن حياتهم كانت تتمحور حول الكتاب والسنة، ولا تحيد عنهما قيد أنملة، فصارت تُعتبر -بمعنى ما- مصدرًا نسبيًا بالنسبة لمخاطبيها.

### ثبات العلماء على الحق

يُروى أن الإمام أبا حنيفة النعمان عليه رحمة الله جلس بين يديه آلاف الطلاب وكان بعضهم من أمثال الأئمة أبي يوسف ومحمد وزُفر، كما كان يغشى حلقاته الدراسية أيضاً العوام والعديد من الناس رغم أنهم كانوا لا يستوعبون تمامًا ما يُقال لهم، حيث كان من العسير عليهم فهم القضايا العلمية التي يُحدثهم الإمام بها، ومناطاتها، ومبادئ أصول الفقه الخاصة بها، ومنهجية الاجتهاد، ولكن قُرب هذا الإمام من ربه وتبعيته لنبه ﷺ وثباته على طريق الحق قد أحدث تأثيراً أقوى من آلاف الأدلة في قلوب هؤلاء الناس.

وكذلك كان الإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل جميعاً؛ لم يتخلَّ هؤلاء الأئمة قطُّ عن مواقفهم الثابتة على طريق الحق، فحافظوا على مستوى الشموخ في مواقفهم إلى أن انتقلوا

إلى الرفيق الأعلى. أجل، قُيد الإمام الشافعي رحمته الله بالسلاسل بأمرٍ من الحكام المسلمين وأُتي به إلى بغداد من أجل استجوابه، ولكن لما رأى مَنْ حوله غزيرَ علمه وعمقَ معرفته أعرضوا عن أذاهم له، وأكبروه وعظّموه، كما زُجَّ بالإمام أحمد بن حنبل رحمته الله في السجن وضُرب بالسياط وتعرّض للإيذاء الشديد، ومع ذلك لم يُغيّر موقفه قطّ، وإذا ما نظرنا لاحقاً إلى الإمام الغزالي رحمته الله لألفيناه رجلاً راسخاً لا يحميد عن الحق قيد أنملة، يستهلك كل طاقاته ليعثّ روح التجديد في أعماق الأمة عبر شروح تتناول القضايا الدينية بشكل جديد ومنظارٍ فريد... وإنّ جمهور الأئمة والعوام لما شاهدوا هؤلاء العلماء وشهدوا مواقفهم الثابتة على الحق اتخذوهم مرشدين لهم جديرين بالافتداء والاتباع.

### الثبات على الاستقامة في الدعوة إلى الحق

ولقد سارَ بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله على نفس الطريق وذات المنهج؛ فحاول أن يكون صوتَ عصره وصداه، وسعى إلى أن يقيم صرح الإيمان مجدداً بما جاء به من أدلة عقلية ومنطقية وعلمية يواجه بها الضلالات الناجمة عن العلوم والفلسفة، واجتهد في عرض الإسلام عرضاً يتوافق مع العقول وينسجم مع الأرواح والمشاعر، ولو نقبتم ومحصّتم فيما صاغه من أفكار لتوصلتم إلى الكثير من الدرر واللالئ في أعماقها، كما أنكم إذا ما أقيتم نظرةً على كتابه "الملاحق" لتعرّفتم على ما وضعه من دساتير تعصم أتباعها من الزيغ والانحراف وتُنير الطريق أمام من يبغى خدمة الإيمان والقرآن، وإنه رحمته الله وإن لم يُدبج مؤلفاً من مؤلفاته التي تحار دونها العقول إلا أنّ موقفه الثابت الذي حافظ عليه في حياته التي تخطت عبئة الثمانين عاماً كان يروي غلّة الكثيرين. أجل، كان رحمته الله يعبر عن هذه الحقائق التي لا تسعها المجلدات بثباته وشموخه.

وقياساً على الواقع فإن عوامّ المؤمنين قد وثقوا منذ أمدٍ بعيدٍ بهؤلاء الفضلاء الذين بلغوا هذا المستوى من التوجه إلى الله، واطمأنوا إلى كلامهم وأفعالهم فاتبعوهم واقتدوا بهم، غير عابئين بالاستدلالات العقلية والقياسات المنطقية، متّخذين من مواقف هؤلاء موقفاً لهم، ومن وجهتهم وجهةً لأنفسهم.

### الانبعاث في أفق القلب والروح

ظهرت حركات الانبعاث والتجديد في أزمنةٍ مختلفة على أضربٍ متفاوتة، بيد أن نجاح عملية التجديد في المجتمع كان محصوراً بمن اتجهوا إلى عالمهم الداخلي، واستغرقوا في محاسبتهم لأنفسهم، وعاشوا وفقاً لأفق أرواحهم، وقضوا عمرهم في فلك الحياة القلبية والروحية، ولم يكن النجاح حليفاً لأولئك الذين أهملوا أفق القلب والروح، واكتفوا بعقلهم ومنطقهم فحسب، وأخذوا يحدثون الناس بعلمٍ يفتقر إلى العمل.

لقد كان أبطال القلب والروح يربضون خلف حركات الانبعاث والتجديد، ويمكننا أن نمثّل لهذه الأنفاس الباعثة على الحياة بعددٍ لا حصر له من أرباب القلوب على اختلاف مشاربهم ومسالكهم؛ فهؤلاء العظام نذروا أنفسهم في سبيل الحقّ، دون تشوّفٍ أو تفكيرٍ إلى أيّ أجرٍ دنيويٍّ أو في أيّ ثمرةٍ تُجنى من العمل، بل ربّوا في المحيط الذي شكّلوه حولهم رجال قلبٍ وروحٍ أعظم ممن تُربّونهم وتعلّمونهم في ألف مدرسة من مدارسكم.

ولا يفهم من كلامي أنه لا بدّ من غلق الباب دون العلم والحقائق العلمية، أو أن العلم والحقائق العلمية غير صالحين بالنسبة لنا، فلا جرم

أن العلم وسببَ تحصيله والحقائق العلمية تُعدّ مقوماتٍ مهمّةً لانبعاثنا من جديد، أما ما نتحدّث عنه هنا فهو ما تُحدّثه قدسيّة المصدر من تأثيرٍ بالغ الأهمّيّة؛ لأنّ هذا أمرٌ يتخلّله الصدق والإخلاص والقرب من الله والارتباط به والولاء له، وإنّ هذه العناصر لتحتوي أسرار التأثير العميق في نفس المخاطب.



## التشاركية في الأعمال الأخروية

سؤال: تطرق الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في مؤلفاته إلى أن إجمالي الثواب الناتج عن التشارك في الأعمال الأخروية سيُكتَبُ بتمامه في دفتر حسنات كلِّ فردٍ شارك في هذه الأعمال، فما الشروط التي ينبغي مراعاتها لنيل هذه البشرى وذاك الثواب؟

الجواب: تكلم الأستاذ بديع الزمان رحمته الله بشكلٍ جليٍّ واضحٍ حول مسألة التشاركية في الأعمال الأخروية، وذكر أن كلَّ فردٍ في الخدمة الإيمانية والقرآنية سيتشارك مع الآخرين فيما أحرزوه من ثواب<sup>(٦٥)</sup>، ولا أذكر أنني صادفتُ قبل الأستاذ النورسي أحدًا تناول هذه المسألة بهذا القدر من الوضوح والبيان، لا في كتب التصوّف ولا التفاسير ولا غيرها من المؤلفات الإسلامية الأخرى، حتى وإن تطرّق بعض العلماء الأجلاء من القدامى والمعاصرين إلى هذه المسألة إلا أن بيانات الأستاذ النورسي حولها تفرّدت بكونها غايةً في الجلاء والوضوح.

(٦٥) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: اللغات، اللعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٦.

إن ما يقوله بديع الزمان رحمه الله ليتناسب تماماً مع لطافة العالم الميتافيزيقي النوراني؛ لأن الأشياء النورانية تنعكس بعينها، فلو افترضنا أن هناك مصباحاً في غرفة بها أربع مرايا موزعة على الجدران، فلا شك أن ضوء هذا المصباح سينعكس بعينه على جميع المرايا في نفس اللحظة، وهكذا فإن الثواب الحاصل عن الاشتراك في الأعمال الأخروية سيكتب كاملاً بفضل من الله وعنايته في دفتر أعمال كل مشارك في هذه الأعمال.

### وجهة نظر تعتمد على القرآن والسنة

وبدهي أن الأستاذ النورسي استقى هذه الأفكار من المبادئ الأساسية للقرآن والسنة؛ لأننا إذا ما نظرنا إلى القرآن الكريم المعجز البيان والسنة النبوية الشريفة سنجد أن توفيق الله تعالى مرهونٌ بالوفاق والاتفاق، وأن الأعمال التي تخيم عليها روح الوحدة والتضامن تكافأ بثواب وبركة من نوع خاص، فمثلاً يقول ربنا ﷺ في كتابه:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ (سورة آل

عمران: ١٠٣/٣).

ويقول تعالى في آية أخرى:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: ٦٣/٨).

وهكذا تشير هاتان الآيتان إلى أن النجاح والتوفيق اللذين يصبان في مصلحة المجتمع يعتمدان على الوفاق والاتفاق بين المسلمين.



إن التشاركية في العمل وسيلة لإحراز كثيرٍ من النجاحات العظيمة حتى في الأعمال الدنيوية، وإليكم هذين المثالين اللذين ضربهما الأستاذ النورسي رحمته الله:

**المثال الأول:** قام عشرة من صنّاعِ إبرِ الخياطة بعملهم، كلٌّ على انفرادٍ، فكانت النتيجة ثلاثَ إبرٍ فقط لكلٍ منهم في اليوم الواحد، ثم اتفقوا على العمل حسب قاعدة "توحيد المساعي وتوزيع الأعمال" فأتى أحدهم بالحديد والآخر بالنار وقام الثالث بثقب الإبرة، ثم أدخلها أحدهم إلى النار وبدأ الآخر يحدها، وهكذا دواليك... فلم يذهب وقت أحدهم سدى، حيث انصرف كلٌّ منهم إلى عملٍ معيّن فأنجزه بسرعة، لأنه عملٌ جزئيٌّ بسيطٌ أولاً، ولاكتسابه الخبرة والمهارة فيه ثانياً، وحينما وزّعوا حصيلةً جهودهم رأوا أن نصيبَ كلِّ منهم في يومٍ واحد ثلاثمائة إبرة بدلاً من ثلاث إبرٍ.

**والمثال الثاني:** اشترك خمسةُ أشخاص في إشعال مصباحٍ زيتي، فوقع على أحدهم إحضارُ النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه وعلى الأخير علبة أعواد الثّقاب... فلَمّا أشعلوا المصباح أصبح كلٌّ منهم يتمتّع بمصباحٍ كامل، فلو كان لكلٍ من أولئك المشتركين مرآة كبيرة معلّقة بحائط، لانعكس في مرآته مصباح كامل من دون تجزؤٍ أو نقص<sup>(٦٦)</sup>.

نعم، الاشتراك في الأعمال الدنيوية يُفضي هكذا إلى سهولة العمل وحصول البركة فيه، ومن يدرك هذا يستطع أن يعي بطريق الأولى كيف أن البركة والفيوضات تحفّ الأمور الأخروية النورانية الشفافة جزاء ارتكازها على مبدأ التشاركية.

(٦٦) بديع الزمان سعيد النورسي: المصدر السابق.

ومن هنا نقول: إن إجماليّ الثواب الناتج عن الخدمات الجليلة التي تحققت اليوم بفضلٍ من الله وعنايته في أنحاء العالم وفي كلِّ مناحي الحياة ستعكس وتُسجَلُ بتمامها - بسرّ التشاركيّة في الأعمال الأخروية - في دفتر أعمال كلِّ فردٍ هزولٍ وسعى في هذا السبيل؛ بمعنى أن كلَّ فردٍ في هذه الدائرة الواسعة سيستفيد من سعي وجهد الملايين مثله، وعلى ذلك فإن تجاهل الثواب العام والتكالب على المصالح الفردية والرزوح تحت الأنانية وأغلال الكبر والغرور يعني الحرمان من هذا الثواب الجزيل؛ لأن الإنسان مهما كانت قابليّاته وقدراته، حتى وإن كان على مستوى دهاء خمسين من العباقرة فلن يمكنه وحده أن يقوم بخدمةٍ دائمةٍ ونافعةٍ للإنسانية في هذا العالم، ولن يحوز أيضاً هذا الأجر الأخرويّ الجزيل.

### جوهر العمل: الإخلاص

وإننا إذا ما ألقينا نظرةً إجماليّةً على ما ذكره الأستاذ النورسي في هذا الصدد سنرى أن ثمة شروطاً خاصّةً لاستحقاق مثل هذا الثواب الجزيل، وهذا يدعونا إلى أن نسأل أنفسنا: ما الوضع الذي ينبغي لنا أن نكون عليه في هذه الخدمات التي نحاول أن نرعاها ونلتفت حولها؟ وكيف نسير في هذا الطريق معاً؟ وكيف نتألف ونتحد معاً حتى نحظى بذلك الثواب؟

لقد وضع الأستاذ النورسي مبدأ "التشاركيّة المبنية على سرّ الإخلاص" شرطاً أوليّاً لإحراز مثل هذا الثواب، والإخلاص هو: أن يكون الأمر الإلهي هو الدافع إلى العمل لا غير، وألا ينتظر الإنسان لعمله ثمرةً سوى رضا الله ﷻ، ثم يترك جني ثمار هذا العمل إلى الآخرة، ولذا فإنّ المُخلص الحقيقيّ في الأمور الأخروية لا يهتمّ سوى إنجاز الخدمات الخيرية، بغضّ النظر عمّن يقوم بها، سواء أقام بها هو أو غيره،

وبتعبير آخر: المهمّ هو أن نثنّ أنينَ الناي مع القلوب المهمومة التي تخفق معاً فتبعث النشوة في قلوب الناس، أو أن نشكّل جوقة نبّغ بها الحقّ والحقيقة إليهم، ونوصلهم إلى الحضرة الإلهية بأن نجعلهم يعيشون أشكالاً من "الوجد"، و"القلق"، و"الهيمن".

فإذا كان هذا هو المقصد والهدف، فعلى الإنسان أن يشعر بسعادةٍ عارمةٍ عند تحقّق الغاية المنشودة بغضّ النظر عمّن حقّقها، بل عليه أن يسعدَ وكأنّه هو من حقّقها، ويضرب الأستاذ النورسي مثلاً في هذا السياق فيقول: "جاءني "الحافظ علي"، وقلت له: "إن خطّ الأخ "فلان" أجودّ من خطّك وأنه أكثر منك عملاً ونشاطاً"، وإذا بي أجد أن الحافظ علي يفتخر بإخلاصٍ وصدقٍ بتفوق الآخر عليه، بل التّدبّك بذلك وانشرح؛ وذلك لأن الآخر قد تقدّم عليه في الخدمة في سبيل الله، ولقد راقبت قلبه وأمعنت فيه بدقّة، وعلمت أنه ليس تصنعاً قطّ، بل شعرت أنه شعورٌ خالصٌ" (٦٧)، فيا له من مثالٍ جميلٍ ومحفّزٍ على التشاركية في الأعمال بسرّ الإخلاص!

وبالشكل نفسه يُشبّه الأستاذ بديع الزمان هذه المسألة بحملٍ كثر عظيمٍ ثقيلٍ والحفاظ عليه، ويقول بضرورة أن يُسرَّ حاملو هذا الكنز العظيم من اشتراكٍ غيرهم من الأقوياء الساعين إلى مساعدتهم. أجل، ينبغي أن يأخذ كلّ واحدٍ منا بطرفٍ من هذا الكنز فيساهم في حمله، دون أن يفكر أبداً من أيّ طرفٍ أمسكَ فحمل، وما دام لكلٍ مشتركٍ في حمل الكنز نصيبٌ منه فإنه ينبغي لكل فرد أن يفِي بحقّ العمل الواقع على عاتقه فيما يتعلّق بهذا الكنز وألا يُخاصمَ أو يُشاحنَ أحداً.

أما النجاح والوصول إلى سرّ الإخلاص هذا فلا يتحقق إلا بالانسلال من صبغة النفس والأنانية، والاصطباغ بروح الجماعة، ثم الافتخار بمزايا الأصحاب؛ فالحقيقة أن من ارتبط قلبياً بالخدمة الإيمانية والقرآنية ينبغي له ألا ينسى أبداً أنه ينشد مسؤوليته ووظيفة مهمة جداً تفوق وتسمو فوق كلّ مظاهر الشهرة والألقاب والنياشين، بل إنه لو قيل لمن هو على وعي وإدراك بالطريق الذي يسير فيه: "هنيئاً لك... أنت فعلت كذا وكذا"، لكان الجواب: "لا أتذكر، ولا أظنّ ذلك، لقد اجتهد الأصدقاء وسعوا كثيراً، وربما أنني كنتُ موجوداً بينهم في تلك الأثناء"، وهذا هو سرّ الإخلاص ومقياس التشاركية الذي تحدّث عنه الأستاذ.

### روح الأخوة والتضامن

لقد لفت الأستاذ الأنظار إلى "التساند المبني على سرّ الأخوة" باعتباره الشرط الثاني للاستفادة من التشاركية في الأعمال الأخرى؛ إذ إنّ التساند والتعاقد يتحقق حيث توجد الأخوة، ذلك أنّ سيدنا رسول الله ﷺ بينما كان يتحدّث عن رابطة الأخوة بين المسلمين لفت الانتباه إلى العلاقة التي بين أعضاء الجسد الواحد، فقال ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى" <sup>(٦٨)</sup>؛ فالأعضاء تشعر بالسهر والحمى إن أصاب أحدها ضررٌ أو ألمٌ وتستجيب له بأن تشاركه حاله تلك، والأمر كذلك تماماً بالنسبة للمؤمنين؛ إذ ينبغي لهم أن يُكوّنوا رابطة أخوة حقيقية صادقة فيما بينهم كتلك التي بين أعضاء الجسد الواحد؛ فإذا ما حدث أيُّ حادث في المجتمع الإسلامي تأثّر كلّ واحدٍ منهم بذلك وتألم له.

(٦٨) صحيح البخاري، الأدب، ٢٧؛ صحيح مسلم، البر، ٦٦.

أجل، إن القلوب المؤمنة التي نذرت أنفسها للحق يجدر بها أن تتعاضد وتتساند مثل أحجار القبة كي لا تهاوى فتسقط، عليها أن تتكاتف مع بعضها، وألا تسمح بتعثر أي من رفاق الدرب طوال الرحلة التي يقومون بها، فإن توحد كل رجال الخدمة في إطار هذا الفهم وصاروا جسداً واحداً، وعاشوا الحالة الروحية نفسها، ووصلوا إلى الوحدة والتعاون الحقيقي فسوف تفيض حسنة الملايين على دفتر كل فردٍ منهم على نحوٍ مستقلٍ دون أن ينقص من أجر أحدهم شيءٌ.

### التحرك والسعي وفقاً للعقل الجماعي

الشرط الثالث هو "توزيع المساعي المبني على سرّ الاتحاد"؛ أي اقتسام الأعمال والمسؤوليات والوظائف والمهام المطلوب إنجازها بروح الوحدة والاتحاد، وبعبارة أخرى: اكتساب ملكة العمل والتحرك الجمعي، والحدز كل الحدز من التحرك الفردي، ولأجل هذا ينبغي تقسيم الوظائف قبل الشروع في أي عمل، ويجب على كل شخص أن يقوم بما يستطيع القيام به، ويفعل ما يُدع هو في عمله وأدائه.

وبعد الوفاء بهذه الشروط الثلاثة إن اجتمع رجال الخدمة وتشاوروا فيما بينهم بأن أودعوا أمرهم إلى العقل الجماعي فلن يسقطوا - بإذن الله وعنايته - في الأخطاء التي سقط فيها العقل الفردي؛ لأن وصول عشرة عقول مجتمعة إلى نتيجة خاطئة يمثل احتمالاً نسبته واحد في المليون؛ فإن كان عدد العقول التي تشاورت وتناصحت "عشرين" فإن نسبة احتمال وقوعها في الخطأ سوف تقلّ بذلك القدر.

ومن هنا فإن القيام بالشؤون والأعمال ارتباطاً بالوعي الجمعي أمرٌ مهمٌ جداً، ولا ينبغي لإنسان - حتى وإن كان يمتلك من التدابير العبقريّة

الخارقة ما ليس لأحدٍ- أن يتصرّف بمفرده فيما يتعلّق بالمصلحة العامة والمجتمع من قضايا، وإنني لا أعلم في تاريخ الإنسانية أحدًا تحركَ بمفرده وقرّر بنفسه فاستطاع بعد ذلك أن يحقّق نجاحًا مستمرًا وتوفيقًا دائمًا. أجل، لم تستمرّ نجاحات "سزار (Sezar)" ولا "نابليون (Napolyon)" ولا "هتلر (Hitler)" ولا "موسيليني (Mussolini)"، بل لم يبق منها أيُّ شيء، لقد لمّعت في البداية كالنار في الهشيم، ثم ما لبثت أن خبّت وانطفأ وميضها بعد فترة قصيرة، لتبقى آثارها كومةً من الأتقاض المؤسفة المحزنة، أما الرواد الحقيقيون الذين يلجؤون إلى الوعي الجمعي فقد وُفّقوا ونجحوا بقدر ما ربطوا القضايا والأمور بمبدإ المشورة؛ فأنشؤوا مستقبل المجتمع الذي ينتسبون إليه بفضل ما حقّقوه من خدمات.

والحاصل: أن طريق الوصول إلى ما نعدُّ به التشاركية في الأعمال الأخروية دنيا وآخرة هو: النية الصادقة والإخلاص، والعقل المشترك والوعي الجمعي مع روح الأخوة والتضامن.

## الشورى المثالية

سؤال: ما هي أصول وآداب الشورى في الإسلام؟

الجواب: لقد بين القرآن الكريم بشكلٍ صريحٍ وواضحٍ لا يحتاج إلى تفسيرٍ أو تأويل أن الشورى وصف ملازم لجميع المسلمين، وأمر القلوب المؤمنة بتطبيق هذا المبدأ الذي لا غنى عنه في كل نواحي الحياة. فمثلاً يقول تعالى في سورة الشورى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (سورة الشورى: ٤٢/٣٨).

واقتران الشورى بالصلاة والإنفاق في هذه الآية يدل على أهمية الشورى في المجتمع المؤمن وأنها عمل يعادل العبادة، كما أن إطلاق اسم "الشورى" على هذه السورة لكونها تتضمن نصاً يتعلق بها له مغزى عميق.

وفي آية أخرى يأتي الأمر بالشورى صراحة، قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩/٣).

### الشورى.. حتى في لحظات الغضب والانكسار

ولا يعزب عن علمكم أن هذه الآية الكريمة قد شرفت بنزولها في أحلك اللحظات؛ إذ إن نزولها كان بعد تزعزع مؤقت تعرض له المسلمون خلال غزوة أحد وكان سيدنا رسول الله ﷺ قد استشار أصحابه فيما يتعلق بالخروج إلى الغزوة، ثم قرر الخروج نزولاً على رأي أصحابه، لكن بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قد وقعوا -عن غير قصد- في مخالفة أمر رسول الله ﷺ خلال المعركة؛ لعدم استيعابهم بعد الدقة في امتثال الأمر النبوي استيعاباً كاملاً، فتعرضوا حينذاك لهزّة مؤقتة -أقول هزّة حتى أتجنب التعبير بكلمة الهزيمة-، وجرح رسول الله ﷺ، وسال الدم المبارك من وجهه الشريف، واستشهد الكثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وفي هذا الموقف المتأزم تنزل هذه الآية الكريمة التي يستهلها ربنا تبارك وتعالى بملاطفة حبيبه ﷺ فيقول:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضُّوا مِنْ

حَوْلِكَ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩/٣).

ويمكننا أن نوضح المعنى المراد من هذه الآية الكريمة فنقول: أيها الحبيب المتأدب بأدب ربّه، لست -قطّ- فظًّا غليظًا حادّ الطباع، إذ لو كنت كذلك لما التفت هؤلاء الناس حولك وما خرجوا معك إلى ساحة المعركة، ولأنقضوا من حولك، أيها الحبيب المتأدب بأدب ربّه، إن كان قد وقع منهم خطأ في الاجتهاد ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي لا تتوان في أمر الشورى فشاوِر من حولك من الناس مرة أخرى.



أجل، لقد أحدثت هذه الهزة النسبية اختلالاً واضطراباً في كل شيء، وانفطر القلب النبوي فهو لا يخرج عن كونه بشراً، وفي هذه الأثناء التي جُرحت فيها مشاعر الكثيرين من الصحابة رضي الله عنهم تنزل هذه الآية اللطيفة التي تأمر بالتشاور بالأمر من جديد، والحال أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في حاجة إلى التشاور، فقد كان صلوات ربي وسلامه عليه - كما ذكر سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه - دائم الاتصال بالسماء صباح مساء، وقد أطلعته ربه على ما سيقول وما سيقدم عليه من خطوات وما سينجزه من أعمال، ولم تُعرقل دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عقبته ما، فإذا ما واجهته عقبته؛ مهّد الله له السبل وأفسح له الطرق وقال له: "سز، فالطريق طريقك والزمان زمانك"، لكن الرسول الهادي الأكمل - ليس في زمانه فقط بل في كل الأزمنة - كان يشاور أصحابه ليوحّجه أمته المكلفة باتباعه قائلاً بلسان الحال: "كونوا كما تكونون؛ رؤساء، أو ولاة، أو إداريين، ولكن لا تختزلوا الأمر في وجهة نظركم، واستشيروا غيركم ولا تُخضعوا الأحكام التي تصدرونها لأهوائكم الشخصية".

### الشورى تضمن شراكة الجميع في الأمر

الشورى مسألة مهمة جداً في الفعاليات والقرارات المتعلقة بالجميع، حتى يصبح الأمر أمر الجميع، فإن أسهم الإنسان برأيه في أمر ما، وإن كان رأياً عادياً اعتبر نفسه جزءاً من هذا الأمر، وحمل على عاتقه إنجازَه وإن كان ثقيلاً، لكن إن لم يؤخذ رأيه واقتراحاته ولم يساهم بعقله وفكره في الأمر؛ فإنه سينأى بنفسه عن التدخّل فيه وسيفض يديه عنه، فالواجب إذاً العمل على أن يستوعب الناس أن القيام بالأمر المهمة يشبه حمل كنز كبير، والحرص على مشاركة الآخرين في الأمر حتى تتكاتف الأيدي

وتتضافر الجهود ويخف هذا العبء الثقيل، ومن ثمّ فيمكننا القول إذا أهمل مبدأ الشورى في الأسرة ساد التوتر والاضطراب في أرجاء هذه الأسرة، وإن أهمل داخل هيئة أو مجتمع لحقهما الضرر الكبير، أما إن أهملت على مستوى الدولة أفضى ذلك إلى وقوع الكثير من التوتر والاضطرابات والمشاكل على نفس المستوى.

أجل، يقول الصادق المصدوق عليه السلام: "ما ندم من استشار" <sup>(٦٩)</sup>، ويفهم من إطلاق اللفظ هنا أنه لا بد من تطبيق هذا المبدأ في كل نواحي الحياة على أن تكون البداية من أصغر دائرة.

### آداب المناقشة والمدارسة عند الشورى

وبعد أن تطرّقنا بإيجاز إلى ضرورة وأهمية الشورى عمومًا؛ نعرّج الآن على شروط الشورى المثالية:

بدايةً أقول: إن اتّخذ الفرد قرارًا بينه وبين نفسه واعتبره من المسلّمات، ثم حاول نسج كلّ المسائل وفقًا لهذه المسلّمات فهذا يعني الجهل بروح الشورى، وحتى لا يتدخل الشخص بهواه في الأمر، ولا يحسن بهواه هو عين العقل والمنطق؛ ينبغي له أن يقيّم الآراء التي تردّ على خاطره - بشأن الأمور المناط التشاور حولها - بعقلٍ وحسّ وقلبٍ سليم، فضلًا عن حواسّه الباطنية، ويسجّل ملاحظاته حيال ذلك، ويحدّد إطار الموضوعات التي سيتمّ التشاور حولها، وبعد ذلك يطرح الموضوع على طاولة المشاورات، وليس من الصواب توقّع حسن القبول دائمًا لأفكارنا المطروحة عند التشاور حتى وإن كنّا نعتقد أصالة وجودة هذه الأفكار والمقترحات، ومن ثمّ فإذا لم تلق مقترحاتنا في مجلس الشورى حسنَ القبول؛ فعلينا أن نقول

لأنفسنا: "معنى ذلك أنني لم أستوعب المسألة تمامًا أو أنني أخطأت في فهمها"، ولا نعانده أو نصرّ على آرائنا.

أما عن الأصول التي يجب اتباعها في الشورى؛ فهي المناقشة والمدارسة، وهما لا يعينان قطعاً الجدل والخلاف، وقد حُرّرت في آداب المناقشة والمناظرة عدة مؤلفات، ووضعت لها مبادئ وضوابط حتى تتمحور حول الكتاب والسنة، والمناظرة تعني في الحقيقة: مقابلة النظائر في مسألة ما، فمثلاً عند التشاور في مسألة خاصة بالاقتصاد نجد أن كل الآراء تشبه بعضها بعضاً لأن الموضوع يدور حول الاقتصاد، والهدف الحقيقي هنا هو تبلور الحقيقة وظهورها؛ لأن "بوارق الحقيقة تتجلى من تصادم الأفكار"<sup>(٧٠)</sup>، أما الخلاف والجدال فلا يولدان ومضات الحقيقة، بل التفرقة والانقسام؛ لأن الأصل في المناظرة هو الإنصاف واحترام رأي الآخر، أما الجدل فالشأن فيه الإصرار على الرأي ومحاولة إيقاع الخصم في موقف حرج.

وفي الواقع لا يُمنى المغلوب بأيّ خسارة عند التشاور في أمرٍ ما؛ لأنه حينذاك يدرك خطأ رأيه، ويتعلّم شيئاً جديداً لم يعرفه من قبل، أما الغالب فما فعله هو أن كرّر رأيه في المسألة فحسب، وربما يصيبه الكبر والغرور ويقول: "انظروا لقد كنتُ محقاً في رأيي".

### الشورى ليست وسيلة لإرغام الآخرين على تقبل أفكارنا

وإنّ أهم مقاييس في تقويم المسائل بضوابط الإنصاف والضمير خلال الشورى ذلك المقياس الذي يذكره القرآن الكريم عند الحديث عن ميزان الأعمال، يقول تعالى:

(٧٠) "ضياء باشا (Ziya Paşa)" (١٨٢٥-١٨٨٠م): شاعر تركي، كان من دعاة التجديد، له ديوانان "ظفرنامه" و"خرابات" في ثلاثة مجلدات.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة

الزُّلْزَلَةِ: ٧/٩٩-٨).

بمعنى إن رجحت كفة الشر ولو بمقدار ذرة على كفة الخير فيما طرح من آراء حول أي مسألة فعلينا أن ننحي هذه الآراء جانباً، والعكس صحيح فإن رجحت كفة الخير ولو مثقال ذرة أيضاً على كفة الشر فعلينا الأخذ بالرأي المطروح والتمسك به، كما هو الشأن في ميزان الأعمال فما دام الحق ﷻ جعل رجحان الخير على الشر ميزاناً لعباده وحكم بذلك فعلينا نحن أيضاً أن نجعل هذا الأمر دستوراً لنا عند تشاورنا، وعلى ذلك فإن رجحت كفة الخير لرأي من الآراء المطروحة ولو مثقال ذرة فلا عبرة حينذاك للأقدمية واللقب والمنصب والشهرة والنفوذ؛ فإن اتخاذه مثل هذه الصفات معياراً رغم سطوع الحقيقة ووضوحها واستغلال عناصر القمع والإجبار؛ يعني تدمير روح الشورى.

أجل، لا بد أن تخلو الشورى من عنصر القمع وفرض الأفكار، فأفضل الناس هو ذلك الشخص الذي يجلس في مجلس الشورى مع ذوي الآراء الأخرى وكله آذاناً صاغيةً فإذا انتهى أحدهم من عرض فكرته يقول له: "أنت محق في هذا الأمر، وأنا أؤيد كل ما ذكرته، ولكن بجانب هذا فقد لاحظت فكرة بخاطري، فما تقولون بشأنها؟"، وهذا هو الإنسان الشريف الذي يحافظ على شرف المشورة، أما من لم يعبأ بمسألة الإنصاف إلى الطرف الآخر ويعتقد صحة رأيه دائماً فهو إنسان مسكين غلبته نفسه فاتخذها إلهاً، ومثل هذا المسكين الذي أسلس قياده إلى نفسه وخضع لها، إن تحدت فإنما يتحدت لحساب نفسه في الحقيقة وإن ظن أنه يتكلم باسم الدين والخدمة، ولا شك أن ما يطرحه من أفكارٍ سيقابل على الدوام برد فعلٍ سلبي.

من أجل ذلك يجب على الإنسان أثناء التشاور أن يتجنب الغلظة والغلظة في أقواله وأفعاله وتصرفاته، وأن يهذب أفكاره حتى يضمن حسن القبول لها، فإن لم يتخل الإنسان عن حدّته وغلظته ولم يعرض أفكاره بأسلوبٍ لطيفٍ لئلا يستاء الآخرون وامتعصوا.

### الأولوية للحق لا للأقدمية والمنصب

ثمّة أناس ضعاف النفوس يحاولون خلال الاستشارة استغلال أقدميتهم ونفوذهم، وإرغام الآخرين على تقبل أفكارهم، ومثل هؤلاء الناس يستغلون صراحةً - وإن كان بلا قصد - خدماتهم التي يبذلونها من أجل الدين؛ في سبيل تكريس أقدميتهم وتعزيز مناصبهم، والحال أنه لا يحقّ لأحد أن يحجب اليمين والبركة التي تفيض بها الشورى بمثل تلك التصرفات الأنانية النفعية.

وفي هذا الصدد نورد الواقعة التالية: اجتمع الإمام الحسن البصري مع بعض الصحابة رضي الله عنهم في مجلس واحد، كان الذين يغشون هذا المجلس يوجهون الأسئلة للصحابة رضي الله عنهم ويراجعونهم، والحق أن هذا هو الذي يجب أن يكون؛ لأن هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم قد شهدوا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم واصطبغوا بجوهر هذا المجلس المبارك، وأعتقد أن شهود مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لمرة واحدة هو وسيلة لتنزّل الفيوضات والبركات بما يُعادل قراءة القرآن الكريم كاملاً عشر مرّات؛ لأن الحقّ تعالى كان يتجلّى في كلّ أفعاله صلى الله عليه وسلم وتصرفاته، وكلّما نظر أو استمع أو تكلم أو حرّك لسانه وشفّيته تبدّت حقائق إيمانه بالله تعالى، ويعبّر الشاعر الصوفي عن هذا الحال بقوله: كُلُّمَا سَجَدَ تَجَلَّى اللَّهُ.

بمعنى أن من ينظر إلى سيدنا رسول الله ﷺ وهو ينمحي أمام ربّه تعالى في سجوده يشعر بوجود الله تعالى بل وكأنه أمامه ﷻ، ولا يعني ذلك أبداً -معاذ الله- أن الذات الإلهية قد حلت في الذات النبوية، بل إن هذا تأكيدٌ على أن النبي ﷺ كان يعبر عن ربّه في كلّ أفعاله وتصرفاته، ولا جرم أن الصحابة الكرام رضوا عنهم الذين يغشون مجلسه ﷺ كانوا يعيشون جوّاً متميزاً، فإذا تصوّرنا أن هؤلاء الصحابة كانوا يرتبطون به ﷺ قلبياً وظلوا طوال عمرهم حريصين على شهود مجلسه ﷺ عدّة مرّات في اليوم؛ لأدركنا قيمة الإنصات لكلام هؤلاء الصحابة والتشاور معهم، فضلاً عن ذلك كانت الحياة بكلّ مجالاتها الاقتصادية والإدارية والاجتماعية تتمحور حول الدين، وترتبط بنصوصه، ولذا كان الناس يلجؤون إلى قواعد الدين الراسخة الثابتة في مسألة حلّ المشكلات الحياتية، وهذا هو السبب في أن الناس في زمان الإمام الحسن البصري رضي الله عنه كانوا يتردّدون على ساداتنا الصحابة الذين نهلوا من منبع الدين وما زالوا على قيد الحياة للاستفادة منهم وتبادل الرأي معهم.

وفي مجلس كان يجمع بين أحد الصحابة رضوا عنهم والإمام الحسن البصري طرّح سؤالاً على هذا الصحابي، فأجاب، فلما انتهى من الجواب جاء دور الحسن البصري رضي الله عنه في الكلام، وكان يجلس في الخلف، فلما شرع هذا الشاب -الذي يتراوح عمره ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين عاماً- في الكلام أخذت الصحابيّ الدهشة والحيرة، فقال ذلك الصحابي المنصف الذي يدور مع الحق أينما دار بما تعلّمه من أخلاق على يد سيدنا رسول الله ﷺ: "كيف تسألوننا وهذا الرجل بينكم؟".

نعم، كما شاهدنا في هذا المثال لم يستخدم الصحابي الكريم تبعيته لرسول الله ﷺ والمكانة والمنزلة التي تبوأها بصحبته لرسول الله عليه أكمل التحايا عنصراً للضغط والإجبار، ولكنه وجّه الأنظار إلى ذلك الشاب لما رأى لديه من حصافة رأيٍ وتأثيرٍ قويٍّ في الكلام، فضلاً عن أنه كان يعتقد أن كلام هذا الشاب هو أكثر نفعاً، وفي رأيي أن هذا هو الأسلوب الذي لا بدّ من مراعاته في استيعاب روح الشورى.

ومع الأسف تلاشت مسألة إحقاق الحقّ بهذا المستوى في أيامنا، فمن يتمتّع بقدرٍ من المكانة والمنزلة يريد أن يُسمع له دائماً وأن تنخرس ألسنة الآخرين عند حديثه، فضلاً عن ذلك نجد أن بعض الأفراد الذين يشكّلون مجلس الشورى بدلاً من الاستماع إلى كلام الآخرين يمهدون الردود للاعتراض على كلامه، وأحياناً يعاندون بلا داع، ويشعرون بضرورة أن يقولوا شيئاً للردّ على ما يقوله الطرف الآخر، وليس هذا فحسب بل ينسجون أحياناً أفكاراً شيطانية لإفحام الطرف المقابل، ومن ثمّ لا يمكن في مثل هذا الجوّ الاستفادة ممّا يطرحونه من أفكارٍ في مجلس الشورى وإن كانت عين الحقيقة.

بيد أن "شأن الحقّ عالٍ وسامٍ لا يُضحى به بأيّ شيءٍ كان" (٧١)، ومن ثمّ لا بدّ من توجيه جميع الأقوال والأفعال إلى طريق الحقّ، وهذا ما أكّد عليه بديع الزمان سعيد النورسي، فقد أوصى هذا الجبل الأشمّ طلابه ألا يأخذوا الكلام الصادر عنه على عواهنه لمجرد أنه تفوّه به، فهو نفسه قد يُخطئ وينسى، فيا ليت الجميع يتحلّى بهذه السعة من الأفق! ولا يغيبن عن أذهاننا ألته أن "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ" (٧٢)؛ ولسنا نحن مؤيّدون بالوحي كما الأنبياء ﷺ.

(٧١) بديع الزمان سعيد النورسي: السيرة الذاتية، ص ١١٧.

(٧٢) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٤٩؛ مسند الإمام أحمد، ٣٤٤/٢٠.

## يكفي أن تعبّر الحقيقة عن نفسها

من جانبٍ آخر ينبغي لنا ألا نزعج أو نتضايق إن ظهرت الحقيقة على يد الغير أو بفضل كلامهم، فإن كان هناك فكرة مقبولة معقولة وغيرك يستطيع أن يطرحها فليس من السلوك الإيماني أن تقول في نفسك: "لم لا أتكلم أنا وأحظى بتقدير وإعجاب الجميع بما أقدمه من أفكار جميلة؟" ولكن إن دعيت الضرورة إلى الحديث عن موضوع ما ولم يتكلم أحدٌ وكان عدم الكلام سيتسبب في ضياع الحق أو أن يعيش البعض شيئاً من الحرمان فيجب علينا حينذاك أن نقوم نحن بمهمة الحديث في هذا الموضوع إحقاقاً للحق وإعلاءً لشأئه، وعلينا في مثل هذا الموقف أن نراعي جيداً الجوّ العام ومدى تقبله لما يُقال؛ حتى لا يتسبب هذا الأمر في ردِّ فعلٍ سلبيّ، والأولى هو الصمت عند استشعار عدم الاحترام للكلام، بل إن هذا ما يقتضيه احترام الإنسان للفكرة التي سيقدمها؛ لأن المخاطبين إن أبدوا ردّاً فعلياً على ما يُقال منذ البداية فمن الصعب للغاية تقبلهم للكلام فيما بعد وإن كان حقاً، بل إن هؤلاء المخاطبين قد يُحاولون بشتى الطرق فيما بعد أن يختلقوا مسوّغات مختلفة فيما بينهم لعدم تطبيق هذه الفكرة. إذاً علينا أن نؤثر الصمت على الكلام إلى أن نستشعر باحترام الجوّ العام للحقيقة، فحينذاك لا بد من الحديث حتى يستفيد الجميع من الفكرة المطروحة.

وعلى من يشاركون في عملية التشاور أن تكون غايتهم إحقاق الحق، لا سيّما إن كانوا من ذوي الكلمة المسموعة فعليهم أن يتصرّفوا بدقة بالغة في هذا الأمر؛ لأن من المعروف أنّ هؤلاء إن تحدّثوا في أيّ أمرٍ لا قوا احتراماً بالغا من مخاطبيهم، ولكن قد يتخلّل كلامهم بعض الأخطاء



أيضاً، من أجل ذلك يجب عليهم إحقاقاً للحقّ ألا يخجلوا من الرجوع عن أخطائهم إن أدركوا خطأ كلامهم، ويتقبّلوا هذا الأمر برحابة صدرٍ.

فضلاً عن ذلك فإن تكلم من لا حقّ له في الكلام مع وجود من هو أولى به فقد يتسبّب هذا في إغفال المفيد من الكلام، وإثارة بعض الشائعات التي لا محلّ لها.

### فَرِّمَنِ الْغَيْبَةِ فَرَارِكُ مِنَ الْأَسَدِ

ومن الأمور التي يجب مراعاتها في الشورى هو الحذر من الوقوع في الغيبة أثناء الاستشارة، وإلا خسرتنا في موضعٍ هو أدعى للكسب، ودنسنا ألسنتنا وآثرناها على قلوبنا، وأطفأنا نور حياتنا الروحية والمعنوية في الوقت الذي كنا نظنّ فيه أننا نخدم في سبيل الحقّ، من أجل ذلك لا بدّ من مراعاة الدقّة البالغة لعدم الوقوع في الغيبة، فإن وقعنا فيها دون قصدٍ فلا بدّ من طلب السماح ممن اغتبناه، بل لا بد من تحديد إطار الموضوعات التي سنتحاور حولها حتى لا يُساق الناس إلى جهةٍ خاطئة، ولا ينفرج الباب لسوء الظن، وتجنّباً لمثل هذه الأمور يجب على من يتكلّمون وإن كان كلامهم هو محض الحقيقة أن يصمتوا عندما يتطلّب الأمر ذلك، عليهم أن يصمتوا أولاً، وإن تكلموا فلا بدّ أن يسبق كلامهم تفكيرٍ أعمق ويقولوا في أنفسهم: "كيف يمكننا أن نذكر هذه الحقيقة دون أن نجرح مشاعر أحد؟".

أجل، ينبغي أن يكون سكوت المؤمن تفكيراً، وكلامه حكمة؛ بمعنى أنّ الإنسان إن وجد الحكمة في كلامه تكلم وإلا سكّت، كما يقول الشاعر: "إن كنت محدثاً فحدّثنا عن الحبيب وإلا فاسكت"، فإن بدت أمارات للحديث عن أمورٍ لا توصل الناس إلى الله ولا تفسح المجال للوصول

إلى سيدنا رسول الله ﷺ فعلينا أن نسكتَ ونعضّ على هذا اللسان الشقي الذي أعطيناه من الأهمية ما يزيد عن القلب، فإن لم يستطع الإنسان أن يعضّ على لسانه مع أن الحال يقتضي ذلك فلن يسلم الآخرون من إيذاء هذا اللسان المتحرّر من ضوابطه.

ويجب علينا ألا ننسى أبداً أن الجروح التي تسببها الجراب من الممكن مداواتها أما الصدور التي جرحتها الكلمات فمن الصعب مداواتها وتعميرها.

## ضَعْفُ الْعِبُودِيَّةِ وَبُرُوزُ الْأُنَانِيَّةِ

سؤال: ذكرتم فيما مضى أن ضَعْفَ العبودية سببُ أساس في زيادة قوَّة الأنايية وحبِّ الذات، فما ماهيَّة العلاقة بين ضَعْفِ العبوديَّة وقوَّة الأنايية؟

الجواب: العبودية كلمة مشتقة من الجذر "عَبَدَ"، ومعناها أن يؤدي الإنسان مسؤولياته تجاه ربه، مستشعرًا خضوعه التام بين يديه، والعبادة أيضًا مشتقة من الجذر ذاته، غير أن بين الكلمتين بعض اختلاف في المعنى، فالعبادة بإيجاز هي: تحويل المعلومات النظرية الخاصة بالإيمان إلى واقع عملي في ظلِّ نظامٍ ونسقٍ معينين، أما العبوديَّة فهي: أن يمارس الإنسان حياته مستشعرًا حقيقة كونه عبدًا لله؛ بعبارة أخرى: العبوديَّة هي أن يتعمَّق الإنسان في الخضوع باستمرارٍ ويعيش حياته في ظلِّ الإحسان مستشعرًا مراقبة الله تعالى له، أما العبادة فهي أن يفني الإنسانُ بمسؤوليات عبوديَّته كما أمر ربه ﷻ.

فما من عبدٍ جعل همّه عبوديته واستشعرَ في ثنايا وجدانه شعورًا عميقًا لعباداته فأذاها ثم استطاع من خلال الممارسة والتدريب أن يتعمق في عبوديته، إلا انسلَّ من أيّ عبوديةٍ أخرى، إن السبيل الوحيد للتخلص من العبودية لغير الله تعالى هو أن يكون الإنسان عبدًا لله تعالى حقًّا، فمن لم يكن عبدًا لله تعالى فهو عبدٌ للأصنام والأيقونات والطواطم وأصحاب القوّة والنفوذ... إلخ.

والحق أن الله ﷻ هو الذات الأحديّة المستحقّة للعبادة، فهو - كما يقول أهل التصوّف - المعبودُ المطلق والمقصود بالاستحقاق؛ وهذا يعني أن حقّه علينا ووظيفتنا ومسؤوليتنا نحوه أن نعبده وأن يقترن جرائنا في كلّ لحظةٍ من حياتنا بشعور العبوديّة له ﷻ، وبعبارةٍ أخرى: إنه تعالى المقصودُ لأنه هو الله، والمحبوبُ لأنه هو الله، والمعبود لأنه هو الله، ولذا فإن عبودية غير الله من الأصنام والأيقونات والأساطير والطواطم وغيرها من المعبودات الناشئة عن الضلال والانحراف هي كتمرّ صريح وضلال بين؛ لأن الله تعالى هو المستحقّ والجدير بالعبادة، فهو المعبود الحقّ وحده دون سواه.

وهكذا فإن العبد إذا جعل همّه عبوديته فلا يفكر في الخضوع والتذلل والانحناء إلا إلى الله تعالى، ولا يرى نفسه أعلى أو أَميرَ من الآخرين مطلقًا، ولا يجعل لنفسه منزلةً أو مكانةً تعلو منزلة عبوديته؛ لأنه على وعي دائمٍ بأنه أمام المعبود المطلق ﷻ مجردُ عبدٍ تُقيّدُ عبوديّةُ عنقه بقيادها وتُحكّم الوثاق على قدمه بأغلالها، ومثل هذا الإنسان يعزّو دائمًا كلّ ما حقّقه من نجاحاتٍ وما أصابه من جمالٍ إلى الله ﷻ؛ وذلك لأنه أذاب نفسه وأنايته وذاتيته في بوتقة العبوديّة، ربّما تغرّه نفسه فتدور رأسه

وتتكدّر بصائره لما أحرزه من نجاحاتٍ تفوق إمكانياته، ولكِنَّه سرعان ما يقمع كلَّ هذه المشاعر السلبية التي برزت في داخله بشعور العبودية الكامن في أعماق روحه.

### التناسب العكسي

وكما رأينا ثمة تناسبٌ عكسي بين التعمّق في العبودية من جانبٍ وبين ازدياد قوّة الأناثية وحبّ الذات من جانبٍ آخر، بمعنى أنه بقدر ما يتعمّق الإنسان في عبوديته بقدر ما يحتاط لنفسه وأناثيته ويتمكن من السيطرة والتحكم في مشاعره السلبية التي تموج في داخله، وبالمقابل فإنّ الإنسان يُصبحُ أنانيًا بل وحتى نرجسيًا بقدر ابتعاده عن عبوديته لربه؛ لأنه مع الوقت ينسى نفسه كلّما ابتعد عن وظيفة العبودية التي تذكّره بماهيته، فينسب إلى نفسه كلّ ما أحرزه من نجاحاتٍ، بل إنه قد يتمنى أن تُنسب إليه حتى الأعمال الجميلة التي قام بها الآخرون، ومن ثمّ يجتذبه التصفيق والتهليل إليه جذبَ الدوامة.

أما من يقف خاضعًا معقود اليدين أمام الحقّ تعالى ويقضي حياته كلّها بهذا الشعور فلا ينسى نفسه أبدًا، ويقرن حركته دائميًا بشعور أنه مخلوقٌ عاجزٌ ضعيفٌ فإنّ مغلول القدمين طوقُ الرقّ مضروبٌ حول عنقه، وهذا الشعور بالعجز والفقر يُشعل الرغبة إلى أفق "هل من مزيد؟" من العبادة والعبودية، إن هذا الإنسان مهما أذى من العبادات أو صلّى آلافًا من الركعات دائميًا ما ينطلق لسانه بـ "اللهم ما عبدناك حقّ عبادتك يا معبود، وما شكرناك حقّ شكرك يا مشكور، وما عرفناك حقّ معرفتك يا معروف، يا من أنت الظاهر فليس فوقك شيء، ولو عرفناك حق المعرفة لَدُنْنا وتلاشينا..."؛ لأن هذا العبد يُدرك أن ما يقوم به من عباداتٍ هي بمثابة لا شيء بالنسبة للنعم التي منّ الله عليه بها.

## نِعْمٌ لَا تُعَدُّ تَتَطَلَّبُ شُكْرًا لَا يُحَدُّ

إن من أعظم نعم الله على الإنسان أنه قد علا فوق مستوى الجمادات، ووهبت له الحياة، فغدا كائنًا ذا شعور، ليس بحيوان أو نبات، وفوق كل ذلك عرف خالقه تعالى، وأتيحت له فرصة فتح أبواب الخلود بمفتاح مفعم بالأسرار كمفتاح الإيمان، فتلمس السبيل لأن يكون جديرًا بالجنة، فهذه بلا شك نعمٌ عظيمةٌ لا مقابل لها في الدنيا؛ لأن من أسبغ عليه كل هذه النعم العظيمة هو الله تبارك وتعالى.

فلو أن الإنسان وعى هذه النعم، وتوجه إلى ربه، وتعمق في العبودية، وصار بطلًا من أبطال "هل من مزيد؟"، وحاول دائمًا أن يزيد من معرفته ومحبه وعشقه واشتياقه نجاه الله -بفضله وكرمه- من دوامة الأنانية وحب الذات، وكما يقول الشيخ "محمد لطفي أفندي" رحمته الله:

ألا يحبّ المولى من أحبه؟

ألا يرضى عمّن هرول لنيل مرضاته؟

لو وقفت له على الباب..

وفديته بالروح والنفس والأحباب

وعملت بأمره، أما يُجزل لك الأجر والثواب؟

والحق أن الله تعالى يُرشدنا إلى ذاته ويشعرنا بوجوده عبر آلاف من الحوادث كل حين، وإننا لو حاولنا مقابل ذلك أن نتبع هذه الحوادث بدقةً وتيقنًا وفكرٍ منظمٍ منسقٍ، وسعينا إلى أن نجمع صورَ هذه الحوادث كلها على اختلافها حتى نفهم المعنى الذي تعبر عنه كليةً، وفششنا عن السبل التي تتيح لنا السير إليه تعالى؛ فلن يتركنا رحمته الله في منتصف الطريق؛ لأننا ما عهدنا عليه تعالى أنه تخلى عن أحدٍ سار إليه ألبته.

## إكسير العبودية في عصر الأناية

لقد توالى التاريخ فازدهرت فترات منه وأظلمت أخرى، فأحياناً ما كانت الأرض تعصي السماء، فتمسك السماء عنها ماءها، فتستحيل الأرض صحراء جرداء من أولها إلى آخرها، وأحياناً أخرى كانت السماء تفيض بوابلٍ من الرحمة زخاً زخاً؛ فتنبت الأرض سنابل بها سبعُ حبات أحياناً وسبعمئة حبة أحياناً أخرى. أجل، أحياناً ما كان النور يتغلب على الظلام حتى يتقلص الظلام تماماً، ويهيمن جوّ الروحانيين والملائكة على جوّ الشياطين، وبتعبيرٍ آخر: يسيطر عالمُ الملكوت على عالمِ المُلك، وخيرٌ مثال على ذلك هو عصر السعادة النبوي؛ إذ انعدم فيه المناخ الملائم للشياطين وانتشارهم هنا وهناك، ولقد شهدت العصور اللاحقة حقوباً زاهرةً تُشبه هذا العصر.

ولا يقلّ في يومنا هذا أيضاً عدد الذين يشعرون ويحسّون في كلّ ذرةٍ من أعماقهم بالعبودية لله تعالى، ويعيشون دوماً الإحساس بمعيته تعالى بفضل مشاعرهم العميقة التي تتجاوز مجرد الإحساس، ولو لم يكن الأمر كذلك لما ظلت هذه الأرض تدورُ في فلکها؛ لأن الله تعالى ينظر إليها بمنظور عباده الذين يؤدّون حق عبوديتهم مخلصين له الدين، أما أمثالنا من المجرمين المذنبين المتخبطين فإنه يعفو عنهم إكراماً لذوي الروحانيات العظيمة أولئك؛ فيمدّ في عمر الكون لأجل حرمتهم لديه، ولا يجعل عاليه سافله لأجل خاطرهم.

إن عصرنا عصر الأناية، إلا أنه بدأت فيه فترة جميلة من حيث العبادة والعبودية بعون الله تعالى؛ وفي الخبر: "إشْتَدِّي أَرْزَمَةٌ تُفَرِّجِي"<sup>(٧٣)</sup>؛ إن آخر

(٧٣) القضاعي: مسند الشهاب، ٤٣٦/١؛ الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٤٢٦/١.

نقطة في الظلام تشير إلى بدء النور والضياء؛ إذ يترأى سواداً حالك في الأفق قبل الشفق إلا أنه آخر سواد الليل، وإن جاز التعبير: فإن هذا يعني انبثاق خصائص الليل للمرة الأخيرة. أجل، إن الظلمات تكتنف الأفق كله مرة أخرى بكل حنقها وغيظها، لكن لواح الفجر الكاذب بعد ذلك يُعتبر أصدق شاهدٍ على طلوع الفجر الصادق؛ لأنه لم يخطئ من قبل قط؛ فحيثما وُلد الفجر الكاذب وُلد الفجر الصادق عقبه بمدة وجيزة جداً.

والحاصل أنه بقدر ما يتعمق الإنسان في العبادة والعبودية للحق تعالى -حتى وإن كان ذلك في عصر الأنانية- بقدر ما تتخلى عنه الأنانية وتهجره، ويضيئ مجالها شيئاً فشيئاً، تماماً كما تضيق دائرة الظلام كلما اتسعت دائرة النور؛ فالتضاد الذي بين الأنانية والعبودية هكذا بالضبط تماماً؛ إذ يتطور أحدهما على حساب الآخر، وبقدر ما يتعمق العبد في العبودية بقدر ما تضمحل فيه الأنانية، فيعزو ذلك الإنسان كل شيء إلى القدرة الإلهية مع مرور الوقت، أما قيمة النجاحات التي يحققها فإنه يقدرها بناءً على تحقق رضاه تعالى وتوجهه سبحانه من عدمه، وفي النهاية تذوب وتتلاشى أنانيته وحبّه لذاته تماماً ويفنى عن نفسه ويبقى بالله ﷻ، يذكره ويصدق به في كل مكان يتجول فيه.



## دعاء جامعٌ لسيدنا رسول الله ﷺ

سؤال: بعد نزول أوائل سورة "المؤمنون" دعا سيدنا رسول الله ﷺ ربّه سبحانه قائلاً: "اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَأَثِرْنَا وَلَا تُؤْثِر عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَأَرْضِ عَنَّا" (٧٤)، فما الرسائل التي يبثها هذا الدعاء في رُوح القلوب المؤمنة في الوقت الحالي خاصة؟

الجواب: ننوّه بدايةً بأنّ الله ﷻ قد خصّ نبيه ﷺ بنزول الوحي؛ ولذا فليس لأحدٍ أن يصل إلى شعور أو إدراك كُنّه هذه الحقائق الجليلة بقدر أفضقه هو ﷺ، لهذا السبب يجب أن نعلم بدايةً أنّ ما قيل في معنى ومحتوى هذا الدعاء قاصرٌ عن بيان العمق والبُعد الحقيقي له.

وكما جاء في السؤال لقد دعا النبي ﷺ بهذا الدعاء بعد نزول أوائل سورة "المؤمنون" التي يقول فيها الحق ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (سورة المؤمنون:

١/٢٣-١١).

بعد نزول هذه الآيات المباركات التي تُعتبر هديةً من الله تعالى لنبيه وأُمَّته أدرك سيدنا رسول الله ﷺ عمقَ بشرى الفلاح التي زفّها الله تعالى للمؤمنين الذين حازوا على هذه الخصال المذكورة في الآية؛ فكان صلوات ربي وسلامه عليه يرفع أكفّ الضراعة إلى ربه ﷻ في أوقاتٍ مختلفة، ويدعو بهذا الدعاء شعورًا بالامتنان والشكر لله ﷻ.

### الطلب الأول: "اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا"

كان أول ما استهلّ به النبي ﷺ دعاءه هنا قوله: "اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا"، وأوّل احتمالٍ يتبادر إلى الأذهان هنا: أن النبي ﷺ سأل ربّه زيادة عدد الأمة المحمّديّة؛ لأن كثرة الأمة المحمّديّة كانت على الدوام من أسمى أمانيه ﷻ، ويدلّ على ذلك قول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه ابنُ عَبَّاسٍ (رضي الله عنه)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سِوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَإِذَا سِوَادٌ يَمَلَأُ الْأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُرْ هَهُنَا وَهَهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سِوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ" (٧٥)، فأدخل هذا المنظرَ الجبورَ والسرورَ على قلب سيدنا رسول الله ﷻ.

ومن خلال الأحاديث النبوية التي تشجّع وتحضّ على الزواج يمكننا أن ندرك مدى حرص النبي ﷺ واجتهاده بل ومجاهدته في سبيل إكثار عدد أُمَّته، فعلى سبيل المثال يقول ﷺ في حديث شريف: "تَنَاقَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أَبَاهِي بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (٧٦).

(٧٥) صحيح البخاري، الطب، ١٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٧٤.

(٧٦) مصنف عبد الرزاق، ١٧٣/٦.

والواقع أن مسألة الزواج - من حيث إنها مسألة فردية وأسرية - قد تبدو بسيطة بالنسبة للقضايا الدينية الكبيرة، وإن لها قيمة نسبية مقارنةً بهذه القضايا الكبيرة، ومع هذا أوصى النبي ﷺ أمته بالزواج والتكاثر، وذكر أن هذه الكثرة ستكون موضع مباحةٍ وافتخارٍ بالنسبة له صلوات الله وسلامه عليه، والمباحة هنا تعني الشعور بالامتنان تجاه الألفاظ الربانية.

### الكثرة العددية ليست هي الهدف الأساس

وقد يُراد من قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَقْصُصْنَا" الكثرة والزيادة من حيث الكيفية لا من حيث الكمية فقط؛ لأن الكيفية هي التي تُكسب قيمةً للكمية، فلا أهمية للكثرة العددية وحدها دون الكيفية، فكم من فئة كثيرة لم تستطع أن تقوم بما قام به عشرة أو عشرون ألفاً من الصحابة ﷺ، لقد أحبب هؤلاء الأبطال الأوائل الأفاضل في الإسلام مؤامرات أكبر إمبرطوريتين عملاقتين في ذلك الوقت - الساسانية والبيزنطية - وأخضعوهما لسلطانهم، وبذلك غيروا مصير العالم.

ورغم أن عدد المسلمين اليوم يبلغ حوالي مليار ونصف المليار نسمة فليس بوسعنا أن نقول إن هؤلاء المسلمين قد أدوا المهمة التي تتناسب مع هذه النسبة العددية الكبيرة؛ لأنهم اليوم ليسوا على المستوى الذي يريده القرآن الكريم، فهم في نزاعٍ وخلافٍ دائم، حتى إنهم أنهكوا بعضهم بسبب عدم خروجهم من دائرة التصارع والتنازع الفاسدة.

أجل، لما لم يستطع المسلمون أن يحققوا الوفاق والاتفاق فيما بينهم أخذ الخلاف والنزاع يُهدر طاقاتهم، فلم يحظوا بالعناية الإلهية، ولم يتقدموا ليتبوؤوا مكانتهم في مصاف التوازن الدولي، ولم تكف الكثرة العددية لأداء هذه المهمة العظيمة التي لا بد من القيام بها حتى تتبوأ الأمة مكانها في التوازن الدولي.

والواقع أننا إذا ما نظرنا إلى التاريخ بهذه النظرة لألفينا أمثلة باهرة على ذلك، فمثلاً كم من أناسٍ مخلصين هجروا أوطانهم في فترة ما من أجل غاية سامية، وصرخوا كلَّ جهودهم لتحقيق غاياتهم، فحقَّقوا أعمالاً عظيمةً، وأحرزوا نجاحاتٍ مباركةً مثمرة، ولكن لما أخذ هؤلاء الناس يتدنُّون في الروح والمعنى والفكر والشعور والحياة القلبية والروحية لم يتمكَّنوا من الحفاظ على الموقع الذي أحرزوه، بله التقدم والازدهار؛ رغم أنهم أكثر عدداً مقارنةً بالماضي.

أجل، لقد استكانوا للدعة والخمول والكسل، واستسلموا للخوف وحبِّ المنصب، ونسوا فكرة الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله، فلم تُغن عنهم كثرتهم العددية؛ حيث فقدوا قوتهم وتأثيرهم ونفوذهم، ولذا يمكن القول: إن النبي ﷺ عندما كان يتضرَّع إلى ربِّه قائلاً "زِدْنَا وَلَا تَقْصُصْنَا" كان يقصد علوَّ الدرجة والمكانة والقدر، وألا يعترينا نقصٌ في هذه المسألة، أي إنه كان يقصد زيادة الكيف إلى جانب الكم.

### أعظم النعم أن تعرف النعمة على أنها نعمة

ثم يقول ﷺ في دعائه: "وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا"، وهنا نجد ﷺ يسأل ربِّه أن يكون هو وأمته مظهرًا للإكرام الإلهي، لا الإمكانيات المادية والقوَّة والكشف والكرامة؛ وهذا يعني أن الإكرام الإلهي هو لطفٌ كبيرٌ من الله تعالى لا بدَّ من الحرص عليه، والإكرام من باب "إفْعَال"، لذا فقد يكون المعنى: اللهم أكرمنا، وأشعرنا على الدوام بأن هذه الألطاف هي من محض كرمك.

والحقُّ أن إدراكَ هذا الإكرام الإلهي والشعورَ به هو وسيلةٌ لحفظ الإنسان من الانزلاق والتردي؛ لأن من هو على وعيٍ بهذا الإكرام يدرك

أن كلَّ الجماليات التي يتمتع بها إنما هي مِنْهُ ﷻ، فلو نسب الإنسان هذه الجماليات إلى قدراته ومواهبه الشخصية كما فعل "قارون" وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (سورة القصص: ٢٨/٧٨)، فقد استصدر لنفسه دعوةً للذلة والمهانة، ومن ثمَّ يجب على الإنسان أن يرفع أكفَّ الضراعة إلى ربِّه، ويدعوه قائلاً: "اللهم لا تُهني ولا تُذلني بما اقترفته يداي من ذنوبٍ وآثامٍ أو بما ابتليتني به".

### اللهم لا تعاقبنا بالحرمان!

ثم يقول رسول الله ﷺ في دعائه: "وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا"؛ على الإنسان أن يسأل ربَّه النعم الدنيوية التي لا تُغويه ولا تضلُّه، بل من الأهميَّة بمكانٍ أن يسأل الحقَّ ﷻ كلَّ ما يريد، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "لِيَسْأَلَ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّىٰ يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ (أي أحدَ سيوره) إِذَا انْقَطَعَ" (٧٧)، ومن ثمَّ على الإنسان أن يسأل ربَّه ﷻ ما شاء؛ عشًا دافئًا يشبه روضةً من رياض الجنة، أو ولدًا صالحًا أو غير ذلك.

ومن هنا تتحدَّد قيمة ما يطلبه الإنسان بمستوى أفقه ومنزلته وغايته المثلى، فلا جرم أن الأسرة المطمئنة والأبناء الصالحين والإمكانات الماديَّة التي لا تُلجئه إلى مدِّ يديه إلى أحدٍ من الخلق هي نعمٌ كبيرة يجب طلبها من الله ﷻ، ولكن الذي يشغله الإحياء عن الحياة، والذي نذر نفسه لفكرة الإحياء، وفاضت عيناه بمشاعر الشفقة تجاه جميع الإنسانية؛ قد يغضُّ الطرف عن هذه المتع الدنيوية جميعها؛ لأن كلَّ ما يملأ أفقه هو: "اللهم إني لا أرغب أن أرى -وأنا على قيد الحياة- أي فتوحات أو نجاحات كنتُ سببًا فيها أو يُظنَّ أنني سببٌ فيها، لكني أرجوك يا ربي

أن تمنّ عليّ بأن أرى من قبري بعد الممات انتشارَ دين الإسلام المبين في كلِّ بقاع الأرض، ورفرفة الروح المحمّدية في كل الأرجاء، وتردّد الأذان في كلِّ أنحاء العالم، وخفقان القلوب باسمك جلّ جلالك في كلِّ الآفاق".

ومن ثمّ يمكن أن نفهم من قول النبي ﷺ "وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا" أن كلاً يسأل ربّه على قدر همّته، فقد يطلب هذا خمسة قروش، ويطلب ذاك ملايين، وقد لا يكفي آخر بهذا، ويطلب من الله تعالى السرمديّة والخلود، فعلى حين كان البعض يسأل ربّه بعض النعم الدنيويّة كان أصحاب الأفق الواسع من أمثال الإمام الغزالي، والإمام الرباني السرهندي، والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﷺ يسألون ويتبعون مرضاة الله ﷻ، ويسألون فتح طريق الجنة للإنسانية جمعاء. أجل، إن أمثالهم يقومون ويقعدون قائلين: اللهم أزهِق رُوحِي خمسين مرّةً في اليوم، ولكن أتوسّل إليك أن تُنقذ أمة محمدٍ من هذا البؤس والشقاء، وأن تتشبّها من هذا التردّي الذي لم يُسبق لها أن انحدرت إليه منذُ خلقتها.

وعلى ذلك فإن الذين يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله تعالى بالدعاء يستدعون الأفكار التي ألهمتهم بها درجاتهم.

### من أعظم الإفات دخول المسلمين تحت وصاية غيرهم

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في دعائه أيضاً: "وَأَوْزَنَا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا" وهذا يعني: "اللهم إن كان ثمة ترجيحٌ واختيارٌ فاخترنا وآثرنا!"، وبتعبيرٍ أشمل نقول: إن رسول الله ﷺ يطلب من الحقّ تعالى ألا يأذن للآخرين والأغيار بالسيادة على أمتّه، ولا أن يسوسوها ويضعوها تحت وصايتهم وأمرهم.

ويمكن أن تتعدد صورُ إثارة الله تعالى غيرنا علينا؛ فمثلاً إن لم نؤدِّ العبوديةَ حقّها، ولم نرعَ الأمانةَ حقَّ رعايتها، ونكصنا على أعقابنا في الدين فسوف يذهبنا الله تعالى ويأتي بقوم آخرين يستخلفهم بدلاً منّا في التوازنات الدولية، ولهذا السبب فإنه ينبغي لنا، بل يجب علينا أن نطلب من الله تعالى أن يُحلِّينا بأوصاف عباده المقبولين عنده، ونقول: "اللهم لا تستبدلنا بغيرنا! اللهم استعملنا واستخدمنا نحن في كلّ ما تريد وتشاء!" لأنّ تَحَلِّي الله عتاً كالأشياء الرثة واستخلاف غيرنا يعني تركنا إلى تفاهتنا وخصتنا الذاتية.

### نوع آخر من الامتحان: المحاباة

وقد لفتَ سيدنا رسول الله ﷺ انتباهنا إلى حقيقة أخرى تتعلق بالموضوع: "إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أُمَّةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ"<sup>(٧٨)</sup>.

وقد ظهرت هذه الحقيقة التي عبر عنها هذا الحديث بعد انتقاله ﷺ إلى أفق روجه، ولقد خصَّ القرآن الكريم الصحابة الكرام السابقين الأولين لهذه الأمة بالتقدير والإجلال لدرجة تكاد تحيرنا وتدهشنا إلا أن بعض اللاحقين من الناس لم يستطيعوا فهم ذلك، فقاموا بظلم الرعيل الأول في الإسلام من ذوي القدر العظيم عند الله وعند رسوله وجاروا عليهم؛ فالخوارج مثلاً عجزوا عن إدراك قيمة سيدنا علي كرم الله وجهه الذي حظي بألقاب سلطان الأولياء والحيدر الكرار وصهر النبي ﷺ، وبالشكل نفسه لم يتسنَّ لكثيرين من الناس ممّن عاشوا في عصر سيدنا الحسن والحسين أن يقدروهما قدرهما ويعترفوا بقيمتيهما اللائقة بهما.

كما أن بعض الحكّام الذين جاؤوا من بعدُ عجزوا عن الحفاظ على العدالة التي سادت في عهد الخلفاء الراشدين ولجؤوا إلى سبيل المحاباة؛ فكانوا -على سبيل المثال- إذا ما أرادوا إرسال أحدٍ حاكمًا أو واليًا على مكان ما أو قاسمًا للغنائم اختاروه من بين أقاربهم، بينما لم يُحابِ أيُّ واحدٍ من الخلفاء الراشدين قريبًا ولا نسيبًا، ولم يميّزوا القريب من البعيد، ولم يُجاملوا أحدًا أبدًا؛ لأن الأمة التي تُوَسَّد الأمانة لِغَيْرِ أَهْلِهَا، وتَعْهَدُ بمسؤولياتها إلى الأقارب دون غيرهم أُمَّةٌ قد انتهى أمرها، فكَبِرَ عليها أربَعًا.

أجل، لقد أخبر سيدنا رسول الله ﷺ أن ستكون من بعده أثره ومحاباة، وأوصى الأمة أن تصبر حتى تلقاه؛ لأن الصبر نهايته السلامة، ومثل هذه التوصية رسالة مهمّة جدًّا للمؤمنين في عصرنا لأن من بيدهم زمام الأمور ومقاليدها اليوم ربما يظلمون ويجورون على أصحاب الكفاءات عبر وضع عراقيل مختلفة في سبيلهم، فليظلموا وليعتدوا؛ المهمُّ أن تُواصلوا أنتم مسيركم وخدمتكم في سبيل الله تعالى في الاتجاه الذي تحسبون أنه الحقّ. أجل، ينبغي للأرواح التي نذرت أنفسها في سبيل الله تعالى أن تتعامل بفلسفة الاستغناء في مواجهة هذه النوعية من المحاباة والمحسوبيات، وتنتظر تقدير الحقّ تعالى في هذا الشأن؛ لأنه تعالى فعل برهانٍ على ما سيفعله من بعد، وهذا يعني أنه سيقدر كلّ الأشياء الجميلة مستقبلًا كما قدرها في السابق؛ يكفي لذلك أن نكون صادقين مخلصين له ﷻ وألا نُقصر في الارتباط به جلّ شأنه.



## سنام العبودية : أفق الرضا

وفي نهاية الحديث يطلب سيدنا رسول الله ﷺ من الله أن يجعلنا راضين وأن يرضى هو عنا أيضا بقوله: " وَأَرْضِنَا وَأَرْضَ عَنَّا"، وهذا الأمران متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما؛ لأن الله تعالى إن كان راضيا عن إنسان ما أَرْضاه، وبالشكل نفسه فإن رضا العبد عما يقدره ربه يعني رضا ربه عنه، ولأهل الله آراء مختلفة فيما يتعلق ببيان أيهما سبب للآخر، أو مسبب عنه؛ إذ يقول بعضهم إن إعطاء الإنسان إرادته حَقًّا، وطلبه سبيل الرضا يؤدي إلى نيل الرضا الإلهي، وقد ربطوا هذا بحديث سيدنا رسول الله ﷺ: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَعْلَمَ مَا مَنَزَلَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ مَا مَنَزَلَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ"<sup>(٧٩)</sup>، أي إن قيمتكم عند الذات الإلهية تكون موزونة بحسب تقديركم الله تعالى وإجلالكم إياه؛ فإن كنتم تحبونه أكثر من كل شيء وتقدرونه وتجلونه أكثر من الدنيا وما فيها فستجدون هذا التقدير والإجلال عند الله ولدى ساكني الملا الأعلى، أما البعض الآخر من أهل الله فقد قالوا: إن الله إن لم يرضَ لم يُرضَ العباد عنه، وقد عللوا ذلك بتقديم ذكر رضا الله تعالى أولاً في الآية الكريمة: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (سورة التوبة: ١٠٠/٩)، بينما قسم آخر من العلماء من بينهم الإمام القشيري قال: "إن الأمر بالنظر إلى بدايته هو كسبي مرتبط بالإرادة والعمل، وأما باعتبار نهايته فهو عن تجلِّ وحال".

وإذا نظرنا إلى المسألة وفقاً للعقيدة الماتريديّة فيجب على الإنسان -كشرطٍ عاديّ- كي يحظى برضا الله ﷻ أن يبذل جهده بشكلٍ إراديّ في سبيل هذا الرضا، وهذا أيضاً مرتبطٌ بأن يتدبّر الإنسان في ذاته والوجود

(٧٩) مسند البزار، ١٧/٣٠٧؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، ٦/١٧٦؛ البيهقي: شعب الإيمان، ١٠/١٠٩ (واللفظ للبيهقي).

من حوله، ويحلّل حقائق الحقيقة الإسلامية ويفهمها على نحو صحيح. أجل، إن الإنسان حين يرضى عن الله فإن الله ﷻ يتوجّه إليه برضوانه، ورضوانه هو الأكبر.

وختامًا: إن كلّ أمر من الأمور التي طلبها رسولنا الأكرم ﷺ في دعائه المبارك هذا له تأثيراته المهمّة في حياة المؤمنين، ولذلك فإنه ينبغي لنا نحن أيضًا أن نطلبها دائمًا من الحقّ ﷻ.

## الجدارة والاستحقاق

سؤال: ذكرتم من قبل أن مَنْ لم يحقق الجدارة والمسؤولية اللتين تقتضيهما الخدمة الإيمانية فهو خليق بالإقصاء عن دائرة الخدمة كما اقتضت سنة الله... وعلى ذلك فما الأوصاف اللازمة حتى يكون الإنسان جديرًا بعمله، ولا يتعرّض لمثل هذه العاقبة الوخيمة؟

الجواب: الجدارة هي أن يكون الإنسان كفؤًا للوظيفة التي يتقلدها، وأن يؤدّيها بحقّها، أما الاستحقاق فهو العاقبة الوخيمة التي تصيب الإنسان كنتيجة لما اقترفت يده من شرورٍ وما قام به من أعمالٍ سلبية، ولكنني أريد أن ألفت الانتباه إلى أنّ المعول عليه بالنسبة للجميع هو فضل الله ورحمته وإن كان الإنسان يتمتّع باللياقة والجدارة بالفعل، ومن ثمّ فإن الأساس في النجاحات التي يُحرزها الذين يمتلكون القدرات والاستعدادات العالية هو فضلُ الله ورحمته ﷻ وإن أثبتوا جدارتهم في الوظيفة التي أنيطت بهم، ومع ذلك فإننا إذا ما نظرنا إلى المسألة من منظور ما تقتضيه سنة الله ﷻ لألفينا الجدارة وسيلةً لإحراز مكتسباتٍ مهمّة، والاستحقاق سببًا لانقطاع هذه المكتسبات.

## شبكات وخلايا النفاق والاستحقاق

منذ فجر التاريخ وأهل الضلال وشبكات النفاق يحىكون المؤامرات ويدبّرون المكائد باطرادٍ على نحوٍ لا يمكن تصوّره؛ حتى تنتكس الخدمات الإيجابية النافعة التي تضطلع بها القلوب المؤمنة، وهذه المؤامرات وتلك المكائد تختلف ألوانها وأنماطها باختلاف الزمان والظروف والمكان، بل عندما أدركت شبكة النفاق عينها أن الأدوات التي كانوا يستخدمونها في وقتٍ سابقٍ لم تعد تُجدي نفعاً في الوقت الراهن وأنها لن توصلهم إلى النتيجة المرجوة عملوا على تطوير أدواتهم وأساليبهم مرّة أخرى، في محاولةٍ للحيلولة دون إقامة هذه الفعاليات الخيرة التي تقوم بها الأرواح المؤمنة.

وهكذا فإن مسألة وصول شبكات النفاق إلى أغراضها الدنيئة أو عدم وصولها يتوقف على ما إذا كان أرباب الغايات السامية يؤدّون حقّ المقام الذي هم فيه أو لا، وهل قاموا بالمسؤوليات التي وقعت على عاتقهم أو لا، وهل أثبتوا جدارتهم في هذا الأمر أو لا؟

فلو أنهم أدّوا وظائفهم بحقّ وحفظوا الأمانة التي عُهدت إليهم، وصاروا عيوناً ساهرةً تجاه المخاطر التي قد تدهمهم من أي منفذٍ أو ثغرةٍ فلن يخيب الله تعالى سعيهم وسيحبط مؤامرات أهل النفاق ضدّهم، ولكن إن ضعفت جدارتهم وذبلت وبهتت فهذا يعني -معاذ الله- أنهم على وشك الانزلاق بنفس القدر إلى حافة استحقاق عاقبة التقصير الوخيمة، فإن وقع هذا الاستحقاق استردّ الله تعالى أمانته، وعهد بها للأمناء عليها، ومن ثمّ فإن أراد الذين ارتبطت قلوبهم بخدمة الإيمان والقرآن أن يسلموا

من المكائد التي دُبّرت لهم ويحافظوا على الموقع الذي أقامهم الله به فعليهم أن يؤدّوا حقّ هذا الموقع، وأن ينشدوا الجدارة واللياقة دائماً.

### السعي إلى التجديد شرطٌ مهمٌّ في اللياقة والجدارة

ويمكننا أن نتعرّف من خلال بعض الآيات القرآنية على الأوصاف التي تُحقّق الجدارة وأخرى توجب استحقاق عاقبة التقصير الوخيمة.

فعلى سبيل المثال يقول ربُّنا ﷻ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سورة فاطر: ١٦/٣٥)، ويُفهم من اختيار كلمة "جديد" الواردة في الآية أن على الذين يسعون في سبيل الله أن يشعروا وكأنّ كلّ شيءٍ أتاهم مائدةً سماويةً طازجة نزلت للتوّ من السماء أو أنه من بواكير ثمار الجنة الطازجة. أجل، لا بدّ وأن يغيبوا عن وعيهم وهم يتلون كتاب الله تعالى بسبب ما يشعرون به من لذةٍ ومنتعةٍ لم يصادفوها من قبل، وكأنّ الآيات تنزل عليهم في التوّ واللحظة، وعليهم كذلك أن يُحسنوا دراسة العصر الذي يعيشون فيه، وأن يقوموا بخدمتهم للإسلام في ضوء التجديد الذي أتى به الإسلام، بل ينبغي أن تنال حياتهم الروحية قسطاً من هذا التجديد، وألاّ ينهزموا أمام الإلف والتعوّد وإن جرى الزمان وممرت السنون، وألاّ تؤثر فيهم عوامل الزمن فلا يذبلون أو ييهتون؛ لأنّ التجديد وصفٌ جوهريّ للجدارة واللياقة، فمن زالت عنه هذه الميزة استحقّق التغيير.

### عاقبة المرتدّين عن الخدمة

وثمة آيةٌ أخرى تتعلّق بموضوعنا، لا بدّ من الوقوف عندها، يقول ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة

وفي هذه الآية يشير ربُّنا سبحانه إلى خطر "الارتداد"، والارتدادُ يعني انسلاخ الإنسان من الموقع المهم الذي هو فيه، والعودة مرّةً أخرى إلى المكان الذي جاء منه، ولذا يوصف هذا الشخص بأنه مرتدُّ، وأول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر كلمة "مرتد" المرتد عقائدياً، فمثل هذا الشخص يترك دين الإسلام، ويرجع القهقري، ويتردّى في الكفر، وإلى جانب هذا فهناك أيضاً الارتدادُ عن خدمة الدين، فهؤلاء وإن كانوا ارتبطوا قلبياً بغاية سامية لفترةٍ ما فإنهم بعد مدّةٍ تُعزِّقُهم أشياء بسيطة كجناح البعوضة، ويفقدون شوقهم وعشقهم للخدمة، وانفعالهم القديم وحيويتهم، وبعد ذلك يخرجون تماماً من الدائرة التي كانوا ينعمون فيها، والواقع أن هؤلاء غالباً أناس مساكين اختلت عقولهم وتصحّرت قلوبهم، يرغبون في أن يسير كلُّ شيءٍ وفقاً لأمزجتهم وأهوائهم، فإن لم تجرِ الأمور حسب هواهم اختلقوا المشاكل وتسبّبوا في الخلاف والفراق، وفي النهاية يرتدّدون عن الدائرة التي كانوا فيها.

بدايةً يحذّره الله ﷻ بلطمةٍ شفوقة، ولكن إن استمرّوا في نفخ نار الاختلاف والافتراق استحقّوا حينذاك لطمّة النعمة وكأن ربنا ﷻ يقول: "إن كنتم تفسدون في الأرض، فسوف آتي بقومٍ غيركم يجعلون من الوحدة والتضامن أساساً لهم، ويتحرّكون بروح الوفاق والاتفاق"، وبذلك يُخلّي الله الساحة التي كانوا فيها لغيرهم، من أجل ذلك يجب على المؤمنين الذين عشقوا خدمة دين الإسلام المبين أن يساورهم القلق من مسألة الارتداد عن الخدمة، وأن يكون بمقدورهم التنازل عن العديد من حقوقهم الشخصية حتى لا يقعوا في مثل هذا الموقف، وهذا ابتغاء الجدارة وسبيل النجاة من استحقاق العقاب الوخيمة.

## حَبُّ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْأَسَاسُ فِي الْجِدَارَةِ

ويشير ربُّنا ﷺ بقوله "فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ" إلى أن الله تعالى سيستبدل الذين لا يؤدُّون حقَّ الموقع الذي هم فيه بقوم آخرين، ولا يعزب عن علمكم أن حرف "سوف" في بداية الفعل يدل على المستقبل البعيد، وهذا يعني أن الحقَّ تعالى لا يعجل بعذاب المؤمنين بسبب ما يرتكبونه من منكرات، ولكن لما لإيمانهم من قدرٍ عند ربهم ﷻ فإنه سبحانه يمهّلهم المرة بعد الأخرى، ولكن لو أنهم أصروا على هذه الأخطاء والمساوئ فسوف يذهب بهم الله ويأتي بقوم آخرين بدلاً منهم، وتنكيُر كلمة "قَوْمٍ" يدلُّ على أنهم جماعةٌ مجهولة الهوية، وأنهم يتمتَّعون بهمةٍ وقيمةٍ عاليةٍ.

أجل، إنَّ لهؤلاء القوم علوًّا في الشأن لا سبيل إلى تخيُّله أو تصوُّره، ومع ذلك تضع لنا الآية الكريمة بعض القرائن التي تعيننا على معرفتهم، فتقول "يُحِبُّهُمْ"؛ أي إنه تعالى يتوجَّه إليهم بما يناسب عظمتهم جلَّ شأنه، ويتغمدهم بسعة رحمته وعمق محبته، ويحسن إليهم بما تقتضيه هذه المحبة، وبعد ذلك يتحوَّل هذا الحبِّ الإلهي الموجه إليهم إلى حبِّ منهم له سبحانه في قلوبهم، وفعل "وَيُحِبُّونَهُ" يأتي من باب "إفعال" الذي يدلُّ في أحد معانيه على الكثرة، ولذلك يمكن أن يُقال: "إنهم يذوبون عشقًا في حبِّ الله تعالى".

وعقب ذلك يقول تعالى "أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"؛ أي إنهم يخفضون أجنحة التواضع للمؤمنين لدرجة تصل إلى الذلِّ، ولكن تجبُّا لسوء الفهم نقول إن هذا التواضع لا يعني الدونية أبداً، لأنهم "أَعَزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ"؛ بمعنى أنهم لا يتملِّقون لمن ساخت أقدامهم في أحوال الجحود الناتج عن كبرهم وغرورهم وظلمهم وانحراف وجهة نظرهم، أو لتقليدهم

الأعمى لأبائهم، كما أنهم لا يخنعون ولا يخضعون ولا يتملقون ولا يتزلفون للمتتدين المتعتتین مع الجمالیات التي حققها المؤمنون.

### روح الجهاد في سبيل الله

ثم يذكر ربنا ﷺ وصفاً آخر لهم فيقول: "يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ أي يكافحون في سبيل الله، وكيفية الجهاد ومحتواه واسع جداً، فالجهاد في أحد تعاريفه هو: إزالة العوائق النفسانية والجسمانية والحيوانية التي تحول دون الإيمان، وتقطع الصلة بين الله وعبده، والعمل على اتصال القلوب ببارئها ﷻ، ووفقاً لهذا التعريف يجب مدد يد العون إلى الناس مع الأخذ في الاعتبار مستوى العلم والإدراك والفلسفة الحياتية في العصر الذي نعيش فيه، واستخدام الوسائل المناسبة لذلك، كما لا بد من إزالة العوائق بين الله والناس مثل الظلم والكبر والخطأ في وجهة النظر، والتقليد الأعمى للأباء.

وهناك صورة أخرى للجهاد وهي استمرارية القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتبليغ الحق والحقيقة سواء على منابر المساجد، أو في قاعات المؤتمرات والندوات أو منصة البرلمان أو المدارس، أو في أي مكان يتأخ من خلاله تبليغ الحق والحقيقة.

ولكن إن حدث ووقف المعتدون الذي يضمرون الحقد والعداوة لكم على أبوابكم وأغاروا على بلدكم وحاولوا أن يمسوا عرضكم وشرفكم وأن يسحقوكم تحت أقدامهم كما حدث في أزمنة مختلفة فحينذاك تتغير صورة الجهاد، ففي هذه الحالة تنسل السيوف من أغمادها ويُعنى الجميع، ويُهرعون إلى الجبهة كما وقع كثيراً في تاريخنا على مر العصور، ويؤدون حق الكفاح المطلوب منهم.



ولا جرم أن هذا الكفاح القومي يتم بإذن الدولة وتحت إشرافها، وهذا أيضاً نوعٌ من أنواع الجهاد المادّي، ولكنني أنبه هنا مرّةً أخرى على هذه الحقيقة التي أشرت إليها في مناسباتٍ عدة؛ وهي أنه ليس من الصحيح اختزال الجهاد في سبيل الله على أنه "محاربة الأعداء" فقط، فهذا ضربٌ من ضروب الجهاد وواحد من أوجهه الماديّة، وإن هناك أوجهًا متعدّدةً للجهاد والكفاح من أجل إيصال الحقّ والحقيقة إلى الناس، أو رفع الجور والظلم عنهم، والحال أنه يجب أن يكون ذلك العمل الذي قيده الله تعالى بقوله "فِي سَبِيلِ اللَّهِ" خالصًا بأكمله لله تعالى، كما لا بدّ من إحقاق الحقّ مع مراعاة القواعد والمبادئ التي وضعها الرسول الأكرم ﷺ، فلا يكون الدافع هو المنفعة الشخصية أو مصلحة فئةٍ بعينها أو غَضْبُهَا.

خلاصة القول إن الله تعالى قد أشار بقوله "يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" إلى الجهاد في سبيل الله بالمعنى العام، وجعله وصفًا مهمًّا للذين ينصرون دين الإسلام، وأساسًا مهمًّا للجدارة واللياقة.

وأخيرًا يقول الحق تعالى: "وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ"، وهو بذلك يشير إلى أن هؤلاء الذين يسعون من أجل إعلاء كلمة الله وكفي ترفرف الروح المحمدية في كلّ أرجاء الأرض لا يخشون من لوم الآخرين. أجل، قد يُوجّه اللوم إلى أرباب الغاية السامية من قبيل أولئك الذين يعتبرون الحياة هي الدنيا التي يعيشونها، ويودّون الاستمتاع بها، فمثلاً يقولون لأرباب الخدمة على وجه النصيحة: لماذا تُنغصون على أنفسكم حياتكم رغم أن بإمكانكم الاستمتاع بدنياكم؟ ولماذا تثيرون أهل الدنيا والضلالة وتضطرونهم إلى الإساءة إليكم؟

مع الأسف يظهر في كل عهدٍ مَنْ ينزعج ويتضجّر من نشر الاسم المحمديّ الجليل على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام، ولكن القلوب التي وهبت نفسها لخدمة الإيمان والقرآن لا تأبؤه -وهي تؤدّي وظائفها- بهذا اللوم الجائر من هؤلاء، ولا تخشى تهديداتهم، ولا تستنكف عن طريقها، بل تسير دائماً في طريق الحقّ حذرةً كيما تتعثر بالعوائق التي تعترضها.

### الاستخدام هو فضل وإحسان من الله تعالى

ثم يقول الله ﷻ في ختام الآية: "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ"؛ في إشارة إلى أهميّة تلك الأوصاف جميعها، وأن الله تعالى يهبها من يشاء من عباده المصطفين وليس للناس أجمعين؛ بمعنى أن الله تعالى يقدر الخدمة للمؤمنين الصادقين الذين وهبوا قلوبهم له، وليس إلى أولئك الذين يرغبون في الحصول على الدرجات الدنيوية مثل الدكتوراه وما بعدها من أجل إحراز لقبٍ أو زيادة رصيدٍ مهنيٍّ مادّيٍّ ليس إلا، تأملوا معي، كيف خرجت -في فترة ما- من بين الجبال الوعرة ذات عظمة<sup>(٨)</sup>؛ درس في المدرسة مدّةً وجيزةً تبلغ الستة أشهر أو السنة، ثم أخذ يلقن الإنسانيّة دروسًا في تبليغ الدين والتديّن والقرآن، وفتح الباب للتجديد في الفكر، ولكن وهو يؤدّي هذه المهمة العظيمة لم يداخله الكبر والغرور قطّ، بل كان يعزو كلّ توفيقه إلى فضل الله وإحسانه، وهكذا فإن مفهوم قوله تعالى "ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ" يعبر عن وصفٍ آخر من أوصاف الجدارة واللياقة لا يمكن الاستغناء عنه، وهو عدم الاعتزاز مطلقًا، واعتبار أيّ وظيفةٍ مهما عظمت فضلًا ورحمةً وإحسانًا من الله تعالى.

(٨٠) يقصد الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي.

## روحُ التجديد والعناية الإلهية

سؤال: ما هي السمات البارزة لمن يتوق إلى التجديد في الفكر والشعور الديني؟

الجواب: إننا لن نقدر على فتح صفحةٍ جديدةٍ دون انتزاع المُتَلَقَّيات والتصورات والأفكار المنحرفة الموجودة منذ سنين طويلة والتخلص منها، مثل إضناء الحياة الروحية في المناطق التي يعيش بها المسلمون وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل أجوائنا الدينية عن العمل، وتكميم ألسنة القلوب بتنسية الوجد والعشق تمامًا، واتجاه المثقفين المفكرين والدارسين إلى المادية الوضعية المتشددة وانحباسهم في قُمُومِها، وإحلال التعصب الأعمى محلَّ الصلابة والثبات على الحق، وطلب الآخرة والجنة على أنها دوامٌ واستمرارٌ للسعادة الدنيوية المعتادة.

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات التي حاصرت أرواحنا منذ بضعة قرون؛ بل بيانُ أن بلوغَ برِّ الأمان عسيرٌ غاية العُسْرِ ما لم نتخلص -كأمة- من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية؛ مثل الطمع والكسل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر التي لا يمكننا التخلص منها إلا بإذن الله تعالى وعنايته، وما لم نتوجه إلى الحق بما يُعدُّ

جوهر الإسلام وحقيقته من استغناء وجسارة وتواضع واهتمام بهم الآخر وروحانية وربانية، ونُقِّ قلوبنا بمشاعر الحق والصدق ونصبها في قلبهما، لكن العُسر الشديد لا يعني المحال؛ فلا بد أن يتحقق التجدد والتغيُّر المنشود ما دام هناك شجعان مُخلصون للجوهر والذات، مالكين لإرادة التجديد، قادرين على احتضان العصر واستيعابه.

### ولوحتى طرفة عين

وكمثالٍ على ذلك: يمكننا النظر من هذا المنظور إلى حياة الإمام الغزالي الملقب بـ"حجة الإسلام"؛ فلقد بلغ أفقاً رفيعاً عالياً في العلم الظاهري أولاً، بل إنه وصل إلى جميع المصادر التي يمكن الوصول إليها بالنظر إلى عصره، واضطلع على ما عجت به المكتبات في عصره من مؤلفات؛ ثم خَلَفَ أعمالاً مباركةً للأجيال اللاحقة، والواقع أن القرن الخامس الهجري الذي نشأ فيه الغزالي كان -من ناحية ما- عصرًا مباركًا وصلت فيه نهضتنا إلى القمة، وهكذا فالإمام الغزالي الذي بلغ القمة في العلوم الظاهرية لم يتفوق بعدها في القوالب الضيقة لتلك العلوم؛ بل توجه إلى الأفق الرباني والروحاني الذي أكسبها قيمة وعمقاً آخر؛ إذ يرى الغزالي أن ما يدونه العلماء من كلماتٍ وعباراتٍ في الكتب لا يتعدى كونه نظرياً إن لم يكن له بعدٌ معنويٌّ وميتافيزيقي، ويمكن الوصول إلى معرفة الحقيقة بتحويل النظري إلى عملي، وتطبيقه في الحياة تطبيقاً يُستشعر أثره في أفق القلب؛ ومن ثم فإنَّ من يحيون في فلك القلب والروح أقلُّ عُرضَةً للانكسار والانهيار من غيرهم من أهل العلم.

وهكذا فإنه من المستحيل أن تتخلى الرحمة الإلهية عن الإنسان الذي يرتقي إلى مدارج حياة القلب والروح وينسلخ من الرغبات والأهواء النفسية ويرى الفناء في نفسه والبقاء بالله، ولا أن تكِّله إلى نفسه في أفكاره

وآرائه وأحاسيسه. أجل، إن الله تعالى لا يَكِلُ مثل هؤلاء الناس إلى أنفسهم ولو طرفة عين، بل ولا يسمح بانزلاقهم في الخطيأ.

وكما هو معلوم فقد علّم رسولُ الله ﷺ أُمَّتَهُ هذا الدعاء هدفاً تشدّه

وترجوه:

"يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيْثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَيَّ نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ" (٨١).

ورجال الإصلاح الذين جعلوا دعاء سيد المرسلين هذا هدفهم الأسمى، وسعوا وبذلوا ما في وسعهم في ذلك الاتجاه؛ ساروا دائماً تحت أطياف نور المعية الإلهية بإذن الله وعنايته.

### لا يُضَيِّعُ اللهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ عَمَلٍ

لذا يمكن القول إن الحقّ تعالى ألقى في صدور هؤلاء العظام-الذين تركوا بصماتهم على مرّ العصور- آراءهم في الاجتهاد والاستنباط والتجديد، وإن نظرتهم إلى كتاب "التتائج" لإسماعيل حقي البرصوي وجدتم عباراته من قبيل: "جاءني إلهامٌ عند طلوع الفجر، وجال بخاطري هكذا" ويُفهم من هذه العبارات أن الحقّ تعالى يُنير طرق هؤلاء الأشخاص العظام، ويفتح لهم الطرق، وبهذا يرون كل شيء صحيحاً ويفسرونه تفسيراً صحيحاً، ثم يضطلعون بإنجاز الأعمال اللازمة وفقاً لسمات المجتمع وظروف الزمان والمهمة المكلفين بها.

ويقول الحقّ تعالى في سورة الزلزلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (سورة الزلزلة: ٧/٨-٩).

وفهْمُ معنى هذه الآية الكريمة على نحو: "أن الإنسان سينال في الآخرة فحسب جزاء ما عمله في هذه الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ فهْمُ ناقصٌ، وأرى أنه يجب النظر إلى الموضوع هكذا: إن الإنسان سيُجازى في الدنيا أيضاً -ولو بقدرٍ بسيطٍ- على ما فعله من أوجه الخير أو ما ارتكبه من صنوف الشرِّ، وبما أن أوجه الخير الصغيرة ستلقَى -حتى وإن كانت كلَّ واحدةٍ منها تزنُ ذرَّةً- جزاءها في الدنيا فإن ما يُبدلُ من خيرٍ وبرٍّ وإن كان يزن الكرة الأرضية ثقلاً في سبيل غايةٍ مثاليةٍ سيتحقَّق جزاؤه يقيناً، ويتجلى كثيراً في صورةٍ من صور العناية الإلهية.

ومن هذه الناحية فإنه لا يُتصوَّرُ أن يتخلَّى الله تعالى عن رجلٍ من رجال الإحياء الذين جعلوا همَّهم أمَّتْهم، ونذروا أنفسهم لإحياء الناس وضحوًا بمتعهم الشخصية ولم يفكروا بأيِّ شكلٍ من الأشكال لا في منصبٍ ولا في غَدٍ! ومن يدري فقد يُوجِّه الله تعالى الإنسان صراحةً أحياناً، وقد يلقي بداخله رغبةً خفيةً في الشيء دون أن يدرك الإنسان ذلك أحياناً أخرى، ومهما تعرَّض مثل هذا البطل من أبطال الانبعاث لمتاهات وطرق متعرَّجة، ومهما مرَّ طريقه بأودية ساحقةٍ شاقَّة؛ فلن يضل أبداً، بل سيواصل المسير في الطريق الصحيح دائماً بإذن الله وعنايته.

وهذا النوع من أبطال الحقيقة الذين فتح الله لهم آفاقاً خاصة يرون أحياناً كلَّ شيءٍ منذ البداية واضحاً عياناً بياناً؛ لدرجة أنهم ما إن يواجهوا مشكلةً أو حادثةً حتى يقولوا بكلِّ راحةٍ ويسرٍ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (سورة يونس: ٣٢/١٠).

فيُشدون إلى الصواب وينطقون بالحقيقة، وحين يواجهون في بعض الأحيان الأخرى حادثةً غامضةً ومبهمةً يقولون: "اللهم رضاك فحسب،

اللهمّ وفقنا إلى اختيار ما يرضيك كي يهتدي إليك هؤلاء الناس " ويلجؤون إلى الله تعالى بصدق وإخلاصٍ وجدٍ، ونتيجة لذلك يرون الحق وينطقون بالحقيقة، ويوجهون الناس إلى الطريق المستقيم.

### لن يعود أحدٌ خاوي الوفاض بعد الوقوف على بابه

إن كنتم تُعبرون في دعائكم عن صدقكم وإخلاصكم دائماً قائلين: "اللهم إنني ألوذ ببابك في مواجهة المصائب والابتلاءات التي لا أقوى عليها ولا أستطيع تحمّلها، اللهم لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إنني ألوذ ببابك دون سواك فنجني من الأخطاء والذنوب ووطأتها الثقيلة، وأعني على الحياة، لا حول ولا قوة إلا بك، اللهم لا تكلني إلى نفسي ولا إلى أحدٍ سواك طرفة عين في كلّ قولٍ أو فعلٍ أقوم به في سبيل إرشاد الناس وهدايتهم، اللهم لا تحرمني أبداً تجليات هدايتك وإرشادك، اللهم اهدني إلى الطريق المستقيم دائماً، واجعلني مخلصاً صادقاً في كلّ تصرّفاتي وأفعالي، اللهم لا تحرمني عنايتك ورعايتك حتى تؤثر أقوالي وأفعالي في الناس، اللهم إنني أعلم أن أهل الضلال سيعترضون طريقي بينما أجادل وأسعى في سبيل الإرشاد والتبليغ، وسوف يهاجموني ويعتدون عليّ متذرعين بأمور تافهة، اللهم إنني ألوذ بك وألجأ إلى عنايتك وحمایتك وكنفك دون سواك، فوفقتي اللهم إلى التصدّي لهم دون انحناءٍ ولا تذللٍ ولا انكسارٍ ولا تنازلٍ ولا تراجع، وأكرمني بالذلّ والانحناء بين يديك دون غيرك، اللهم إنني ألوذ ببابك، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إنني اعترف بعجزني عن تنقية قلبي، وبتقصيري في مراعاة حقوقك كما ينبغي، لذا فإنني ألوذ ببابك مجدداً وأسألك أن تُنقي قلبي كما يُنقى الثوب الأبيض من الدّنس فتعيده كحاله أوّل ما خلقتّه، ولا حول ولا قوة إلا بك؛ فإن

الحق تعالى لن يرذكم صفر الديدن ولن يُضَيِّع دعاءكم وتضرّعكم هذا دون نظيرٍ ولا مقابل، ولن يكلِّمكم إلى أنفسكم طرفة عينٍ في اجتهاداتكم واستنباطاتكم واختياراتكم.

أجل، إن كنتم تعيشون حياتكم بهذا النهج وتلوذون ببابه صباح مساء؛ فتعرضون عليه حاجاتكم الواحدة تلو الأخرى وتُلحُّون في الطلب فإن الله ﷻ الذي يسمعُ ذلك ويعلمه ويراه سيُجيبكم لا محالة، ولن يرذكم خائبين، وكما ذُكِرَ كثيرًا في أورد أهل الحقِّ وأوليائه المؤثرة والعميقة التي تحرق القلوب وتُجيش مشاعرها؛ فليس ثمّة أحدٍ حتى الآن ممّن طرّفوا بابه عادّ خاويّ الوفاض، وهناك الكثير ممّن تحبّطوا في أخطائهم وذنوبهم فلمّا لاذوا ببابه ولجؤوا إلى عفوه ومغفرته وجنابه، غشيّتهم رحمته ولفّهم إحسانه ولطفه وعنايته رغم ما اقترفوه في السابق من ذنوب وآثام.

والحاصل: أن الحقَّ تعالى من شأنه ألا يتخلّى عن طالبي التعمير والإصلاح والتجديد وإن لم يحظوا بمراتب الفناء في الله والبقاء بالله ومع الله، وعجزوا عن الوصول إلى الذات الإلهية عبر المرور بمراتب علم اليقين فعين اليقين فحق اليقين، ولا يمتلكون رصيّدًا حقيقيًا في هذا السبيل سوى أنهم مخلصون وصادقون لأقصى درجة، ودائمًا ما يبتهلون إلى الله تعالى ويضرعون إليه ويلوذون ببابه بصدقٍ تامٍّ ويتوجّهون إليه سبحانه متضرعين قائلين: "اللهم الإيمان الكامل، اللهم الإسلام الأتمّ، اللهم الإخلاص التامّ، اللهم الصدقّ"؛ فقد شملهم الله بحفظه عبر حمايته ورعايته ونصرتِه إيّاهم.



## التوازن في النهي عن المنكر

سؤال: ذكرتم من قبل أن من أهم خصال الأرواح المتفانية غضّ الطرف عن قبائح الغير التي لا تعود بالضرر على المجتمع، ولكن عند النظر إلى مسألة النهي عن المنكر سنجد أنها تمثّل أساساً مهماً في الإسلام، وبناءً على ذلك فما حدود غضّ الطرف عن الآثام، وما هي ضوابط العفو عن السيئات؟

الجواب: لا بدّ لنا أن نفرّق هنا بين الذنوب أو الأخطاء الفردية وبين الجرائم والمنكرات التي تُعدّ انتهاكاً لحقوق المجتمع؛ لأن الموقف الذي يجب اتّخاذه يختلف باختلاف وضع كلّ منهما، فالأساس في الذنوب والأخطاء الفردية غضّ الطرف عنها وستّرها، والتعامل بالعفو والسماح بقدر الإمكان مع هؤلاء المسرفين على أنفسهم، ولكن إن كان هذا المنكر موجهاً لشخص آخر أو يعود بالضرر على حقوق الناس فلا بدّ حينئذٍ من محاولة تغيير هذا المنكر باليد، فإن انعدمت الاستطاعة باللسان، فإن انعدمت أيضاً فإننا -على الأقل- نتخذُ موقفاً قلبياً رافضاً لهذا المنكر.

### سبيل العفو والصفح في الحقوق الفردية

ولا داعي هنا إلى سرد الذنوب التي تخص الفرد؛ لأن تصوير الباطل واستدعاء أنماطه يُكدِّر العقول النقيّة، ولذا يكون ضرره أكبر من نفعه، ولكن يمكننا أن ندرج الأقوال والأفعال التي نهى عنها الإسلام عامة في عبارة واحدة، فلو أن الإنسان لا يشكّل نموذجاً سيئاً للآخرين، ولم يستخفّ بأوامر الدين، ولم يستهين بالقيم الدينية، أو يتتهك حقاً للأمة؛ فحينذاك يمكن أن نعفو ونصفح عنه.

إن القرآن شدّد في مواضع متفرقة على أهميّة العفو عن الناس ومعاملتهم بالحسنى وإن أسأؤوا إلينا، فمثلاً يقول ربّنا تبارك وتعالى:

﴿وَالكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٤/٣).

فقد عدّت الآية الكريمة كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان إليهم من خصائص المتقين التي يمتازون بها، ولذا يقع على عاتق المؤمنين بدايةً أن يتعاملوا مع الذنوب والأخطاء الفردية بشكلٍ يتناسب مع هذه الدساتير القرآنية، وأن يغضوا الطرف عنها ساترين إياها بقدر الإمكان.

وإن الموقف الذي ينبغي للمؤمن اتّخاذه إزاء بعض التصرفات والسلوكيات التي يقوم بها الجاهلون هو الإعراض عنهم وتجنبهم؛ لأن الله تعالى قد وضح للمؤمنين في عددٍ من آياته كيفية المعاملة مع هؤلاء، وقال لهم أمراً: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٩/٧)، وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣/٢٥)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ٣/٢٣).

### تجنب نشر الذنب عند النهي عن المنكر

ومع هذا فإن أصرَّ الإنسانُ على ذنوبه وأخطائه، واستهان بها، وشكّل مثلاً سيئاً للآخرين بقبائحه أو اعتدى على حقوق المجتمع فيجب عندئذٍ الحيلولة دون وقوع هذا المنكر بشكلٍ مناسب، وقد أبان رسولنا ﷺ عن منهج الإسلام في تغيير المنكر بقوله: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ" (٨٢).

وعلى ذلك فإنَّ أولَ مهمّةٍ تقع على عاتق الإنسان تجاه أخيه الذي وقع في مستنقع الخطيئة؛ أن يأخذ بيده ويصلّ به إلى برِّ الأمان، فإن لم نقدر على ذلك فعلينا أن نستعين بمن هو أقدر على ذلك، ولكن عند القيام بهذا العمل لا بد لنا أن نكون على درجةٍ عاليةٍ من الدقّة والانتباه فنحذر من إفشاء الذنوب والخطايا ونشرها، أو أن نتحوّل إلى دالّين مروّجين للأخطاء والآثام، فالحذر الحذر من الوقوع في ذلك؛ حتى لا نبعث الخجل في نفس مخاطبنا؛ فيمشي ذليلاً خانعاً بين أفراد المجتمع؛ لأن المقصد الأساس هو إنقاذ هذا الإنسان من مستنقع الشرّ الذي تردّى فيه، ليس إلّا.

وتأتي النصيحة عند تعذّر تغيير المنكر باليد، ولكن المهم هنا هو أسلوب إسداء النصيحة؛ فمثلاً: لا بدّ من أن نراعي جميع البدائل عند إسداؤها، وأن نحذّر الوسيلة والأسلوب الذي يفضي إلى قيام المخاطب برّد فعلٍ سلبي، من أجل ذلك فعلى مَنْ يودّ إنقاذ أخيه من مستنقع الشرور والآثام أن يحتاط لكلامه، فلا ينطق بكلمةٍ إلّا بعد أن يُعجل فيها تفكيره جيّداً، فإن كان كلامه سيثير لدى المخاطب ردّ فعلٍ سلبيّ فعليه

أن يستعين بشخصٍ يحظى كلامه بالقبول والاحترام عند المخاطب ليقوم بهذه النصيحة بدلاً منه.

بل قد يتطلّب الأمر في بعض الأمور الحرجة أن ينسحب الشخصُ الناصحُ من الساحة تماماً، ويُحاول إصلاح أخطاء مخاطبه بطريقةٍ غير مباشرة؛ كأن يكتب له خطاباً مختصراً يسوده أسلوب الجلم واللين، لا لغايةٍ سوى أن يتحوّل المخاطب من حالة السيئ الذي رآه عليه إلى الحسن المنشود، ثم يرمي بالخطاب من تحت الباب أو يرسله بالبريد... وهكذا فإن تَحاشيتهم إبراز الأخطاء في وجه مخاطبكم حتى لا يقع في حرجٍ أو خجلٍ تكونوا بذلك قد صُتتم كرامته وحفظتم له قدره.

فالهدف الرئيس هنا: هو أن نجعل المخاطب يُعرض عن ارتكاب المنكر، ولذا لا بدّ وأن نضع لكلّ خطوةٍ نخطوها حسابها، وأن نُعرض عن تأنيب مخاطبنا بأيّ قول؛ فالمهارة لا تعني ذكر الذنب على أنه ذنب، أو جعل المذنب في وضعٍ حرجٍ، بل المهارة هي إيجاد السبيل الناجع والأمثل الذي من شأنه أن يجنّب الإنسان الذنب.

### الإرشاد والإنذار بابتسامة حزينة

ذكر رسول الله ﷺ أن الفحشاء والمنكر إن لم يتيسر تغييرهما باللسان فبالقلب، حيث قال: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِيقَلْبِهِ"، وقد فهم علماء الحديث من هذه العبارة -نظراً إلى معناها العام- ضرورة التصدّي للمنكر قلبياً، ومع هذا يمكن إيراد شروح وتحليلات مختلفة عن هذا؛ فمثلاً قد يُفهم من هذه الجملة ضرورة قطع العلاقة القلبية بمرتكبي هذه المنكرات؛ حتى إنكم إن التقيتم إنساناً كهذا قد تصبحون -باشمئزازكم منه وتبسمكم الحزين في وجهه وإعراضكم عنه- وسيلةً في توعيته وإقلاعه عن خطئه.

إنكم بفعلكم وموقفكم هذا لا تعارضون الشخص، ولكن تعارضون فعله؛ فتبتهلون إلى الله قائلين: "اللهم خلّص أخي ممّا تردّى فيه من مصيبة، ونفّر من ارتكاب هذه الذنوب والآثام" بل إنكم لا تكتفون بهذا؛ فتتضرّعون ألف مرّة ومرّة كي ينجو من تلك المصيبة قائلين: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ"، وتعدّون هذا واجباً من واجبات قانون الأخوة وحقوقها.

ذلك أن سيدنا رسول الله ﷺ قال: "دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِ"<sup>(٨٣)</sup>.

وقد حدثوني قديماً عن انحراف أحدهم، ومنذ ذلك اليوم لم يمض يوم من أيامي دون أن أذكره في دعائي بين يدي الله، وقد وقع كذلك أحد الإخوة من ذوي الطوية السليمة في مشكلة عقديّة؛ فكنت أيضاً كلّما دعوت الله تعالى ذكرت هذا الإنسان في دعائي، وكنت أعتبر أي إهمالٍ متّي في هذا الموضوع إخلالاً بحقّ الأخوة وحقوقها، والله على ما أقول شهيد، ويمكن أن يُستدلّ على الدعاء القلبيّ بهذا الشكل من لفظ الحديث، ولذلك فإن فهم لفظ "فَبِقَلْبِهِ" الوارد في الحديث على أن المقصود منه البغض القلبي وقطع العلاقة بالشخص والإعراض عنه فقط فهم ناقص؛ إذ المهمّ هنا هو معارضة المنكر والفعل المشين الذي يبغضه الله تعالى والتصدّي له، وفعل كل ما في الوسع من أجل إزالته، وإنقاذ من سقط في ذلك الخطأ من الإخوة.

## حقّ العامّة من حقوق الله

إنّ المعارضة الجادة والحقيقية للفواحش والمنكرات التي قد تضر بالمجتمع بأي شكل من الأشكال - سواء أكان ذلك على نحوٍ واسعٍ أو ضيقٍ - والعمل على إزالتها والقضاء عليها يمثل في الوقت نفسه ضرورة من ضروريات احترام حقوق الله تعالى، كما أنها واجب ديني واجتماعي؛ إذ إنّ الإسلام - كما هو معلوم - يعتبر حقوق العامّة من حقوق الله؛ أي إنّ المساوىء والشُرور التي تُفسد المجتمع داخليًا شأنها في ذلك شأن الغُثة<sup>(٨٤)</sup> - بالنسبة لما قد تلحقه من أضرار وتتسبّب فيه من نتائج سلبية - لأنها ليست كالذنوب التي تظلّ محدودةً بالفرد نفسه لا تتعداه، ولذلك فإنه يستحيل إغفال هذا النوع من الشرور والخطايا أو الصمت في مواجهتها؛ لذا يجب على المكلفين بفرض قوّة القانون أن يسعوا جاهدين لمنع هذه الأخطاء والشرور، وينبغي للمؤمنين الرجوع إلى الجهات المختصة بشكلٍ مناسب، وتشجيع المسؤولين في هذا الشأن، ومساعدتهم أحيانًا باستخدام حقّ الشهادة إذا لزم الأمر؛ ونكرّر مجددًا أن المقصد من كلّ هذه الأمور ليس إحراج إنسانٍ أخطأ وهوى، وإنما المقصد هو اتّخاذ موقفٍ ضدّ الفواحش التي تنهش البنية المجتمعيّة من الداخل، والسعي والاجتهاد من أجل صيانة المجتمع وحمايته من تلك الفواحش.

ويمكننا أن نتذكر فيما يتعلق بهذا الموضوع ويمثل مبدأً مهمًّا بالنسبة لنا: الآية الكريمة التي نزلت في معرض الذمّ بشأن مجموعة من بني إسرائيل؛ إذ يقول الله تعالى فيها: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة المائدة: ٧٨/٥-٧٩).

(٨٤) الغُثة: حشرة طفيلية تلحس الجلود وتسبب الجرب الحكاك. (الناشر)

وإن أردنا توضيح معنى صيغة الفعل أكثر في قوله ﷺ: "لَا يَتَنَاهَوْنَ" فيمكننا القول: إن الذين يُشِيرُ إليهم موضوعُ هذه الآية لم يؤسِّسوا آيَةً ولا فكرةً مشتركةً تحول دون ارتكاب المنكرات؛ إذ لم يكونوا يرجعون إلى الوعي الجمعي في هذا الموضوع أو يراعونه، ولم يكن بينهم ثمة تنسيق، ولهذا فقد لعن هؤلاء الذين لا ينهاون عن المنكر، بل ومُسخوا<sup>(٨٥)</sup>.

إذًا ثمة حاجة لتأسيس فكرة مشتركة فيما يتعلّق بمهمة الإنسان الذي يرى المنكر، وبما يجب على المسؤولين أولي القوّة فعله في هذا الشأن، والمسؤوليات التي تقع على عاتق المجتمع عامة في مثل هذه المواضيع.

والحاصل: أنه ينبغي للإنسان أن يحاول جاهداً في العفو والصفح عمّا يُقال بحقّه من كلماتٍ وأقاويل ليست لاثقة ولا مناسبة، وكما أن في المعدة والأمعاء إفرازات وأحماضاً تهضم الأطعمة، فلا بدّ أن تكون في عالم المؤمنين القلبي والروحي أنظمةٌ تُذيب هذا النوع من المساوئ والمنكرات وأوجه الظلم والجور وتقضي عليها، وبهذه الطريقة ينبغي للإنسان أن يعفو ويصفح - بكل سهولة - عن التصرفات السيئة التي تُرتكب تجاهه، أمّا إن استُهدفت مجموعة أو جماعة معيّنة في شخص إنسان ما وأُسيء إليها وإلى سمعتها فهذا يعني أن المسألة قد خرجت عن نطاق الفرد وتجاوزته إلى نطاق الجماعة، وليس من الصحيح ألا ينتصر الإنسان لنفسه في مواجهة مثل هذا الظلم وألا يدفعه عنها، بل ينبغي له العمل على دفع هذا الظلم بطرقٍ تتمثل في توضيح الأمر وتصحيح الفكر وتنفيذ الأكاذيب، حتى إنه يلزم - إن استمر الظلم والتمرد في الجور - اللجوء إلى غير ذلك من الطرق القانونية من أجل إسكات المعتدين والحيلولة دون

(٨٥) يقول ﷺ: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٧٨﴾ (سورة الأعراف: ١٦٥-١٦٦).

اضطهاداتهم، وكذلك رفع دعاوى قضائية تُطالب بالتعويض عمّا يلحق من ضررٍ بسبب تلك الافتراءات، ذلك أنّ بديع الزمان بالرغم من تصريحه بأنه صفح عمن طوّفوا به السجون، وحكموا عليه بالحبس الانفرادي، ونقلوه من محبسٍ إلى آخر ودُسوا له السّم في الطعام بضع عشرة مرة؛ لم يكن يصمت قطّ حين يتعلّق الأمر بالخدمة الإيمانية والقرآنية، فكان يُخرس الظالمين ويُفحمهم بصوته وخطاباته الجمهوريّة، وبهذه الطريقة يدافع عن الحقوق والقرآن والعامّة؛ كيف لا، وقد كان قدوته في ذلك رسول الله عليه أكمل التحيات، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

"مَا اتَّقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّهِ" <sup>(٨٦)</sup>.



## أفق التضحية حتى بالأذواق والملذات الآخروية

سؤال: ما معنى قول الأستاذ النورسي رحمته الله: "لقد افتديت دنياي وأخرتي في سبيل إنقاذ إيمان المجتمع"<sup>(٨٧)</sup>؟

الجواب: لقد سبق هذه القامة الشامخة سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، والكثير من أولياء الله مثل منصور الحلاج والإمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي وغيرهم، وقالوا مثل هذا الكلام، ولقد عاش هؤلاء في قلق واضطراب كالملائكة الحفظة الذين يقفون على أبواب جهنم؛ حتى لا يتردى أحد في النار، وفردوا أذرعهم وشبكوها كالمقصر، وقالوا كما قال نجيب فاضل: "هنا زقاق مسدود".

### ضحى بدنياه أولاً!

ذكر بديع الزمان سعيد النورسي في مقولته أولاً أنه قد هجر الدنيا حتى يسلم إيماناً غيره، والحقيقة أنّ كل من يلقي نظرة على حياة هذه القمّة الشامخة سيجد أن عمره من أوله إلى آخره يقترّر هذه المقولة؛ لأن نمط الحياة الذي اختاره لنفسه لا يمكن لإنسان عادي أن يتحمّله؛ فحياته حافلة بالنفسي والسجن والاضطهاد والظلم، فلم يكتفوا بأن وضعوه في سجن

انفرادي، بل أودعوه -ولتسامحني هذه الروح الطاهرة- في مكانٍ يشبه مكان قضاء الحاجة بالنسبة لهم، فضلاً عن ذلك فتحو نوافذ هذا السجن على مصراعيها؛ حتى يتجرّع برودة الشتاء القارس، ولم يكتفوا بهذا أيضاً بل سَمّموه تسع عشرة مرة، دع عنك هذا الظلم والإيذاء الجسدي في السجن، فقد أفردوا له عناصر أمنٍ يتتبعونه ويلاحقونه في الخارج.

بيد أن الأستاذ النورسي لو شاء لكان بمقدوره أن يُصبح صاحب جاه ومنصبٍ، ويعيش كغيره حياةً ملؤها الراحة والرفاهية والنعيم، والتنعم بلذائذ الدنيا؛ لأنه كان ذا عقلية سليمة؛ وضع منذ اللحظة الأولى مشاريع وخططاً عظيمة؛ فأثرت أحاديثه وكتاباته في جموع الناس، كتب في عهد المشروطة كتابه المسمى "السنوحات"؛ والذي تحدّث فيه عن القلاقل والاضطرابات الواقعة في تلك الفترة، ووضع في هذا المؤلف أيضاً كثيراً من القواعد التي يمكن الاستفادة منها في حلّ المشكلات، كما أبدع في كتابته لمؤلفه "المحاكمات" حتى أبهر علماء عصره، وطوّف بالأناضول، وأقع العشائر التي تتحين الفرصة للتمرد بالعدول عن فكرتها، وألقى خطابات في الميادين تهدئ من روع الفرق المتمردة، كان صاحب شجاعة وجرأة جعلته يصيح بأعلى صوته بعد أن حوكم في المحكمة العسكرية: "تحيا جهنم للظالمين"؛ معلناً أنه لن يُعرض مطلقاً عن أفكاره ومشاعره.

فلو كان يفكر قليلاً في الدنيا وداري من حوله لعاش حياته في بلهنية ورفاهية، ولو حاز على مقعدٍ في البرلمان في السنوات التالية لحرب الاستقلال، فجلس في صمتٍ وسكونٍ غير متطّلع إلى شيءٍ للاقى مزيداً من الشكر والتقدير، ولخُصص له جزءٌ من المخصّصات السريّة، وعُرض عليه كغيره الحدايق والبساتين والشاليهات والفيلات، ولكان بإمكانه

أن ينعم بحياةٍ ناعمةٍ مرفَّهة، وأن يعيش حياته الدنيوية في رغدٍ وراحةٍ بال، لكنه دفع كلَّ هذا بظهر يده في سبيل دعواه، وابتغى حياةً لا تُطاق من أجل سلامة إيمان غيره.

### ما معنى التضحية بالأخرة؟

من جانبٍ آخر ذكر الأستاذ النورسي أنه قد ضحى حتى بأخرته في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فلم يفكّر حتى في نفسه؛ بمعنى أنه لم يلجأ لتقوية صلته بربه ﷻ إلى حياة الانزواء والمجاهدة ورياضة النفس، ورفقيها معنوياً، وانفتاحها على آفاق الذوق الروحاني؛ ومن ثم تظهر على يديه الكرامات، ويحظى بإجلال وتقدير من حوله، وكما لم يتبغ عرضاً من أعراض الدنيا لم يتشوّف إلى أيّ جزاءٍ أخرويٍّ؛ لأنّه جعل غايته المثلى الوحيدة هي سلامة إيمان الأمة.

ولكن ألم يكن له في الله أيّ مطمعٍ أخرويٍّ؟ كان له بالتأكيد، ولكنه كان يتشوّف إلى ذلك بفضلٍ من الله وكرمه ورحمته.

وهنا أريد أن أتبه إلى أنّ الأستاذ النورسي ﷺ وأمثاله من العظماء الذين كانوا يتبنون المنهج الفكريّ نفسه قد تكاملوا مع أمّتهم حتى أصبحوا جزءاً من بنيتها الأساسيّة العامة، لقد صاروا وكأنهم خلية من الخلايا العصبية القابضة في هذه البنية؛ ولذا كانوا يشعرون -بعمقٍ- بما يصيب هذه البنية من خيرٍ أو شرٍّ، ويتأثرون بشكلٍ بالغٍ بهذا، وهناك قولٌ يُعزى إلى سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ فحواه "اللهم كبر جسدي لأملأ جهنم بمفردتي"، ولقد كان الأستاذ النورسي أيضاً يقول: "إن رأيتُ إيماناً أمتنا في خيرٍ وسلامٍ فإنني أَرْضَى أن أُحرق في لهيب جهنم دونها".

لكن من المتعذر أن يفهم هذا الكلام بمعناه الحقيقي شخص ليس له من رحابة الصدر كما للأستاذ النورسي. أجل، حتى يستوعب الإنسان هذا الأفق من التضحية عليه أن يشعر بما يصيب غيره الآن من عذابٍ محققٍ وما سينزل به من عذابٍ مقدرٍ أو محتملٍ فيما بعد وكأن نازًا تضطرم في داخله، وهذا منوطٌ بأن يكون الإنسان ذا صدرٍ رحبٍ يحتضن كل البشرية، وإذا شتم فأطلقوا على هذا "الضمير العالمي"، فمن يحملون هذا الضمير يفرحون لسعادة غيرهم ويحزنون لأتراحهم، فأينما نزلت النارُ بأي بقعةٍ في العالم أحرقتهم؛ لأن صدورهم تكتوي بلهب هذه النار.

ولذا فإنه ليس بوسع أشخاصٍ عاديين أمثالنا - وإن لم نقل هذا بالنسبة للجميع - أن يفهموا هذه الآراء والملاحظات الواسعة تمام الفهم؛ فنحن وإن استطعنا أن نحسّ بقدرٍ معينٍ بآلام أطفالنا وأزواجنا وأصدقائنا - إن وجدت - إلا أننا لا نمتلك صدرًا واسعًا بمقدوره أن يحتضن الإنسانية جمعاء، ولأننا لم نفتح على أفقٍ معرفيٍّ كهذا ولا سعةٍ وجدانيةٍ كتلك فإننا نعاني كثيرًا في فهم مدى الهموم التي أضنت وأرهقت أولئك الأشخاص العظام.

لقد أتوا ذات مرّة بشخص - كنت أعرفه من قبل - إلى أحد دروس الأستاذ "يُشَارُ تُونَاكُورُ" (*Yaşar Tunagür*)، وقد تحدث المرحوم في وعظه هذه المرة أيضًا - كعادته - بشوقٍ عميقٍ ودموعٍ مدرارة، وفي حين كنت أحسب أن هذا الضيف تأثر بهذا؛ إذ سمعته يقول: "لماذا ينتحب هذا الرجل على نحوٍ سيئٍ هكذا!" فأخذتني الحيرة وحزنتُ حزناً شديداً؛ إذ كنتُ أرى أمامي فكراً فظاً محروماً من قدرةٍ ومملكةٍ الفهم والحس في جانب، وفي جانبٍ آخر: وجداناً وضميرًا رحبًا يمثل نموذجًا للرقّة التي

تنساب خارجه، وإن فهم ما يشعر ويحس به وجدان رحب فسيح على هذا النحو مرهون بمشاركته ذات الأفق الذي يُحلّق فيه.

### ضرورة تقديم حقوق الله على كل شيء

لم تفكر القمم - من أمثال الشيخ الجيلاني والإمام الغزالي والإمام الرباني وبديع الزمان - في نفسها فقط؛ نظرًا لأنهم اهتموا بدائرة واسعة جدًا واعتنوا بمجال فسيح للغاية، أما من نالوا سعادة التعرف على مثل هذه الشخصيات البارزة فينبغي لهم أيضًا أن يركضوا ويسارعوا طلبًا للمشاركة في أفق التضحية عينه. أجل، إن الأرواح التي نذرت نفسها للحق ينبغي لها ألا تلهث وراء أفكار دنيوية من قبيل الصعود إلى قمم الجبال صيفًا، والنزول إلى السفوح والبيوت الساحلية شتاءً بغية التلذذ والتمتع، عليهم أن يركلوا بأطراف أقدامهم مثل هذه الأفكار التي قد تخطر ببالهم، بل تجب عليهم - إلى جانب هذا - التضحية بالفيوضات المعنوية التي منها إظهار الكرامات والكشف واستقراء بواطن الناس والتجول في الملاحظات والآراء الميتافيزيقية والتحليق سويًا مع الروحانيين، وعليهم أن يندروا أنفسهم لإنقاذ إيمان الأمة فحسب، أما في مواجهة أحاسيس هذا النوع من الفيوضات الإلهية التي تتحقق دون طلبها فينبغي أن يتابهم القلق ولسان حالهم: "ترى أيمتحنني الله تعالى بهذا؟" ويجب أن يكون موقفهم على نحو: "اللهم إن كان كل واحد من هذه الأمور ليس "استدراجًا"، بل لطفًا منك؛ فلك الحمد، إلا أنني لا أطلبها"، إن فهمًا قويًا حذرًا على هذا النحو يعني في الأساس تقديم حقوق الله على كل شيء دائمًا.

وهنا قد يكون من النافع لفت الانتباه إلى نقطة ربما يُساء فهمها: إن تضحية الإنسان بآخرفته أو التضحية بالفيوضات المعنوية لا تعني إهمال

العبادة والطاعة والأوراد والأذكار أو تركها، بل إن الأمر على العكس من ذلك؛ إذ إن المستهدف -إلى جانب ضرورة الوفاء بها على أكمل وجه وأتمه- ليس الكشف والكرامة، ولا المتع ولا الملدات الروحانية، وإنما وفاء الإنسان بوظيفة العبودية، وإشعاره الآخرين بطعم ولذة ما ذاقه وأحسّ به، كما أنه يستحيل على الفرد الذي لا يحمي إيمانه ويصونه بالعبادة والطاعة والأوراد والأذكار أن يُنقذ إيمان غيره.

أما الأمر الأخير في هذا الشأن فيمكنني أن أقول: إن تجاهل الإنسان نفسه وعدم تفكيره فيها واهتمامه الدائم بمشاعر وأحاسيس إحياء الأنفس، وذكره الله تعالى دائماً، وقضائه ليله مفكراً في الإنسانية؛ كل هذه من أوصاف الأنبياء، وفي حين أن الناس يصنفون في الآخرة وفقاً لفئات معينة فإن من يعانون ويكابدون في سبيل الله والدين والإيمان والقرآن والإنسانية يُحشرون مع النبيّن بإذن الله تعالى، ولهذا فلا بدّ من إعلاء الهمم، ونبذ مشاعر العيش الأناني، والسعي دوماً في سبيل مثالية الإحياء والإعاشة.

## الابتلاء مع النجاح: نشوة النصر

سؤال: ما الموقف الإيماني الذي يجب مراعاته عند تحقيق نتيجة إيجابية أو إحراز نجاح ما؟

الجواب: إن المؤمن الحقيقي هو الذي يعي أنّ كلّ حسنةٍ أصابها أو جمالٍ اكتسبه أو نجاحٍ حققه إنما هو من عند الله ﷻ، وأنّ كلّ سيئةٍ أصابته أو فشلٍ مُني به إنما هو من عند نفسه؛ لأنّ الحق ﷻ يبين هذه الحقيقة بشكلٍ صريحٍ وواضحٍ فيقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (سورة النساء: ٧٩/٤).

ولذا يجب على المؤمن ألا ينسب لنفسه أبداً أيّ حسنةٍ أو جمالٍ كان هو وسيلةً لهما ولا أيّ عملٍ أو خدمةٍ قام بهما، ففي الواقع إننا عندما نسبح ربنا تبارك وتعالى في جميع صلواتنا نعلن أنه ﷻ لا ندّ ولا شريك ولا نظيرَ ولا مثيلَ له في إجراءاته وشؤونه وربوبيته، فإذا ما شعرنا في أعماق قلوبنا بهذه الحقيقة -التي تتفوّه بها ألسنتنا- وجعلناها تستولي على أفكارنا تماماً؛ نكون بذلك قد نجونا -بإذن الله تعالى- من الوقوع في جرم كبيرٍ كأن ننسب إلى أنفسنا الجماليات والنجاحات التي كنّا وسيلةً إليها.

### طوبى لمن عرف حدّه فوقف عنده

يجب على المؤمن أن يعرف حدّه ولا يتجاوزه، أيًا كانت النجاحات التي حققها، ويشير الأستاذ النورسي (رحمه الله) إلى هذه الحقيقة التي يؤكّد عليها النبي ﷺ بقوله: "طُوبَى لِمَنْ عَرَفَ حَدَّهُ وَلَمْ يَتَجَاوِزْ طَوْرَهُ"<sup>(٨٨)</sup>.

غير أن هذا يتأتى من إدراك الإنسان بأنه خُلِقَ من لحم ودم، وأن ماهيته قد عُجنت بالعجز والفقر، فضلاً عن ذلك ينبغي للإنسان أن يتعمّق أكثر في تفكيره، وأن يراعي أنه تلطّخ بالأرجاس التي يمكن أن نصفها بالبلوى العامة، وأنه غرق في الذنوب حتى أذنيه، ومن ثمّ عليه أن يقول:

إنما أنا مخلوق ضعيف ولا حيلة لي؛ بمعنى أن الله تعالى قد تكرّم عليّ بكلّ هذه الأفضال والإحسانات بمحض قدرته ورحمته الواسعة، فلو فكّر الإنسان على هذه الشاكلة، وتوجّه إلى ربّه بتوحيدٍ خالص، فلن تساوره الأوهام التي تجاوزه حدّه، وسيُديم الله تعالى عليه نِعَمَهُ لأن ذلك الإنسان قد أدرك أن الله تعالى هو مصدر كلّ نعمةٍ يُتَنعَمُ بها.

وينبغي ألا يغيب عن عقل الإنسان ما اقترفه من ذنوبٍ وآثام حتى يعي أن نفسه لا يُؤمّن لها ولا يُعوّل عليها؛ وبذلك لا يأخذه الغرور والكبر طالما أنه على وعي بالجرم الذي ارتكبه، دَعُ عنك الكبر والغرور، إنه -علاوةً على ذلك- ينظر إلى نفسه نظرة الإنسان المجرم على الدوام، وينظر إلى الأعمال الخيرة في الظاهر على أن الله تعالى قد يجري أمثالها على يد الرجل الفاجر؛ وعندها يقول في نفسه: "أنا إنسان لا حول لي ولا قوة، ولكن الله تعالى يُجري النفع على يد من لا يُرجى منه ذلك"، وعليه ألا يكفّ عن مساءلة نفسه ومحاسبتها دائماً بوسائل شتى.



ولا يدفع هذا الإنسان إلى أن يعتقد أنه لا بد من اقرار ذنب حتى يتخلص من مثل هذه الأوهام، لأن الأخطاء التي نقتربها دون وعي أو سابق إصرار - مثل الاستماع إلى الذنوب والإقدام على ارتكاب خطأ ما - تُعدّ بمثابة رأسمالٍ كافٍ لندرك أن النفس لا يوثق بها، المهم هو الاستفادة من هذه الأخطاء، فإذا ما تاب الإنسان إلى ربه ألف مرة، واستحضر الخطأ الذي ارتكبه دائماً بين عينيه فلن ينسب إلى نفسه أبداً النتائج التي تفضل الله تعالى عليه بها جزاء العمل والجهد، وسيشعر يقيناً أن هذه النتائج هي لطف من أ لطف الله تعالى.

أما الأمر الذي تجب مراعاته عند هذه المحاسبة الراقية: فهو أن الشيطان قد يعمل على تعظيم الجرم لصاحبه حتى يبعده عن ربه ﷻ، ويحاول أن يخدعه قائلاً: "لن تستطيع أن تتجه إلى ربك وأنت محملٌ بهذا الجرم"، ومن ثم فعلى الإنسان في مثل هذه الأحوال أن يتوسل بكل السبل التي تساعد على التطهر من ذنوبه، ولا يقنط في الوقت ذاته من رحمة الله تعالى، بل يقول: "جرمي كبير، ولكن قلبي لك عاشق"، لا بدّ ألا تمنعه ذنوبه من التوجه إلى ربه والتطلع إلى لطفه وعنايته وفضله ومشاهدة شؤونه ﷻ، وحتى إن اعتقد أن هذه الذنوب قد أبعده كثيراً عن ربه تعالى فعليه أن يسبح بأفكاره ومشاعره حول القرب منه ﷻ، وإن غرق الإنسان حتى أذنيه في الآثام وليس إلى ساقيه أو ركبته فعليه أن يتوجه أيضاً إلى الله تعالى السلطان الأواحد لدائرة الربوبية والألوهية، وإلى سيدنا رسول الله ﷺ أعظم داعٍ في هذه الدائرة، وأن يفنى في حبهما، ولا يبرح ذلك الباب أبداً، وقد يبدو هذا تناقضاً من ناحية ما، لكن يجب على المؤمن أن يقيم توازناً بين هذه التناقضات في حياته.

### الشيخ لا يطير ولكن المرید هو مَنْ يدفعه إلى الهاوية

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي ونقول: إنَّ من أكثر المهالك التي يقع فيها الإنسان إزاء ما يحقِّقه من نجاحاتٍ هو أن يفكّر أنه جديرٌ بهذا المدح والثناء الموجّه له نتيجة ما أحرزه من نجاح، بيد أن الله تعالى قد يتفضل على الإنسان بأعظم من هذه الجدارة واللياقة التي هي ابتلاءٌ في حدّ ذاتها؛ ولذلك لا بدّ للإنسان ألا يقصّر في أداء شكره لله ﷻ على ما أنعم عليه من فضائل من ناحية، وألا يعزوها إلى نفسه من ناحيةٍ أخرى، إن الإنسان الذي يعي الجرم الذي وقع فيه لا يعزو لنفسه شيئاً من فضل الله؛ لأنه إذا ما نظر -مثلاً- إلى الورود الياصرة ونظر إلى نفسه حاسب نفسه وعبر عن حيرته ودهشته من نموّ هذه الورود في هذه الأرض القاحلة، والحقّ أن الله تعالى قد يتوجّه بمزيدٍ من فضله وإحسانه على أناسٍ تعثرت أقدامهم فسقطوا في الذنوب والمعاصي؛ بسبب ما بذلوه من سعيٍّ وجهدٍ عند القيام بأعمالهم، فإذا ما رأى البعض هذه الفضائل التي منحها الله لهذا الشخص قد يلتفون حوله ويعتبرون عن تقديرهم وتوقيرهم له، بل قد يهّم أحدهم ويزعم أنه وليٌّ من أولياء الله، وقد يتقالّ آخر هذا اللقب ويقول: أي ولي؟! إنه يبدو كالغوث بأثاره البدیعة، بل يتجاوز آخر هذا الأمر ويدّعي أن ذلك الشخص قد جمع بين القطبيّة والغوثيّة، وإزاء كلّ هذا المدح والإطراء ربما يستهوي ذلك الشخص المقامات التي أنزلها له الناس لحسن ظنّهم فيه ويقول في نفسه: يا ترى هل أنا وليٌّ أم غوثٌ على الحقيقة؟".

وقد يجد ذلك الشخص لهذا الحال مبرراتٍ معقولة؛ فقد يقول مثلاً: "إن أعظم إكرام من الله للإنسان هو ألا يُشعره بإكرامه؛ وهذا يعني أنني لم أكن على وعيٍّ بالمنازل التي بلغتُها حتى الآن، فلا جرم أن هؤلاء الكثيرين الذين يلتفون حولي لا يكذبون"، وكما يقولون: "كم طيّرت

قطعة النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبت من دين!"، إن ذلك الشخص لا يطير في الحقيقة ولكن الآخرون هم من يلجئون إلى الطيران، والحق أن هذا ليس طيراناً، ولكنه -حفظنا الله- تدرج نحو الهاوية؛ لأنه قد يأتي زمان ولا يقنع هذا الشخص بالقضية والغوية لما يلقاه من فرط المدح والثناء، فيتم وجهه نحو المسيحية والمهدية، ولا سيما إن أوحى إليه من حوله بأنه المهدي أو المسيح، فيخدع هذا المسكين بالمقامات التي أنزلها له الغيُّ بحسن ظنهم فيه، ويأخذ في إقناع نفسه بهذا الأمر، وأحياناً ما يلجأ إلى توضيح فكرته بتواضع مزيف، ويستخرج من الآيات والأحاديث المتعلقة بهذا الموضوع ما يؤيد هذه الفكرة أحياناً أخرى، ولربما يرى نفسه طائرًا في السماء بينما لا يستطيع أن يسير على أرض مستوية بسبب ما اقترفه من ذنوب ومعاصٍ، ويسلك طريقاً محفوظاً بمخاطر جمّة؛ فيسوق نفسه إلى الهاوية.

بيد أن على الإنسان -كما ذكر بديع الزمان سعيد النورسي- أن يتحلّى بالصدق والإخلاص في دعواه بدلاً من أن يُنزل من يحبهم مقامات أعلى من حدّهم. أجل، يجب على الإنسان أن يحبّ إخوانه إلى درجة لا يستعيز عن هذا الحب بالدنيا وما فيها، ولكن عليه أن يتجنّب المدح والثناء المبالغ فيه والذي يقطع به عنق صاحبه.

### مثلُ الجلد في يد الدبّاغ

حين ننظر إلى تاريخنا نجد أن هناك كثيرًا من الأشخاص -بدءًا من السلاطين والشعراء وصولًا إلى أولياء الله تعالى- قد أذلّوا أنفسهم وحقروها على الدوام، ورغم أن كلّ واحدٍ منهم يمثلُ قامةً ساميةً شامخةً إلا أنهم لم يروا لأنفسهم أيّة قيمة ولا قدرٍ قطّ، والواقع أن الأفراد الأنايين

المغرورين في أنفسهم لا يمكنهم أن يمتثلوا شيئاً ولا قيمة؛ إذ إنه يستحيل عليهم أن ينسلوا من الخيالات والأوهام بأية حال؛ لأنهم دائماً ما يشعرون بضرورة التعبير عن أنفسهم؛ فلا يرون الحقائق كافيةً لتحقيق هذا، ومن ثم يدخلون من أجل تحقيق هذا في نوعٍ من الأوهام والخيالات، ويلجؤون إلى طرق أخرى كالسمعة والرياء.

ومن ذلك على سبيل المثال أن يُهمَّ أحدهم يوماً فيتحدّث عن الإمام البخاري (رحمته الله)، بيد أنه يفاجأ بأن كلامه لا يحظى بأي نوعٍ من الاهتمام؛ إذ إن كل قوله معهود لدى علماء الحديث أجمعين، ومن ثم فإنه حين يرى عجزه عن جذب الأنظار إليه بما قاله يشعر بحاجةٍ إلى قول أشياء أكثر أصالةً وعراقاً؛ فيرى رأياً مختلفاً فيما يتعلق بوجود الآخرة، ويسعى مجدداً كي يلفت الأنظار إليه مستخدماً عبارات كعبارات منسوبي المذهب الأحادي الفلسفي، والحقيقة أنه لا فرق بين قوله وقول "الشيخ بدر الدين" في كتابه المسمى "الواردات"، بل إننا قد نواجه تناقضات مشابهة حين ننظر إلى الأفكار التي زعمها وطرحها "أرسطو" عن العالم الآخر والروح، فحين يدرك أن ما طرحه من أطروحات ظاناً أنها أصيلة قد نادى وتشدق بها كثيرون غيره من قبل يبدأ يفكر ماذا سيقول هذه المرة؟؛ فيتحدّث عن تناسخ الأرواح كي ينتج أوهاماً وخيالات أخرى، بيد أن مظاهر الأصالة والعراقة التي يتمثلها ذلك الشخص كي يسلي نفسه ويرضيها تنتهي بالخسران والضلال؛ لأنه لا يبحث عن الحقائق ولا يعنيه إبلاغها ونشرها.

وقد خلقنا الله تعالى عباداً له، وليس ثمّة رتبةً ولا درجةً أسمى من رتبة العبودية بالنسبة للإنسان، فلماذا لا نقنع بخلق الله تعالى إياناً عبداً له، ولا نكتفي بذلك؟! إن الواجب الواقع على عاتقنا هو التوجّه الصادق

إليه ومقابله ربوبيته وألوهيته بالعبودية الحقة الجادة، وبمفهوم فضيلة الأستاذ بديع الزمان "فإن العبودية شكرٌ لنعمٍ وهبت لنا مسبقاً؛ وليست مقدّمةً لنعمٍ نحظى بها لاحقاً"<sup>(٨٩)</sup>، ولذلك فإنه ليس من الصواب الإذعان والإقرار بالعبودية لله تعالى بغيةً نبيلٍ نعمٍ معيّنة فحسب، وكما أن الله تعالى قادر على أن يهب وينعم دون مقابل؛ فإنه قادر على أن ينعم ويحسن من رحمته الواسعة جزاءً على العبودية له، إلا أن هذا لا يُنتظر، فنحن كعباد نالوا أجرهم ومكافأتهُم مسبقاً يقع على عاتقنا، بل ومن واجبنا أن نحمد الله تعالى ونشكره دائماً.

إن الإنسان الذي لا يعبد الله يعبدُ نفسه، وعابدُ نفسه يعيش من أجلها فحسب، ويراها مركزَ العالم، ومثل هذا الإنسان يُسمى أنانيًا، كما يطلق لفظ "نرجسي" على الإنسان المشغول بنفسه دائماً المشغوف والمولع بأفئده وأفكاره وآرائه الخاصّة، بل وقامته وقده وأدائه وتصرفاته، فأمثال هؤلاء يعجبون ويتفاخرون بما فعلوه وما حقّقوه هم فحسب من نجاحات، وأما أن يُعجبوا بما فعله الآخرون فهذا أمرٌ محال، بل إنه لم يثبت ولم يلاحظ أن مثل هؤلاء الأشخاص قنعوا بما حظوا به من مدحٍ وثناء؛ فهُم دائماً ما يطمعون في الأكثر والمزيد، وبالطبع لا يحقّق مثل هؤلاء الأشخاص الأنانيين النرجسيين أيّة فائدةٍ ولا أي عملٍ نافعٍ للإنسانية.

أما الأشخاص المتواضعون فالله تعالى يهيئهم لكثير من الأعمال الصالحة الخيرة، وكما قال الشاعر:

والبدُرُ في التراب إن لم يُغمرا      أنى يكون لفيض ربك مظهرًا  
والمرءُ إن لربه قد أحبنا      فبرحمة الرحمن يسمو لافتًا

(٨٩) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: الكلمات، الكلمة الرابعة والعشرون، الغصن الخامس، ص

أي إنَّ البذرة لا يمكنها أن تنبت وتنعم بالحياة ما لم تُبذَر في باطن الأرض، والمتواضعون يرفعهم الله حتى يصبحوا قاماتٍ سامقاتٍ بمزيد الطافه ﷺ، وهكذا كان الشيخ الجيلاني، ومحمد بهاء الدين النقشبندي، وكذلك أبو الحسن الشاذلي، وفضيلة الأستاذ بديع الزمان، فحنن لا نزال نقرأ أورادهم وأذكارهم ونستفيد من آثارهم رغم مرور قرون وعصور على رحيلهم؛ إذ صار كلُّ واحدٍ منهم رمزاً مخلِّد الذكر؛ حيثُ كانوا أبطال التفاني والتواضع والحياء ونكران الذات.

لقد تجاهلوا أنفسهم وحولوا همهم كلاًها لإثبات الله تعالى، وتدارسوا وجوده سبحانه، وطهروا أنفسهم وأخلصوها، وبتعبيرٍ آخر قصرُوا أنظارهم على أنهم "ظُلٌّ ظلٌّ وجود الله"؛ فخَلَّدَ اللهُ تعالى ذكرهم؛ فلا يزالون يحيون في داخلنا، إنهم يعيشون في داخلنا حتى إنه يُخَيَّلُ إليَّ وأنا أدخل غرفتي أحياناً أنني سألتقي أبا الحسن الشاذلي أو عبد القار الجيلاني مثلاً؛ إنهم حاضرون في ذاكرتي ومخيلتي. أجل، لقد هرعوا لإثبات الله، فبَيَّتهم اللهُ تعالى وأبقى ذكرهم؛ حتى إن كلَّ واحدٍ منهم يضطلع بوظيفة مرشدٍ ودليلٍ يهدينا إلى الطريق رغم مرور عصور على انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فبعد سبعة أو ثمانية قرون لا نزال نبحث عن حلول لمشكلاتنا المعاصرة بالرجوع إلى أورادهم وأذكارهم، فهل هناك تَثْبِيْتُ أجمل من ذلك؟!

والحاصل أن التكبر والتباهي من أكثر أمراض عصرنا انتشاراً مع الأسف، فإنَّ ألمَّ هذا المرضُ بالإنسان في نهاية النصر والفلاح فقد دخل مُنْحَنِيَّ خطيراً لدرجةٍ تدفعه إلى الهلاك، إذن ينبغي لنا أمام النجاحات والنتائج الطيبة أن نَرُدَّ كلَّ هذا إلى الله تعالى، ونحمده ونثني عليه، وننحني تواضعاً وامتناناً له سبحانه.

## التحذير من الشرور وتصوير الباطل

سؤال: يقول الأستاذ بديع الزمان: "إن تصوير الباطل تصويرًا واضحًا وإضلالًا للأذهان الصافية"، غير أنه يتوجب الحديث عن شر الباطل لإبعاد الناس عنه، فكيف يمكن تحقيق التوازن بين هذين الأمرين؟

الجواب: أولًا، هناك فرق بين التحذير من شيء بوصفه شرًا وبين تصويره بكل تفاصيله؛ فلا بد من التذكير بسوء التصرفات الضارة بالفرد والمجتمع ولفت انتباههم إليها حتى يمكن إبعاد الناس عنها وتنفيرهم منها وإثارة اشمئزازهم تجاهها، بيد أنه ينبغي عند القيام بهذا ألا تُرسم تلك الأفعال والتصرفات السيئة رسمًا بيّنًا واضحًا بحيث تكون صورة تتجسم في الأذهان، لأن تصويرها تصويرًا فاضحًا وإبرازها قد يستثير هوى السامع ويستميله إلى هذه السلبات الشنيعة.

ولكي لا يؤرول الأمر إلى خلاف مقصده يجب عرض المساوئ والذنوب عرضًا إجماليًا دون الدخول في التفاصيل، مع بيان أضرارها، ثم ذكر العقاب السلبية التي ستدفع تلك المساوئ الإنسان إليها في الدنيا

والآخرة، فمثلاً يحسن التذكير بأن من يرتكب المنكرات ويجري في إثرها دائماً سيفقد الفيوضات المعنوية ويستحيل عليه التمتع بعباداته وطاعاته، وأن بصيرته ستعمى، وسيعجز عن تحريك أحاسيسه، ويعيش منقطعاً عن الأحاسيس الذاتية، كما أنه سيعجز عن التخلص من الإسلام الصوري وتكون معرفته بالله تعالى معرفة نظرية فحسب، وأنه يستحيل عليه الوصول إلى الشعور بالعيش في حضرته تعالى... أي ينبغي لفت الانتباه إلى عاقبة الذنب السيئة بدلاً من الاهتمام بتصويره.

### التأثيرات الهدامة للتداعيات السلبية

إن الشيطان يستغل - كما هو معلوم - بعض المشاعر السلبية الموجودة لدى الإنسان استغلالاً جيداً كي يدفعه إلى الذنب، فمن المهم ألا تستيقظ هذه المشاعر وألا تُوقظ، أما الكلمات التي تقال في تصوير الباطل فإن كلاً منها يبدو وكأنه سائق يؤدي إلى إيقاظ تلك المشاعر؛ إذ إنها تحرك هذه المشاعر الكامنة لدى الإنسان، فيستغل الشيطان هذه الفرصة، ويحاول التأثير على الناس ودفعهم إلى الشرور مستخدماً تلك التداعيات السلبية.

وحين يُذكر تصوير الباطل يخطر بالبال غالباً تلك الأمور التي تثير الغرائز البشرية، لكن ليس من الصواب ربط المسألة بالأحاسيس الشهوانية فحسب، إنها مجلبة لكل أنواع الشرور التي يمكن أن تُشكّل لدى الناس رغبةً وطلباً لفعلها، فإذا رتمت مثلاً أن تشرحوا شناعة النفاق، فإن قدّمتم المسألة تقديمًا يفهم منه أن النفاق نوع من المهارة تسببت في تكوّن مشاعر الإعجاب تجاه تلك الصفة السيئة عند بعض الناس، فلا بد من استخدام أسلوب يصطبغ بالترهيب في جميع التصرفات والسلوكيات التي تدخل ضمن إطار المساوئ، وأن يكون الحديث عن عقاب مرتكبيها يوم الحساب.



إن هذه الحساسية الشديدة لازمة عند تصوير الشرك أيضاً، فمثلاً لا داعي للتكرار الكثير لأسماء الأصنام والأوثان التي تُشرك بالله تعالى إن لم يكن ثمة أية ضرورة، ولا بد من الإجمال في هذا والتركيز على أن من يشرك بالله يفقد دار السعادة الأبدية، وتكون الحياة الأبدية في جهنم حظّه.

عند ذكر مساوئ كعقوق الوالدين، وشهادة الزور والسرقه والغيبة... لا بد من اتباع أسلوب إجماليّ، ومن لفت انتباه الناس إلى عاقبة هذه الذنوب حتى يتكون عندهم شعور المقاومة تجاه ارتكاب تلك الأمور.

إن هذا المنهج منهج نبويّ، فمثلاً يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ"<sup>(٩٠)</sup>، وبهذا يوضح لنا النبي ﷺ كيف يصبح الإعراض عن آفات اللسان وتجنب الزنا سبيلاً للفوز في الآخرة، فهنا يعرض النبي ﷺ المسألة إجمالاً وبأسلوب الإيماء المعجز، لافتاً الأنظار إلى جزاء المرء في الآخرة، إذا هو نزه نفسه من هذه الشرور.

ويجب أن نعرف أنّ الإنسان قد يظلّ ذهنه مكدّراً أياماً وربما أسابيع إن تعرض لتصوير الباطل، بل قد تشغل ذهنه بعض الأمور القبيحة حتى في أثناء عبادته لربه ﷻ، ومن ثمّ ينبغي للإنسان أن يكون من البداية قوياً مصراً على تجنّب مثل هذه الأمور السلبية؛ وإلى جانب تحاشيه كلّ هذا عليه أن يشغل ذهنه دائماً بالأمور الحسنة، حتى إذا عنت له هذه الصور القبيحة ظهرت أمامه أجمل الأقوال والأفكار واللوحات، فإن تلوث عينه أو أذنه أو ذهنه بشكل ما أو ران على قلبه أمر سلبي فعليه ألا يعتمره طويلاً، وأن يهرول على الفور إلى أقرب سجادة صلاة، ويحاول أن يتطهر من أدرانه التي علقت به في حوض التطهر هذا.

## ذهنٌ صافٍ وعاقبةٌ حسنةٌ

الحقُّ أن الأذهانَ معرّضةٌ في أيامنا هذه لأكدارٍ شتّى في الشوارع والأسواق، بل حتى في بيوتنا التي تُعدّ أكثر الأماكن حصانةً بالنسبة لنا، وبمرور الوقت تكدّر هذه التصاویر والمناظر السلبية المترامية مخّ الإنسان وذاكرته، ثم تشغل الإنسان، وتشير فيه مشاعر سوء، وتقمع هذه الصورُ الكامنة في ذهن الإنسان عالمه الفكري والشعوري، وتُملي عليه رغباته وشهواته، وإذا ما واتتها الفرصة قيّدت إرادته وجرتّه إلى الذنوب والمعاصي التي تدمّر حياته الأخروية.

أجل، إن هذه الصور الخليعة والمناظر المثيرة تشكّل لدى الإنسان مع الوقت مكتسباتٍ لا شعورية، وتشرع في تدنيس خواطره، بيد أن الإنسان لا بدّ وأن يكون لديه عزمٌ على أن يظل نزيهاً حتى في أحلامه، إننا إذا ما استرشدنا بأدعية الرسول الأكرم ﷺ وواظبنا على الأدعية التي تُقرأ عند النوم ليلاً، فهذا يعني أننا نلجأ إلى ربنا قائلين: "اللهم يا من لا تضيع ودائعه، أستودعك مشاعري وأفكاري وأحلامي، اللهم جنبها الكدر والدنس حتى لا أستيقظ والأفكارُ القذرة تراودني"، عند ذلك نكون قد أودعنا عالم ليلنا إلى حفظ الله ورعايته.

ولا جرم أن مراعاة المرء لهذا القدر من الدقة لها أهمية عظيمة لحياته الأخروية، يجب أن نعلم أن الإنسان يقيد له في دفتر حسناته أي نية له أو دعاء أو سعي صادر منه، بل إن أيّ جهد يبذله لئلا تتكدّر أحلامه ولا تقمّع المكتسباتُ اللاشعورية أحاسيسه وليحافظَ على نقاء مشاعره وأحاسيسه قد يكون أولى من صلاة مائة ركعة، غير أن تنزّه الإنسان في العوالم النزيهة حتى في أحلامه وسيره في الجنات بين الأزهار مرهونٌ بمدى عزمه وإصراره على إعطائه إرادته حقّها.

وبقدر تورّع الإنسان عن التفكير في المعصية وبُعدّه عن العوامل التي تدفعه إليها بقدر سلامته من الوقوع في الآثام، يشير الرسول ﷺ بدعائه هذا إلى ضرورة تجنب الخطايا: "اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ" (٩١)، فإن مَنْ حَامٍ حَوْلَ حِمَىِ الْمَعَاصِي فَلَا جَرَمَ أَنَّهُ سَيَنْجَرِفُ بَعْدَ زَمَنِ مَعَ التِّيَّارِ وَلَنْ يَجِدَ فُرْصَةً لِلخُرُوجِ إِلَى الشَّاطِئِ مَرَّةً أُخْرَى.

أجل، لو أبحر الإنسان مرة في بحر المعاصي لَمَا اسْتَطَاعَ الخُرُوجَ إِلَى الشَّاطِئِ مَرَّةً أُخْرَى؛ وَلِذَا لَا بَدَّ وَأَنْ يَسْعَى الْإِنْسَانُ إِلَى تَنْقِيَةِ ذَهْنِهِ وَفِكْرِهِ وَمَشَاعِرِهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى حَذَرٍ وَيَقْطَعُ دَائِمَةً مِنَ الْفَخَاخِ النَّفْسَانِيَّةِ وَالشَّيْطَانِيَّةِ.



## النهج الموضوعي في الحديث عن الخدمات

سؤال: تُركّزون على ضرورة أن يكون الحديث عن الخدمات التي تنجز وتتحقق حديثاً موضوعياً وعقلانياً بعيداً عن الانفعالية والعاطفية؛ فهل توضّحون هذا الأمر؟

الجواب: ينبغي التصريح أولاً بضرورة انفتاح الإنسان على ما يُوجّه إليه من انتقادات وأن يتقبّلها ويتعدّد تمامًا عن التفاخر والغرور عند الحديث عن الخدمات المنجزة؛ إذ إنّ الإنسان مخلوق محتمل وقوع الخطأ وصدور العيب منه بالنظر إلى طبيعته، وقد توجد مجموعة من الأخطاء والمغالطات حتى فيما يظنّه الإنسان نفسه أصوب وأصحّ أعماله وأفعاله؛ وعلى الإنسان أن يسائل نفسه ويثبّتها بعدم الكمال حتى في أكثر أوقاته التزامًا بالأحكام الشرعية، والأمر نفسه بالنسبة للصلاة والصوم والزكاة والحجّ؛ فلكلّ منها أسسه الكثيرة الخاصّة به، ومن الصعب أدائها تامّة غير منقوصة ولا معيبة، وتتضح صعوبة المسألة أكثر لا سيما

إن وُضِعَتْ في عین الاعتبار الجوانب الفطرية لدى الإنسان كأن تكون الأعمال المنجزة جزءاً من طبيعته وفطرته وأن يؤديها بإخلاص وصدق، وبيتعد فيها عن الرياء والسمعة.

### الإنسان مخلوق مؤهل للخطأ والوقوع في العثرات

وإن كان هذا القدر من النقص والعيب محتملاً وقوعه حتى في العبادة والطاعة التي نقوم بها دائماً؛ فإن حدوث خطأ في الأعمال الخاصة بخدمات متباينة الأبعاد والأعماق مبذولة في سبيل الإنسانية أمر لا مفر ولا مهرب منه، والحقيقة أن السنة الصحيحة والقرآن الكريم أخبرانا بأمور ومبادئ أساسية تخص ما سينجز من خدمات في سبيل الحق، وهي أمور ثابتة لا يؤثر فيها تغيير الزمان والمكان، إلا أنه توجد -إلى جانب دساتير هذه المبادئ الثابتة- جوانب معينة تأخذ بعين الاعتبار اختلاف المكان والزمان، ومن الصعوبة بمكان أن يوفق الإنسان دائماً في الاختيار السليم في هذه النقطة، ومع هذا فإنه ينبغي للمقترحات المطروحة أن ترتبط بالمبادئ الأساسية من جانب، وأن تُطبَّق على الحياة في صورة تلائم الزمان والمكان والظروف من جانبٍ آخر، ونظراً لأنه يُحتمل دائماً الوقوع في خطأ -لا سيما في عملٍ صعبٍ ومعقدٍ متشعبٍ بهذا القدر- فإن تقبل هذا منذ البداية يُعتبر اعترافاً بالحق.

فإن حدث العكس؛ كان من المتوقع أن يعتبر الإنسان كل أفعاله وأعماله صحيحةً وصواباً، وينزعج من الانتقادات، ويتوقع التقدير والإجلال دائماً؛ بل ويمتنع لامتداحه على أمرٍ لم يفعله أصلاً، وكل واحدة من هذه الأمور صفة من صفات المنافق، وفي سورة آل عمران يقول

الحقّ تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ (سورة آل عمران: ١٨٨/٣).

ومن ثمّ فإنه ينبغي للإنسان ألا ينسى أبداً أنّه مخلوقٌ يُتوقَّع منه حدوثُ الخطأ والتقصير، ولا بدّ أن يُدرك عيوبه ونقائصه منذ البداية، وألا يشعر بالانزعاج والضيق من لفتِ الآخرين انتباهه إليها؛ بل يجب أن يحدث العكس؛ فيمتنّ ويُسرّ من تذكير الآخرين إيّاه بها وإظهارهم سبل خلاصه ونجاته منها.

وبعد أن تحدّثنا بإيجازٍ عن تقبّل النقد وضرورة عدم الانزعاج منه؛ يمكننا أن نُعدّد ما يأتي من معايير بشأن الحديث عن الخدمات في نهجٍ موضوعيٍّ وعقلانيٍّ.

### السعي إلى الخدمة التزاماً بالمبادئ الأساسية

لا بدّ من تحديث المخاطبين عن الخدمات، وتوضيح أن إنجازها يُراد له أن يكون مرتبطاً بالمبادئ والقيم الإنسانية الكونية التي حدّدها الدين؛ إذ يستحيل أن تبقى وتثبت قضايا وأمور تسيّر وفقاً لأفكار عابرة منافية لنصوص القرآن والسنة. أجل، إن من لا يرتبطون بالقواعد الكلّية دائماً ما يترنّحون ويسيروا في طرقٍ متعرّجة معوجّة، وكما أن أفعالهم الحالية تختلف عن أفعال سابقهم فإن ما قد يظطلعون به من تصرّفاتٍ وأفعالٍ لاحقاً سيتناقض حتماً مع ما كان في تلك الأيام، ومن هنا فإنه يلزم لأفكار الإنسان وأحاسيسه وجميع خلايا مخّه العصبية أن ترتبط بمبادئ الدين الأساسية والقيم الأخلاقية الكونية العالمية حتى تستقيم تصرّفاتُه وسلوكيّاته.

والواقع أن مبادئنا الأساسية -نحن منتسبي دين الإسلام العالمي- مبادئ من شأنها أن تستوعب وتحتضن الجميع، ومن المهم أن نحدد الخطّ والنهج الصحيح الواجب علينا الحفاظ في إطاره على هويتنا وشخصيتنا الأصلية، وبعد التمكن من فعل هذا ينبغي لنا أن نبين ونثبت لمخاطبيننا أننا منفتحون على النقد والمساءلة بأن نقول: "كما أننا نؤمن بأن العطاء واجبٌ ووظيفةٌ فإننا نرى أن نُضحكُ لنا وأخذنا بنصائحكم أمرٌ مهمٌ جداً يصب في صالح التكامل، فإن كان هناك عيب أو نقص ترونه فينا فترجوكم أن تصارحونا به؛ فنجلس نناقشه ونعالجه".

فإن كنتم تقومون بالانفتاح على الآخرين التزاماً منكم بالمبادئ الأساسية فلن تفقدوا ارتباطكم بالمركز بإذن الله تعالى وإن تغيّر الزمان والمكان والأشخاص، وعلى حدّ قول مولانا جلال الدين الرومي: "فإنه وإن كانت إحدى قدميكم بين ظهراي كثيرٍ من الأمم والأخرى في المركز؛ فإنكم تحافظون على استقامتكم إن كنتم تختبرون كلّ انفتاحاتكم وفقاً لقدمكم الثابتة".

### **استحالة نسبة أي فرد أو مجموعة ما يُنجز من خدمات لنفسه**

الأمر الثاني الواجب التركيز عليه: هو عدم نسيان حقوق الآخرين في الخدمات المنجزة وعدم النظر إليها وكأنها قضية خاصة بقطاع بعينه فحسب؛ فقد تكوّنت منذ القدم وحتى اليوم مجموعات وحركات مختلفة خدمت في مجتمعا وفي مختلف المجتمعات الإسلامية على حدّ سواء، وقد قامت بجهودٍ مهمّةٍ جداً من شأنها أن تنير لكم الطريق وتشجعكم، وتهيئ لكم أرضيةً مناسبةً تتحرّكون فيها بسهولةٍ ويسرٍ، لقد أوصلوا القضية إلى نقطة معينة وكأنهم يقولون لكم: "واصلوا أنتم كذلك هذا الأمر"



ويمكنكم أن تفكروا هكذا: جاء هذا الأمر في موسم الإثمار حين دخلتم المعتكك بإمكانياتكم الخاصّة، وفي حين هيأ البعض الأرضية؛ بذر البعض البذور، واضطلع البعض الآخر بخدماتٍ ضروريّة لينمو النبات ويصبح شجرة، وسوف تزهو لكم هذه البذور لاحقاً بتقدير الله، وقد تحقّقت لكم إمكانية الخدمة في موسم الإثمار، إذا فإن اعتبار الأمر مترتباً على سعيكم وجهدكم أنتم فحسب، وهضم حقّ الآخرين فيه نكرانٌ جميلٍ واضحٌ وصريحٌ.

أجل، إن مشاعر الفداء والإيثار كامنةٌ في جوهر رجل الأناضول وروحه، وما زال الكثيرون حتى الآن يستغلون هذا الجوهر النفيس، حتى جاء وقت وظهر من بين شرائح المجتمع المختلفة من يُعبّر عن هذه الجواهر النفيسة ويفتح على كلّ أرجاء العالم، فكان التجار والحرفيون والمرشدون والمعلّمون الذين يعتقدون بعموم نفع الخدمات التي يقدمونها إذا ما نجحوا في مكانٍ ما نادوا على نظرائهم وشجعوهم على الاستثمار والنجاح في هذا المكان، وبذلك تضاعفت الخدمات وتنامت، وكلّ هذا بأكماله تحقّق بفضلٍ من الله وعنايته، ولكن إن ربطنا الأمر بالأسباب وقيّمناه وفقاً لها اكتشفنا أن هذه الخدمات المبدولة ما كان لها أن تتمّ أبداً بحساب الاحتمالات ولو بنسبةٍ واحدٍ في المليون.

وكما لا يصح أن ننسب الإنجازات التي تحققت في سبيل خدمة الإنسانية إلى سعي وجهد جماعةٍ بعينها، كذلك ليس من المقبول أن ننسبها إلى أشخاصٍ بعينهم، فإن زيادة بعض الأصدقاء لهذه الخدمات هو تجلٌّ من تجلّيات القدر؛ من أجل ذلك ينبغي تجنّب ذكر أسماء الأشخاص عند الحديث عمّا أنجز من أعمال، وبدلاً من هذا علينا

أن نعزو كلَّ هذه الخدمات إلى حركة الخدمة نفسها، ومدى حبنا للإنسانية، علاوةً على ما تكنه الأمة من مشاعر وانفعالات صادقة، وما تتسم به من إرادةٍ سليمةٍ وعزمٍ لا ينفد، وعلينا كذلك أن نبين أن هذه الخدمات كلها ما هي إلا محصلة سعي الأمة بأسرها، وبناءً على هذا السعي تكرم الحق تبارك وتعالى بأن أنعم على أفراد الأمة ببيان وتبليغ قيمنا الثقافية إلى العالم أجمع، ولا جرم أننا عند نقلِ جمالياتنا إلى شتى أرجاء العالم نستلهم منهم أيضاً بعضَ الجماليات ونضفي مزيداً من الثراء على ثرائنا.

إننا نعتقد أن هذه الخدمات المبذولة بمثابة محاولةٍ للردِّ الجميل على لطاف الله تعالى التي تنتزل علينا زخاً زخاً، فلو أننا أحسنَّا توضيح هذه المسألة للمخاطبين فلن نتورط في الظلم الذي يرتكبه أهل الغفلة عندما ينسبون هذه النجاحات - التي تمَّ إحرازها بسعي وجهد الأمة كاملةً - إلى عددٍ من الشخصيات الرائدة، حتى إن الغنيمة في الحرب تُوزَّع بالتساوي بين الأفراد الذين يشاركون فيها ولا يختصُّ بها القادة فقط، وإلا فنحن نوقع هذه الشخصيات في الهلاك ونسب إليهم ما ليس من اختصاصهم بل من اختصاص الربوبية؛ لأنهم سيبدؤون حينذاك في نسبة هذه الخدمات إلى أنفسهم، ويتشوفون إلى التصفيق والتهليل والتقدير من الناس؛ وبذلك يقضون في هذه الدنيا على ثمارهم الأخروية.

### فِر من إثارة مشاعر الغبطة فرارك من العقر والحية

أما الجانب الأخطر في الأمر فهو: أن إبراز أسماء شخصيات بعينها يشير مشاعر الغيرة لدى الآخرين، حيث تكمن في طبيعة كلِّ إنسان مشاعر الغيرة والحسد، ولا سيَّما إن قدَّمتم بضعة أشخاص على الأكاديمين وعلماء اللاهوت ورجالات العلم البارزين فإنكم بذلك تكونون قد

ضغظتم دون وعيٍ منكم على مشاعر الغيرة والحسد التي تكمن في داخلهم، وبذلك تجعلون من أصدقائكم أعداءً لكم بأيديكم، بل إن بعضاً من أهل الإيمان قد تُداخله مشاعرُ الحسد أيضاً إن لم يستطع أن يحقق مثل هذا القدر من النجاحات رغم ما بذله من سعيٍ وجهد، ومن ثم تكونون أنتم - وإن كان دون سابق قصدٍ منكم - السبب في الجرم، فضلاً عن ذلك يصبحُ من الصعب كثيراً أن تُحدّثوا ذلك الإنسان بشيء بعدما كتتم السبب في إثارة مشاعر الحسد والغيرة لديه، من أجل ذلك علينا أن نضع في اعتبارنا الخدمة لا الأشخاص؛ حتى نتمكّن من الحيلولة دون إثارة مثل هذه المشاعر السلبية، وهذا يعني أن علينا أن نحدّث الناس عن الخدمات المبذولة وخلفياتها حتى نهديّ من روعهم، ومن جانب آخر: علينا أن نتخذ أسلوباً خطابياً لا يثير مشاعر الغبطة عند أيّ أحد؛ حتى لا نخلق لنا حساداً ومنافسين جدداً.

### الخدمات المبذولة والشعور بالمسؤولية

قد يعتقد البعض أن هذه الخدمة كأنها عبارة عن مؤسّسةٍ اجتمع فيها وأسسها جماعةٌ من أهل الدينا بغية الوصول إلى أهدافٍ معيّنة، بل قد يتوهّمون أن هذه الحركة ترمي إلى أغراض سياسية، بيد أن خدماتنا تنبع من المبادئ الرئيسة لتراثنا الثقافي، وبها نوّدي الوظيفة التي حمّلنا الله إياها، بتعبيرٍ آخر: إن هذه الخدمات هي محاولة للقيام بمسؤوليتنا نحو الإنسانية، بل إننا إذا ما عمّقنا النظر في المسألة أكثر؛ فسنجد هذه الخدمات ليست بالعمل الذي يُضفي على الإنسان قيمةً إضافيةً، بل إنها أداءٌ لوظيفة العبودية الأساسية ووسيلة الحمد والشكر لله رب العالمين على ما أنعم علينا مسبقاً من نعم، ولما قام الناس بهذه الخدمات في إطار المسؤوليات التي حملهم الدين إياها، وآتبعوا في الوقت ذاته منهجاً يقوم

على العقل والمنطق؛ تضاعفت هذه الخدمات وستظل تضاعف وتتنامي إن شاء الله تعالى.

يمكن أن نعزو الخدمة إلى فكرة التنافس في تبليغ الحق والحقيقة؛ لأنها تدخل في باب التسابق في الخيرات الذي نصّت عليه الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ (سورة البقرة: ١٤٨/٢)، ولذا فإن من يرى ويسمع عن السابقين الأولين في الخدمة يحاول أن يقوم بالخدمات التي كُلف بها حتى لا يتخلف عن أولئك.

### صدق النية وعقلانية الأعمال

قد ينزعج البعض من هذه الخدمات ويساورهم القلق حيالها، وعلى ذلك فعلينا أن نعمل على إيضاح كل ما يفضي إلى الشبهة عند الناس، وأن نكشف عن صدق نوايانا وعقلانية أعمالنا؛ لأنّ الخدمات المبذولة ما هي إلا تعبير عن إقبال الله ﷻ على هذه الأمة بسبب ما بذلته من سعي وهمّة، حيث أفاض الله تعالى على أرباب الخدمة بالمزيد من فضله وإحسانه لأنهم بذلوا الكثير من التضحيات في سبيل الوفاق والاتّفاق بين أبناء الأمة، وإلا فكثير من المشروعات لا يمكن لها أن تتم إلا من خلال أناس يرتبطون فيما بينهم.

والبعض قد يتوهم لعدم استيعابه ما بُذل من خدماتٍ بأن الحركة ذات أجندة سرّية، من أجل ذلك ينبغي لنا أن نبين لهؤلاء ما يلي: إننا نعتبر الشوّف لأمر سوى رضا الله تعالى حرامًا بالنسبة لنا، وإننا نفضل احتضان البشرية كلّها بالقيم الإنسانية على كل جماليّات الدنيا؛ فإذا ما قال الله تعالى لنا في الآخرة: "لقد مددتم يد العون لهؤلاء، وساعدتموهم في معرفة الحقيقة، وأنا اليوم أجازيكم على ما قدمتموه في الدنيا؛"

فهذا القول بالنسبة لنا لا تعدله الدنيا وما فيها، علاوة على ذلك فإن التعلّق بأغراض أخرى يشبه سلوك ذلك التاجر الذي كان يعمل في تجارة الذهب في سوق الصاغة، ثم يَمّم وجهه إلى سوق النحاسين بغية التجارة في النحاس.

وهكذا لا بدّ أن تفيض مشاعرنا بهذه الأفكار، وألا نمتعض ونستاء من التصرفات أو الكلمات النائية، وأن نعمل على إزالة الأوهام والشكوك التي تساور البعض نحونا بالصبر والسكون.



## التفكير: وسيلة نورانية موصلة إلى الحقيقة

سؤال: التفكير من أهم المبادئ التي يركز عليها مسلكنا، فما الأسس التي ترتبط بها عملية التفكير حتى تجري على المستوى المطلوب؟

الجواب: التفكير هو: أن يُرغم الإنسان نفسه على التدبّر في عالمه الداخلي، ويدقق النظر في الأشياء والأحداث، والتأمل في كل هذا مرّة بعد أخرى؛ وبذلك يوسّع الإنسان من دائرة فكره، ولفظة "تفكير" تأتي على وزن "تفعل"، الذي يحمل خاصية التكلف؛ بمعنى أن الإنسان يبذل وسعه ويُرغم نفسه على القيام بأمرٍ ما، ويؤقّي إرادته حقّها، ولذا يمكن القول ببساطة: إن التفكير وفقاً للصيغة الذي اشتق منها ليس عملية فكرية بسيطة، بل هو عملية فكرية تكتسب طابع النظام والتعمق والديمومة.

### القرآن يوجّه الأنظار إلى العقل الفاعل النشط

إن التفكير أساس مهمّ في مسلكنا، وهو من المبادئ الرئيسة في الإسلام أيضاً؛ لأن القرآن الكريم خلال تناوله -في الكثير من آياته- السموات والأقطار والنباتات والسحاب والرياح والنجوم والجو وعملية

الخلق وقضية الرزق وغير ذلك من الآيات المكتنزة في الآفاق والأنفس (العوالم الخارجية والداخلية) ربط المسألة بالتفكر، فمثلاً يقول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٦٤/٢).

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات التي تشبه الآية السابقة، بعضها يربط المسألة بالعقل، وبعضها بالفكر، والبعض الآخر بالعلم، غير أنها جميعاً - وإن وجد فارق بسيط بينها - تشير من حيث الأساس إلى نقطة واحدة؛ وهي أن يُفكر الإنسان في الآيات الكامنة في الآفاق والأنفس، وأن يستغرق في التفكير باستخدام عقله.

وإن انتهاء الكثير من الآيات الكريمة بقول الله تعالى "لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ليشير إلى أن القرآن الكريم إنما عبّر عن التفكير بصيغة المضارع؛ ليوحه أنظارنا إلى العقل الفاعل النشط.

أجل، إن القرآن الكريم لم يتحدث ولو مرة واحدة عن العقل السلبي الخامل، كذلك لم يتناول أي عملية عقلية تتعلق بالزمن الماضي فقط، بل إنه بحديثه عن التفكير الذي يكتسب طابع الديمومة في الزمن المضارع يرشدنا إلى التفكير في الحاضر والمستقبل علاوة على الماضي، ومن ثم يجب على الإنسان بعد أن يعقد صلةً منطقيّة وعقلية بالماضي أن يُخضع زمانه ومستقبله لمصفاة فكره، وألا يخطو أي خطوة إلا في إطار من المعقوليّة، علاوة على ذلك فمن الأهمية بمكان أن تشير هذه الآيات الكريمة إلى العقل الفاعل النشط؛ على اعتبار أنها بذلك تؤكد على ديمومة التفكير.



وأودّ هنا أن ألفت انتباهكم إلى شيءٍ بشكلٍ استطرادي دون الدخول في التفاصيل وهو: أن لفظ "يعقلون" الوارد في ختام الآية السالفة الذكر يتضمن معاني كثيرة مهمة، مثل: استغلال العقل في قراءة الأشياء والأحداث، والوصول عن طريق التفكير إلى نتائج يفرزها العقل، واستحلاب جماليات الكون باستغلال العقل.

### بالتفكير يكتشف الإنسان نفسه

إن الله ﷻ يلفت الأنظار في العديد من المواضيع بالقرآن الكريم إلى التفكير واستخدام العقل، مما يحثّ على المؤمنين أن يتعمّقوا في التفكير في آيات الله الكامنة في الآفاق والأنفس.

ولو أنكم جعلتم الإنسان موضوعاً للتفكير في الأنفس وتناولتموه من الناحية الفسيولوجية والتشريحية فسيبتين لكم وفقاً للتحليل الذي أجراه "ألكسي كاريل (Alexis Carrel)" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول" أن الإنسان مخلوقٌ كريمٌ يستحقّ كلّ احترامٍ وتبجيلٍ.

أجل، إن الإنسان ببنيته الداخلية والخارجية مخلوق رائعٌ، ولو افترضنا -مُحالاً- جواز السجود لغير الله لكان ذلك الغير هو الإنسان، ولكن الله تعالى لم يُجزّ قطّ السجود لأحدٍ غيره، أما سجود الملائكة لآدم ﷺ فهو أمرٌ تقتضيه طبيعة الابتلاء والامتحان حتى يدركوا مدى الدقة والحساسية في امتثال الأمر الإلهي.

ومع ذلك فإن السجود لسيدنا آدم يبين لنا أن هذه الأفضلية والرفعة لم تتسنّ لمخلوقٍ آخر غير آدم ﷺ؛ لأن آدم ﷺ هو بمثابة نقطة التقاء بين المادة والمعنى والعوالم الماورائية والروحانية؛ بمعنى آخر: إن آدم ﷺ هو مرآة جامعة لكل الأسماء الحسنى، فلو أننا دققنا النظر

في هذا المخلوق البديع بأبعاده المادّية والمعنويّة فليس بمقدورنا سوى الاستغراق في التفكير العميق فيه.

أجل، إن شئتم فتناولوه من الناحية المادية، يعني اليد والرجل والعين والأذن والأنف واللسان والشفيتين، أو من حيث ماهيته الحقيقية، فسيتبدّى لكم -إن أحستتم قراءته- أنه كتابٌ رائع يسوق الإنسان الى التعمّق في التفكير.

وعند النظر إلى الإنسان وما يحويه من نفس وقلب ومشاعر ووعي بما لديه من شعور، وتوجيه لإرادته؛ فسيبدو أن ذلك الإنسان صاحبُ آليّة رائعة لا يشوبها أيّ خللٍ، وهو الذي يفهمها حقّ الفهم على اعتبار أنه يقف على أقرب نقطةٍ منها؛ فهو من يُديرها ويشغلها ويرتّع على أعلى وأسمى مكان فيها، فلو أن الإنسان غاص في أعماق نفسه، وأمعن النظر في جوانبه المادية والمعنوية فسينفتح على الآفاق أيضاً كهؤلاء الذين أحرزوا نجاحاتٍ كبيرةً على الأرض ثم انفتحوا على الفضاء؛ وبتعبيرٍ آخر: إن دقق الإنسان النظر في الدلائل الكامنة في الأنفس وأدرك أن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ثمّ جال بنظره في العوالم الخارجيّة؛ فسيعود لا محالة بصنوفٍ مختلفةٍ من الرحيق كالنحلة عندما تحطّ على الزهور.

### ينبغي أن تكون مجالسنا مجالس تأملٍ وتفكيرٍ

أجل، إن ما يجب على الإنسان هو أن يستفيد بشكلٍ جيّدٍ من كلا جناحي التفكير والتدبّر: التفكير في الآفاق، والتدبر في الأنفس؛ فيجعل مجالسه كلها ساحاتٍ للوقوف على آيات الله تعالى التشريعية والتكوينية، والسياحة في تلال القلب الزمردية بشكلٍ أعمق، فإن لم يحدث هذا

استحال على المجالس أن تتخلص من التحزّر والطيش، وحيث يسود التحزّر والطيش يظلّ الناس أسرى لنقد هذا وذاك، والانشغال بعيوب غيرهم واغتياب فلان وعلان كالعجائز، والانشغال بمثل هذه الشائعات يدنّس الزمان والمكان وكذلك الجوّ العام؛ إذ يستحيل في مثل هذا المناخ الدنس أن يتبرعم ويورق التفكّر والتأمل، والواقع أن الإنسان الذي يُسلم نفسه ويتركها في مهبّ تيارات النفس وهوها إنسانٌ قيّد قدرة آليّة التفكّر التي تمكّنه من قراءة الوجود قراءة صحيحةً وتفسيره تفسيرًا سليمًا، بل إنه أصابها بالشلل.

وبهذه المناسبة أريد أن أنقل حكاية حكاها السيد "مدد أفندي"، وقد كان رائدًا ملازمًا للسلطان "عبد الحميد الثاني" أسكنه الله فسيح جناته، التقينا سوياً في زمنٍ ما، وكنت حينها في الثانية أو الثالثة عشرة من عمري تقريباً، بينما كان هو في الخامسة والسبعين، فكان نورانيّ الوجه ملتجياً مهتماً جداً بالعبادة والطاعة، علاوةً على أنه كان نموذجاً مثاليّاً للرجل العثمانيّ النبيل، فلما خُلع السلطان عبد الحميد عام (١٩٠٨م) ألقاه الاتحاديون بمستشفى المجانين مثلما فعلوا بغيره، ولما جاور المجانين زمنًا طويلاً صار هو أيضاً مجنوناً بعض الشيء؛ فمن يضطرّ إلى العيش مع المجانين في مكانٍ واحدٍ يصبح مشكلةً بالنسبة إليهم ويسمّونه مجنوناً إن لم يشاركهم المناخ نفسه ويتكيف معهم، وهكذا كان السيد مدد -الذي بقي فترة بين المجانين- ينقل أحوالهم وسلوكياتهم بين الحين والآخر؛ فكان أحدهم ينظر في المرآة فيتحدّث عن اكتساح السيول "أرضروم"، وآخر يحكي أن ثمة كنزاً مدفوناً في فتحة المدفأة، وثالث يشبُّ الكتابات الصادرة في الصحف...

وانطلاقاً من حكاية نقلها السيد "مدد" حول المجانين أريد أن أصل إلى أننا إن ظللنا نتحدث عن مواضيع لا فائدة ولا طائل من ورائها لا دنيوياً ولا أخروياً، ولم نحوّل مجالسنا إلى مجالس نورانية انقضى زماننا ووقتنا في الثرثرة والهراء؛ فنصبح تماماً مثل أولئك الموجودين في مستشفى المجانين؛ يتحدث أحدهم دون داع، ويثرثر آخر في موضوع فارغ، وثالث ينهض فيتخاصم مع غيره، ونتيجة لهذا تصبح مجالسنا أرضاً جذباء لا بركة فيها ولا نفع، وتُبحر في بحر المعاصي، فنضيع وقتنا في سفاسف الأمور، فإن كان تحويل مجالسنا إلى مجالس ذكر وفكر أمراً مطروحاً متاخماً فلماذا نحوله بأيدينا نحن إلى مقبرة خالية من الروح، محرومة من المعنى؟! وفي حين يمكننا التجوّل في أودية الطاعة فلماذا نُبحر في بحرٍ من العصيان تصعبُ العودة منه؟! لماذا لا نستفيد من الفرص في مجالسنا؛ فنجد مداخل ومنافذ شتى نبحر منها إلى أعماق القرآن الكريم المتنوعة؟!!

إن السبيل إلى جعل مجالسنا مجالس مباركة يتمثل في تركيز الكلام وسحبه دائماً إلى أرضية التفكير والتدبر التي نتفكر فيها في الله ورسوله دائماً، وتحويل المحاورات والمدارسات إلى الحديث عن الحبيب، فإن كان هناك من يريد أن يثرثر ويتحدث عبثاً ينبغي ثنيه عن مراده بأدب وذوق؛ فينصح بأن يُقال له: "يا أخي! إن كنت متحدثاً عن الله تعالى ورسوله ﷺ فلتتحدث نستمع إليك، وإلا فأحضر كتاباً، وهلمّ نقرأه" ولتدارس موضوعاً تجلُّ منه القلوب وتذرف منه العيون، يُذكِّرنا بإنسانيتنا من جديد. وربما يُطلب من أحد الحاضرين -على سبيل المثال- أن يقرأ القرآن الكريم، فإن كان هناك مَنْ له صلاحية وقدرة على تفسير الآيات المقروءة رُجي منه تفسيرها، وبهذا نبث الانشراح والبهجة في نفوسنا،

فإن لم يكن هناك من هو مؤهَّل للتفسير نسعى إلى فهم الآيات المقرّوءة عبر التعرّف على معانيها بمساعدة كتب التفاسير؛ لأننا كلّما فهمنا وتأمّلنا وتدبّرنا تخلصنا من الدناءة وضحالة الفكر، وانفتحنا على بحار ومحيطات المعرفة الواسعة.

والحاصل أننا في ظلّ ديناميّة التفكير والتأمّل نفهم عجزنا وفقرنا ومدى حاجتنا إلى الشكر فهماً أعمق، ونستمرّ بإذن الله تعالى في أداء خدمتنا - بنشاطٍ واشتياقٍ - بحيث نحتضن المخلوقات بمزيدٍ من الشفقة والرحمة.



## العلاقة بين أنواع الصبر

سؤال: ذكر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ثلاثة أنواع للصبر؛ الصبر على الطاعة، والصبر على المعاصي، والصبر على المصيبة، فهل هناك علاقة تجمع بين هذه الأنواع الثلاثة؟

الجواب: جاء في مؤلفات الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي -وهو من الشخصيات العظيمة التي وجهت الناس إلى آفاق القلب والروح- أن هناك ثلاثة أنواع للصبر تجمعهنّ علاقة وطيدة، دعونا الآن نحاول الوقوف عليها:

### الاستقامة على الطاعة تقي الإنسان من الوقوع في المعاصي

إن أداء الإنسان للعبادات بإتقانٍ ومواظبته عليها على نحو تام يستلزم بالفعل صبرًا حقيقيًّا؛ لأنه من الصعوبة بمكان أن يقوم الإنسان بعملٍ من البداية إلى النهاية دون أن يُصاب بالفتور، وبفضل هذا الصبر يحظى الإنسان بحبّ مولاه ﷺ، وفي هذا الصدد يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ" (٩٢).

وعلى ذلك فالمدائمة على أداء الفرائض التي أمرنا الله بها فضلاً عن النوافل لها أهمية كبيرة من حيث إنها تعبر عن العبودية الكاملة، ولذا فإن الإنسان يحظى بمنزلة متميزة عند ربّه ﷻ بفضل صبره على الطاعة التي حُصّ عليها الأستاذ النورسي بقوله "إنها تُرقى بالإنسان إلى مقام المحبوبة".

فلو أن الإنسان أذى العبادات التي افترضها الله عليه من صلاة وصيام وزكاة وعباداتٍ أخرى في كلّ مرحلة من مراحل حياته بدءاً من لحظة التكليف - مع الأخذ في الاعتبار مرحلة التدريب على أداء الطاعة - حتى وقت الوفاة فهذا يعني أنه قد أدى العبودية الحقة التي تؤهله لنيل رضا ربّه ﷻ، وعلى ذلك فإذا حرص الإنسان على أداء العبادات على نفس المستوى صارت صلواته وزكاته... إلخ بمثابة الترس الذي يتوقى به من الوقوع في شباك المعاصي.

فعلى سبيل المثال نشاهد البعض يُكثر من تناول المشروبات الخبيثة حتى يذهب وعيه ويتذرع بأن هذا لا يحدث إلا في المناسبات الخاصة فقط، فهؤلاء قد أظلموا حياتهم الدنيوية والأخروية، ووقعوا في أسارة أهوائهم ونوازعهم الخبيثة، أما الإنسان الذي لا يقصّر في أداء العبادات البتة ويتوجه إلى المسجد ويؤدّي طاعته لربّه ﷻ فمن غير الممكن أن نتصوّر مثل هذا الإنسان يقوم بعد خروجه من المسجد بارتكاب مثل هذا الذنب الشنيع الذي حرمه الدين، حتى وإن وقع بين ترغيبٍ وضغطٍ من حوله؛ لأن الصلاة التي كان يصلّيها والأوراد والأذكار التي كان يقرؤها كانت بفضل الله وعنايته وقايةً وسدّاً منيعاً بالنسبة له، كفلت له المدائمة على السير باستقامة في طريقه دون أن تعترضه أيّ مشكلةٍ في مسيرة



حياته، بمعنى آخر: كما أن الماء الجاري على الدوام يحث في الحجر ويبله، فكذلك الثبات على الطاعة يستأصل نزوع النفس إلى المعصية.

### العبادة تساعد على الاستقامة في الفكر

إنَّ تحرِّي الإنسان الدقة في أداء العبادات يُعينه على اتخاذ الموقف المناسب تجاه البلايا والمصائب؛ لأن العبادات تذكّر الإنسان دائماً برضا الله ﷻ وقضائه وقدره، ومن ثم يفكر هذا المؤمن باستقامة فيما ينزل به من بلايا ومصائب، ولا يقع في المعصية بفضل الله تعالى، ولا ينتقد القدر، بل إنه بسبب صلته القوية به سبحانه يعبر عن رضاه بالقدر قائلاً: "كل هذا نزل بي من قبل الحق تعالى الذي أقف أمامه معقود اليدين في عبودية وطاعة كاملة"، بل إنه حتى في الأوقات التي يتأرجح فيها الآخرون ويوشكون على السقوط نراه يُحلّق دائماً في أفق الرضا قائلاً:

إلهي قد قبلنا كل ما أتانا

خلعةً كان أو أكفاناً

إن وردةً طريةً أو شوكةً قويةً تلقانا

لك الحمد في السراء والضراء عرفاناً وإيماناً

أجل، إن العبادة والعبودية والتوجه بالعبودة إلى المعبود بحقّ والمقصود بالاستحقاق ﷻ وإظهار العبودية الكاملة له، يحفظ الإنسان كالصوبة التي تحفظ النباتات، ويدفعه إلى التفكير بشكل سويّ في المصائب والنوازل التي تحلّ به، وعلى ذلك فإن أخذنا في الاعتبار كل هذا؛ استطعنا أن نقول في طمأنينة تامة: إن ثمة علاقةً وطيدةً بين أنواع الصبر.

من جانب آخر يمكن القول: إن هناك ترتيباً بين هذه الأنواع الثلاثة من حيث اليسر والعسر؛ لأنه من الصعوبة بمكان أن يؤدي الإنسان

ما كُلف به من طاعةٍ دون أن ينتابه قصورٌ أو يمنعه عارض، ولكن إذا ما استطاع الإنسان تجاوزَ هذه الصعوبات كان من الأيسر له التغلُّب على أنواع الصبر الأخرى؛ لأن من يعبر بحراً مليئاً بالقيح والصديد يكون من الأيسر له بفضلٍ من الله وعنايته أن يعبر نهراً من الماء، ولذلك فإن أنواع الصبر التي تعرضنا للحديث عنها هنا تيسر الأخذ بأنواع الصبر التي سنقف عندها فيما بعد.

سؤال: هل هناك أنواع أخرى للصبر يمكن أن نُلحقها بهذه الأنواع

الثلاثة؟

الجواب: بوسعنا أن نذكر أنواعاً أخرى إضافةً إلى هذه الأنواع الثلاثة التي ذكرها بديع الزمان سعيد النورسي رحمته الله، فمثلاً: الصبر على تباطؤ الزمن الذي قد يُوصل الإنسان إلى حدّ الجنون في الأمور المرتبطة بوقتٍ معين أمرٌ مهمٌ للغاية، كحال الإنسان عندما يتمنى أن يؤمن الجميع، وأن تفرَّف أجنحةُ الحبِّ على الإنسانية كلّها، ويسود الأمن والسلام في كلّ مكان، ويتآلف الناس مع بعضهم، وتذوب وتتلاشى جميع أشكال التمييز العنصري، ولكن علينا أن نعلم أنه لا بد لتحقيق هذه الجماليات من تنشئة جيلٍ جديدٍ، ومعالجة الأمر من الأساس، ولا جرم أن تحقيق هذا يتطلب ربع قرنٍ من الزمان على الأقل أو ربما نصف قرن، وهذا أمرٌ لا تطيقه الأرواح العجولة، وكما قال الشاعر:

العجول يتعثّر في سيره

والحذر يصل إلى مرامه

وثمة أناس كانوا يطلبون السلطة فجاءتهم بقوتها ونفوذها، يعتقدون في كثير من الأحيان أن بإمكانهم تغيير لون المجتمع وشكله ولهجته مرّة

واحدة، بيد أنكم إن لم تُعالجوا المسألة من الأساس ولم تحترموا حرّية الإرادة لدى الناس، ولم تتجملوا بالصبر الجميل من أجل تهيئة بيئة جميلة فبدهي أن الأمور ستتقلب عليكم دون وعي منكم ولن تصبّ الأحداث ولا الأزمنة في مصلحتكم، فالبناء الذي أقمتموه بلا أساس -حتى في الأمور التي تعتقدون أن بمقدوركم النجاح فيها- سرعان ما ينهدم فوق رؤوسكم؛ لأن العجلة وعدم معالجة الأمر من الأساس يتنافى مع التطور الإنساني والاجتماعي، ولذا فإنّ من يتوق ويسعى إلى أن يجعل مجتمعه بل والإنسانية بأسرها تنعم بجو من الحب والسلام فعليه أن يكون على أهبة الاستعداد للقيام بهذا الأمر، ربما تبدلون قصارى جهدكم ولا تقدرون على مشاهدة الجماليات التي كنتم ترغبون في رؤيتها، ويكتب الله المشاهدة للأجيال القادمة؛ ولذا ينبغي أن يكون مبدؤنا طوال حياتنا هو: "القيام بواجبنا وعدم التدخّل بعد ذلك في شأن الربوبية".

وهناك نوع آخر من الصبر، وهو الصبر على جماليات الدنيا الفانية وإن كانت تدخل في إطار المباح. أجل، إنّ الوقوف في ثباتٍ وعزيمةٍ وصبرٍ أمام الأشعة البرّاقة التي ترسلها الدنيا إلى عيوننا يُعدُّ نوعاً شاقاً من أنواع الصبر، يحدثنا بديع الزمان سعيّد النورسي عن رجل بنى مسجداً وأسماه "كأنني أكلت"، فهذا الرجل صبر وتحمّل وتجنّب كلّ ما تشتهيه نفسه من طعامٍ وشرابٍ، وادخّر النقود التي كان من المفترض أن ينفقها على هذا المأكل والمشرب قائلاً: كأنني أكلت، وفي النهاية بنى بما ادخره من مالٍ مسجداً جميلاً أطلق عليه اسم "كأنني أكلت".

وهناك صبرٌ آخر فوق ذلك وهو صبر المقرّبين؛ وهو التحرّق شوقاً لرؤية جمال الله تعالى ولقاء روح سيد الأنام ﷺ وتحمل البقاء في الدنيا

إلى أن يتمّ الرحيل إلى آفاق الروح، ومن بين الممثلين العظام لهذا النوع من الصبر مولانا جلال الدين الرومي الذي كان يقول:

أريد صدرًا يتقطّع ألماً من الهمّ  
حتى أثبته همّ هذا الفراق المُلمِّم

بمعنى أن يكون الإنسان مهموماً حتى يفهم معنى الهمّ، فلا يمكنك أن تبتّ همك لمن لا يدرك معنى الهمّ.

كان مولانا جلال الدين الرومي يصف نفسه -وهو يتحرّق شوقاً ولوعةً- بأنه ابن جنةٍ مفقودةٍ، أنه مسكينٌ جاء من قبيل الله وأُلقي به في الدنيا، ودائمًا ما كان يترنّم بالليلة التي يتوقّاه الله فيها وكأنها ليلة عرسه، ورغم أن فؤاده يحترق ويتلوى ألمًا قائلاً: "متى الوصال؟" إلا أنه لم يفصح عن مشاعره قائلاً: اللهم خذ روحي الآن حتى أتمكّن من الوصال بك، فقد كان يعطي إرادته حقّها ويصبر على شوقه للوصال.

لأنّ مَنْ أرسلنا إلى الدنيا هو الله، والأمر يتقدّم على الأدب بل ويعلوّ العشق أيضًا، فحتى وإن أوصل العشق الإنسان إلى حدّ الجنون فإنّ طلب الإنسان القدوم دون أن يُدعى إليه يُعدّ سوء أدبٍ مع الله ﷻ، فمن جنّدنا هنا هو الله، ومنّ سيملاً لنا شهادة التسريح من هذه الجندیّة هو أيضًا، فعلينا إذاً أن نصبر ونتحمّل حتى يُجهز لنا التذكّرة، وهذا أيضًا صبرٌ على العشق والاشتياق غير أن مثل هذا الصبر يجاوز حدّنا وقدراتنا؛ لأنه من شأن الصالحين الذين آمنوا بحقّ، وتعمّقوا في المعرفة، فوصلوا إلى المحبة، ومنها حلّقوا صوب العشق والاشتياق.

## النوابغ وانكشاف القابليّات

سؤال: يرد مصطلح النوابغ في مؤلفاتكم ودروسكم، فما المقصود بهذا المصطلح؟ وما الأمور التي لا بدّ من مراعاتها من أجل انكشاف قابليّات مثل هؤلاء الناس؟

الجواب: يُقصد بالنوابغ هذه العقول التي تسعى إلى فهم الأشياء والأحداث والكون والإنسان والمجتمع والعصر الذي يعيشون فيه، وتبذل وسعها لنقل هذه المعلومات النظرية التي فهمتها إلى الواقع المعاش؛ وفي هذا السبيل تفكّر وتدقّق وتبحث باستمرار، ولما كان يدفع هؤلاء عشق الحقيقة وحبّ العلم والولع بالبحث استطاعوا أن يحلوا -بفضل من الله وعنايته- المشاكل التي انكبوا على حلّها، وأن يُحرزوا الكثير من النجاحات، وأن يكونوا وسيلةً لإنارة المجتمع الذي يعيشون فيه.

### القابليّات وسيلة امتحان

غير أنّ من أحرزوا مثل هذا المستوى يتعرّضون لمخاطر جدّية، فمثلاً يداخلهم وهمّ بأنهم متميزون عن غيرهم، فيعتقدون -اعتماداً على قدراتهم ومهاراتهم- أنّ باستطاعتهم حلّ جميع المشاكل التي يقابلونها والتغلب عليها بذكائهم وقابليّاتهم، وبسبب هذه الحالة يستبدون برأيهم،

أو يتعاملون بخشونة وغلظة واستغناء مع الأفكار والمقترحات الأخرى لأنهم يرغبون في التأكيد على عظم أفضليتهم؛ بمعنى آخر: فإن انفتاح هؤلاء أكثر من غيرهم على آفاق عالية في بعض المسائل قد يجعلهم ينظرون إلى غيرهم باستعلاء ويستخفون بآراء غيرهم، بل إنهم ربما يُنمّون في أنفسهم صفة التمرد، ويلجؤون إلى الاعتراض على الفور، حتى وإن طُرحت عليهم أفكارًا عقلانية ناشئة عن تفكّر عميق، وينسون أن الحقّ يعلو ولا يُعلَى عليه.

والحق أن مثل هذه الانحرافات ناجمة عن قصورٍ في التربية، فالمعلّمون قديمًا كانوا مربّين حقيقيّين في الوقت ذاته؛ بمعنى أنهم كانوا قدوةً حسنة لمن حولهم في جلوسهم ونهوضهم ووقوفهم واعتقاداتهم وأفكارهم ورؤاهم العامة؛ كانوا يربونهم بلسان حالهم، ولكن من الصعب جدًّا أن نقول: إن التعليم في النظام التعليمي اليوم يسير مع التربية كفرسي رهان، وهذا الحال لا يمكن أن يجبر القصور في التربية حتى وإن كان التعليم في مستوى متقدّم عنها، فالتربية تعني الارتقاء بالإنسان العادي إلى الإنسانية الحقّة، فعلى المربين المثاليين أن يكونوا على مستوى يستطيعون من خلاله إقامة صرح إنسانيّ وكأنهم نحّاتون مهرة، فإن لم يتتلمذ النوابع على أيدي مربّين جيّدين ولم يخضعوا لتأثيرهم فمن الصعب جدًّا أن ينسلخوا عن فكرة "أنا أعلم الناس"، أو استيعاب فكرة الاستفادة من الآخرين.

### المقهورون تحت الأناية

وقد حدّثتكم من قبل في مناسباتٍ شتى عن موقفٍ لبطلٍ من الأبطال الذين يشكلون الرعيل الأول؛ ممّن قاموا -طوال حياتهم- بخدمة الأستاذ

النورسي (رحمه الله)، كيف أنه في مجلس ما خالف أحدهم رأي هذا البطل الكريم، فقال له والابتسامه تعلقو شفثيه "حقاً يا أخي، ربّما يكون الحقّ معك"؛ وذلك لأنه أدرك أن مخاطبه ليس في حالةٍ روحيةٍ تسمح له بالاعتراف بالحقيقة وفهم ما يُقال، ولكن لما شاهد المعترض بعد مدّةٍ فساد رأيه في عديدٍ من المواطنين جاء إلى هذا الرجل العظيم وقال له هذه المرة: "سيدي، لقد أخطأتُ الرأي، فلقد كان الحقّ معك في ذلك اليوم"، وإذ بهذا السيد الكبير يقول له دون أن يغيّر من طوره: "لا ضيرّ يا أخي لا ضير".

ولقد قابلت أنا أيضاً مثل هذه الحادثة كثيراً، غير أنني في كلّ مرّة كنت أتجاوزها، لأن مثل هؤلاء الناس يظنون أن عقولهم قد بلغت كلّ مسألة، فيعترضون على كل شيء، ففي هذه الحالة عليكم أن تتركوا المسألة للوقت، حتى لا تتفاقم المشكلة، وينفضّ الناس من حولكم، والتاريخ حافلٌ بكثيرٍ من هذه الأمثلة المريرة، على سبيل المثال "هتلر"، كان يتمتّع بشيءٍ من المهارات، ممّا دفعه إلى الإعراض عن الدخول في قلب معين أو إلقاء السمع لأيّ نصيحة؛ لأن مرض الاستعلاء قد استولى عليه، وفي النهاية عرّض أمةً عظيمةً للهزيمة خلال كبرى مجازفاته، وما زال شعبه يلعنه حتى يومنا هذا.

### تنشئة النوايغ يتطلّب اهتماماً خاصاً

إن السبيل الوحيد لحماية الناس من مثل هذه الصفة التمردية الخاطئة هو ضمان امتثالهم للمجتمع عبر تربيتهم وتأهيلهم؛ إذ ينبغي بيان أهمية الوفاق والاتفاق لهم باستخدام أساليب ومناهج متنوعة عبر إيجاد وسيلة ملائمة لذلك، ومن الضروري القول: إن مزيدَ عناية الحق تعالى ورعايته

مرتبطٌ بهذا الأمر، ولا بدّ من التأكيد على أنّه من الفضيلة أن يتخلّى الإنسان عن فكره الشخصي - مهما كان دقيقاً وصائباً - حفاظاً منه على التناغم والانسجام العام.

ومع ذلك فإن تركّ مثل أولئك الناس يعيشون مع أخطائهم الخاصّة بهم في مسائلهم الشخصية التي لا تتعلّق بحقوق العامة؛ قد يكون - في بعض الأحيان - سبيلاً مفيداً من أجل تربيته؛ فليتمادوا بقدر ما يستطيعون، وليتخبّطوا ثم ليرجعوا إلى أنفسهم فيقولوا: "لقد كنتم على صواب!" وذلك لأن إدراك الأشخاص أخطاءهم بإرادتهم الشخصية والحرّة أمرٌ مهمٌّ جدّاً في تربية الإنسان وتنشئته.

والإنسان حين يرى إنساناً قديراً كفوّاً يُفني عمره في سبيل أنانيته لاهثاً وراء الأهواء والنزوات يعجز ألا يتحسّر عليه ويقول بشأنه: "ليته!" ليت الأشخاص العوالي الهمم، المدركة عقولهم مختلف المسائل، القادرين على حلّ المشكلات، الشجعان المقدامين - ليتهم - يستخدمون قواهم وقدراتهم وملكاتهم ومواهبهم هذه من أجل إعلاء شأن الدين الإسلامي المبين، وفي سبيل بيان ثقافتنا الأمميّة بدلاً من السعي إلى إثبات النفس والاعتراض على هذا وذاك؛ ذلك لأن النوابع التي تستخدم ما وهبها الله تعالى من قدرات ومواهب بشكلٍ متلائمٍ مع الهيئة التي تتواجد فيها في سبيل الوصول إلى غاية سامية؛ بوسعها أن تتسبّب في إنجاز عديد من الأعمال والأنشطة النافعة.

ومن ثم فإنّ مسؤوليّة كبيرة تقع على عاتق الأشخاص والأفراد الذين يدفونهم ويتولّون أمرهم. أجل، ينبغي لمن هم في موقع الإدارة



أن يبذلوا جهدًا حقيقيًا وكبيرًا بغيةً اكتساب هذه النوعية من الناس، وضمنان عملهم على نحوٍ يتلاءم مع المجتمع الذي يعيشون فيه، والاستفادة من مواهبهم بهذه الطريقة؛ فإن كان هؤلاء الأفراد الأفاضل سيضطلعون بعمل عشرة أشخاص وجب على المسؤولين القائمين على أمرهم أن يخصصوا لهم من الوقت والجهد ما يخصصونه لعشرة أشخاص - إن لزم الأمر-؛ فقد بذل سيدنا رسول الله ﷺ جهدًا حقيقيًا وعظيمًا - كما هو معلوم - كي يدخل في الإسلام أصحاب القدرات والمؤهلات الفريدة من أمثال خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبةؓ؛ فصقل رسول الله ﷺ هذه النوعية من المواهب والكفاءات التي كانت ذات مكانة مرموقة في المجتمع الجاهلي وعجنها وأولاها اهتمامًا خاصًا، ثم ترك أمرها للدين، وبالطبع فقد صار كل واحد من ساداتنا الصحابة هؤلاء وسيلةً في تحقق الكثير من الخدمات العظيمة الجليلة بالنسبة للإسلام.

وإذا نظرتم إلى التاريخ العثماني وجدتم أن السلاطين العثمانيين كانوا إذا ما اكتشفوا صاحب موهبة عبقرية سارعوا وسعوا من أجل اكتسابه والفوز به؛ وقد اكتشف إداريو ذلك العصر بفضل فراستهم وحدهم المواهب وشجعوها حتى وإن كانت من ثقافات وأديان مختلفة، وبحثوا عن الطرق والسبل المؤدية إلى الفوز بهم، وفي ظل هذا دخل في الإسلام أمثال "زاغنوس (Zaġanos)" و"أفرنوس (Evrenos)" و"غازي ميخال (Gazi Mihal)" و"المعمار سنان (Mimar Sinan)" و"صوقوللو (Sokullu)" - جزاهم الله خير الجزاء-، ودخلوا تحت إمرة الدولة العثمانية، وخدموا الإنسانية طيلة عمرهم؛ فكان من بين هؤلاء القائد والصدر الأعظم -رئيس الوزراء في عصرنا- والمعماري، فأدوا خدمات نافعة ومفيدة جدًا لأمتنا.

ومن الواجب البحث -دون إفراطٍ ولا تفريطٍ- عن طرق اكتساب النوابع باسترضائها وتشجيعها والاحتفاء بها ومكافأتها بشكل مناسب؛ إذ إن التصرف على هذا النحو خلقٌ إلهيٌّ في الأساس؛ لأننا نشاهد في شؤون الله الجليلة أنه لا يترك عَلَّاهُ أيَّ نجاحٍ دون أن يكافئ ويثيب عليه، وما يلزم القيام به من هذه الناحية هو مكافأة وتقدير النوابع من أجل اكتشاف المواهب والنوابع المختلفة من جانب، وإثارة مشاعر وفكرة نفع البشرية في أرواحها من جانبٍ آخر.

## تنظيم الوقت وحياتنا الأسرية

سؤال: كان رسول الله ﷺ رجلَ دعوةٍ ودولة، وفي الوقت ذاته أباً وزوجاً وأقربَ صاحبٍ لأصحابه، ومع ذلك كان ينظّم وقته ولا يخلّ بأيّ حقٍّ لهؤلاء، وعلى ذلك فما الذي يجب على ذوي الغايات السامية أن يراعوه عند تنظيم أوقاتهم حتى يقيموا توازناً بين الحقوق التي عليهم؟

الجواب: تنظيم الوقت يعني النظر بعين الاعتبار إلى جميع الأمور التي ينبغي القيام بها، وتحديد أولوياتها، وتخطيط الحياة وفقاً لذلك، ويدخل ضمن هذا التخطيط أيضاً؛ حياتنا التعبدية مثل الصلاة والذكر والدعاء، فضلاً عن المسؤوليات التي يجب علينا القيام بها تجاه من نحن متكفلون برعايتهم كالأسرة والأولاد وغير ذلك.

فمثلاً المؤمن لا يترك قيام الليل بحجة الخدمة، بل يجب عليه ألا يفعل ذلك. أجل، يجب على القلب المؤمن أن يأخذ نصيبه من قيام الليل، ولو بصلاة ركعتين، فالواقع أن الإنسان الذي يستيقظ ليلاً ويخصص ما بين عشر إلى خمس عشرة دقيقة من وقته لصلاة التهجد والدعاء لا يخسر شيئاً ألبتة من حياة الخدمة، بل على العكس يفوز بأشياء كثيرة؛ لأن من يُحسن استغلال ليله يسلك طريق الانبعاث، والتهجد ليلاً أمرٌ يُباهي الله به

ساكني الملائم الأعلى، والدعاء في هذه الأوقات من الليل لا يُقارن بغيره من الأدعية، وكذلك فإن وضع الجباه على الأرض، والوصال مع سجادة الصلاة، والخضوع والتذلل لله تبارك وتعالى، وسكب العبرات وسط هذا الصمت الرهيب الذي يمتاز به الليل البهيم لهو أمرٌ عظيم لا يمكن مقارنته بالعبادات التي تُؤدَّى في الأوقات الأخرى، من أجل ذلك علينا ألا نتغافل عن قيام الليل عند تنظيم يومنا.

### "أعط كل ذي حق حقه"

وكما يجب على الإنسان ألا يُعرض عن العبادات التي تغذي حياته القلبية والروحية فعليه أيضًا أن ينظر بعين الاعتبار إلى الحقوق العامة في حياته الاجتماعية، ويضع لها ترتيبًا على قدر أعبائها، ولا يعزب عن علمكم ما قاله النبي ﷺ للصحابه الذين أهملوا ذوبهم ليتفرغوا لعبادة ربهم: "إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه" (٩٣).

وكما رأينا يشير الحديث إلى أنه من الضروري ألا يتسبب الانشغال حتى بالعبادة إلى إهمال الإنسان للحقوق التي عليه مثل حق نفسه، وحق زوجته، وحق أبنائه... إلخ.

وكما تعطي مسألة تخصيص خمسة أوقات للصلاة دروسًا مهمّةً للمؤمنين في تنظيم الوقت؛ كذلك فإن الآيات الكريمة التي تتحدث عن حكمة خلق الليل والنهار تمدهم ببعض المعطيات في هذا الشأن، فمثلًا يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة القصص: ٢٨/٧٣).

فهذه الآية الكريمة وما شابهها ترشد المؤمنين إلى موضوع تنظيم الوقت، وتقول لهم: إن نظّمتم أوقاتكم، وأديتم نهارًا ما عليكم أن تقوموا به نهارًا، وأديتم ليلاً ما عليكم أن تقوموا به ليلاً، فُزتم من الليل ببعْدِ آخر، ومن النهار بأفِقٍ مختلف، وتخلّصتم من التَشَوُّش والاضطراب في حياتكم، وما تعرّثتم بالعقبات الناشئة عن الفوضى والعشوائية، ونَعْمْتُمْ بحياةٍ أكثر بركةً ونماءً.

### تخطيط الأربع والعشرين ساعة

فإن كنتم تشدون من وراء تنظيم أوقاتكم أن تكون أوقاتكم أكثر بركةً وتنظيمًا فعليكم أن تضعوا جدولًا لكل ساعات اليوم الأربع والعشرين، فإن فعلتم ذلك استطعتم أن تحدّدوا بشكلٍ واضحٍ أيّ الأعمال التي ينبغي لكم القيام بها في أيّ ساعات اليوم؛ بدءًا من الالتقاء بالأصدقاء حول الحديث عن ذكر الحبيب إلى قراءة الكتاب، ومن ترتيب الغرفة إلى الانشغال بالذكر والأوراد، ومن التشاور مع الأهل في بعض المسائل إلى وقت الاستراحة، بل قد تدخل ضمنَ هذا التنظيم الفترة التي قد تخصصونها للجلوس وشرب الشاي وتناول الطعام، فمثلًا إن كانت عشرون دقيقة تكفي لتناول الطعام فلا بدّ من الاكتفاء بها، وألا نضيع أوقاتنا في الكلام الفارغ بعد الطعام، بل ينبغي أن نقتطع أوقاتًا احتياطيةً من الأربع وعشرين ساعة حتى لا تخلّ الأشغال التي قد تطرأ بعد ذلك ببرنامجننا.

فإن نظّمنا أعمالنا بكلّ فروعها وأصولها على هذا النحو المفصّل ازداد الوقت بركةً، وحصد الإنسان ثمرة أعماله أضعافًا؛ لأن الحياة إن نُظّمت صار الإنسان منظمًا في وقته، وتعود على العمل في إطار برنامجٍ معين، وبهذا الحافز المعنوي يستطيع القيام بأعماله في يسرٍ وسهولة.

ولا يفهم من كلامي أن مثل هذا النمط الحياتي يعني آية الإنسان، بل يعني أن يكون الإنسان منظمًا وأن تجري حياته في نظام وانضباط، والإنسان المنظم لا يعيش خواء في عباداته وطاعته، ولا يهمل أذكاره وأوراده، ولا يُقصر في المهام التي تقع على عاتقه، ولا يُخلّ بحقوق أفراد أسرته.

### إقناع من يسيرون معنا في نفس الطريق

وهنا مسألة مهمّة لا بدّ من الالتفات إليها عند تنظيم الوقت: يجب على الإنسان أن يفتح الذين يشاركونه حياته في مسألة تنظيم الوقت التي يعترزم تطبيقها، وأن يستفيد من آرائهم وأفكارهم، وبعد ذلك يحدثهم عن أهميّة الوظائف التي عليه أن يقوم بها، وأن يقنعهم عقلاً وقلبًا بها؛ بمعنى أن على الإنسان أن يحاول إقناعهم قدر المستطاع بما علينا من حقوق الله والدين والقرآن؛ إلى جانب حقوق الزوجة والأولاد والوالدين، ولا بدّ أن يعطي كلّ ذي حقّ حقه، فإن توصل مع مَنْ يشاركونه نفس البيت إلى اتّفاقٍ في هذه المسألة استطاع القيام بعمله براحةٍ أكبر وسهولةٍ أرحب، دون أن تعترضه أيّ كلمةٍ أو تصرّفٍ سلبيٍّ ممّن حوله.

تصوّروا إنسانًا أفنع نفسه بضرورة استغلال معظم وقته في سبيل إعلاء كلمة الله، وآمن بهذا يقينًا، فهذا الإنسان تشرّب هذه الوظيفة وجعلها جزءًا من طبيعته؛ حتى إنه يقوم بها باذلاً في سبيلها شتى التضحيات دون تردّد، لكن إن لم يعلم من يشاركونه حياته عظمَ حقّ الله تعالى وأهميّة رفع راية دينه في كلّ أنحاء العالم وأن هذا الدين أمانةٌ وعليه أن يكون في شدّ معنوي دائمٍ إزاء هذه الأمانة، وإن جهل الآخرون أيضًا الأهمية الحياتية من ترميم تلك القلعة التي تنخر فيها عوامل الضعف منذ عصور

فلن يرغبوا في السير معه في الطريق نفسه، ولذلك على الإنسان أن يبذل جهداً أكبر حتى يسلك معه الآخرون الطريق نفسه، وهذا يجعل الإنسان يُصاب بالنصب والتعب بعد مدّة.

بيد أنه إن قَدَر على أن يُقنع مَنْ يشاركونه حياته بالعميقة والغاية المثلى التي يتبناها، ويتنمّ معهم الفكرة والشعور نفسه، ويبثّ في قلوبهم شعور رعاية الخدمات التي يقوم بها؛ فلا شكّ أن هذا الأمر سيساعده بشكلٍ جدّيّ في تيسير أمره وتنظيم أموره، بل إنه لو قَصُر يوماً في أداء مهامه التي عليه أن يقوم بها كأن لم يحضر إلى اجتماعٍ كان عليه أن يحضره أو أنه لم يشارك في برنامجٍ للقراءة كان عليه المشاركة فيه؛ فإنّ أوّل ردِّ فعلٍ سيلقاه؛ سيصدُر من هؤلاء الذين يشاركونه الحياة، وسيكون هذا عنصراً محفّزاً بالنسبة له.

فإن حدث خلاف ذلك -بأن لم تكن لدى زوجته أو أولاده أو مَنْ يعيشون معه درايةً بتنظيم الوقت الذي يخطّط له- فلا مفرّ من وقوع بعض الاختلافات في الفكر والشعور بعد فترة، وسيستبّب هذا في انقطاع العناية الإلهية؛ لأن توفيق الله ينشأ عن الوفاق والاتّفاق، فلو كنتم تريدون أن تحظوا بتوفيق الله وعنايته فعليكم أن تحرصوا على الوفاق والاتّفاق فيما بينكم أوّلاً، أيّاً كانت الدائرة التي تعملون في إطارها.

### التبرّع بالوقت

الموضوع الآخر الواجب الوقوف عليه هنا هو: مدّة الوقت المخصّص لما سننجزه من أعمال في سبيل غاية سامية؛ إذ إن العمل الذي يضطلع به -لأجل تحقيق مثالية معيّنة- إنسانٌ يخصّص حوالي سبع أو ثماني ساعاتٍ فحسب من يومه بمنطق الموظّف أو العامل سيكون محدوداً

بسبب ضيق ذلك المنطق، فإن تولّى الإنسان مسؤولية بضعة أعمال في سبيل غاية سامية، وكان الوقت اللازم لإنجازها يتراوح ما بين ثلاث عشرة إلى خمس عشرة ساعة؛ انبغى له أن يسعى للوفاء بهذا عبر تنظيمه وقته تنظيمًا جيّدًا؛ أي إنه يجب عليه أن يُنفق وقته في سبيل الله تعالى بقدر ما يستطيع دون أن يُضيّع ولو ثانيةً واحدة هباءً من جانبٍ، ويجتهد من جانبٍ آخر للاستفادة من وقته هذا على نحوٍ أفضل من خلال تنظيمه أعماله وترتيبه إيّاها أيضًا.

ولا سيما إن كان الأمر المطروح في يومنا هذا هو إعمارُ قلعة معنوية تضررت عبرَ عصور طويلة؛ فإنّ من ندورا أنفسهم لخدمة القرآن والإيمان مطالبون بتقديم تضحيات أكثر ممّا كان حتى الآن، وأن يتحرّكوا بحذرٍ وحساسيةٍ أكثر في هذا الشأن، ولتحقيق ذلك فهم يستطيعون "التبرّع بالوقت" فيما بينهم، فمثلاً يعلن أحدهم أنه سيخصّص وسيتبرع باثني عشرة ساعة من يومه في خدمة أمته، بينما آخر يتنكّب مسؤولية عملٍ مدّته ثلاث عشرة ساعة، وثالثٌ يعد بأن يعمل في سبيل الله تعالى أربع عشرة ساعة، والحاصل أن الجميع يسعى ويجتهد للاستفادة من الوقت وتنظيمه في إطار الخدمة بالتبرع من وقته بعددٍ معيّنٍ من الساعات، وهذا هو مفهوم العمل الذي يقع على عاتق المسلم الحقّ، فإن كان مفهوم العمل لا يعني هذا في يومنا؛ فهذا يعني جهلاً بهذا الجانب من الإسلام.

وإن كان البعض لا يتبرّع -رغم ما لديه من إمكانيات- بالوقت بالقدر المأمول منه؛ فهذا يعني وجود حاجةٍ إلى إقناع العقول في هذا الشأن؛ إذ من المهمّ جدًّا تحقيق التوافق والتوافق مع المخاطبين في هذا الموضوع، بيد أنه يلزم بعد تحقق مثل هذا النوع المرجو من التوافق ألا تُنتهك حقوق



أي إنسان على الإطلاق، وعلى كل فرد أن يتصرّف بحساسيةٍ شديدةٍ في الوفاء بما يقع على كاهله من مسؤوليات؛ فلا يتعدّى الأزواج على حقوق بعضهم، ولا يلحقنّ الضرر بحقوق الأسر، ولا يقعنّ أي نوعٍ من الظلم بين الرئيس والمرؤوس، ولا تنتهكنّ ما في مقر العمل من مسؤوليات.

وإلا فإننا إن كنا نفهم من الحديث عن العمل التحرك وفقاً لمنطق الموظف فيكون التراخي بعد أن نعمل سبع أو ثماني ساعات، والاهتمام بالمأكل والمشرب، والتجول كيفما يحلو لنا، وارتياذ المقاهي -مأوى الكسالى وذوي الهمم الضعيفة- واللعب والمشاركة في مجموعة من الأنشطة البدنية والشيطنانية فهذا يعني أننا نسيء فهم القضية، ومن يتحرك بهذه العقلية يستحيل عليه أن يُنجز ولو حتى عُشر الأعمال الواجب القيام بها خدمةً للإنسانية في يومنا، بل إن الإنسان الذي يتبنى فهماً سقيماً للعمل كهذا الفهم لن يتورّع عن الخروج في عطلةٍ خلال أكثر الأوقات حاجةً إليه، والاستئذان حين يجب القيام بأعمال وشؤون مهمة جداً، وهكذا يُعرقل الأعمال الضرورية الواجبة الأداء.

أما مفهوم ساعات العمل بالنسبة لأهل الخدمة فليس على هذا المنوال؛ فهم يسعون قطعاً للوفاء بالمسؤولية التي تحمّلوها على عاتقهم في سبيل خدمة الحق، ولا يتركون عملاً بدووه دون أن يُتمّوه، وإن حدث تقصيرٌ منهم في أثناء وفائهم بتلك المسؤولية في حقّ أزواجهم وأبنائهم وعائلاتهم سعوا لتلافيه وإصلاحه، وعملوا على ترضية وتطبيب خاطر من يظنون أنهم أحلّوا بحقّهم؛ فيقابلونهم بباقة زهرٍ مثلاً، ويبينون لهم سبب تأخّرهم، ثم يُفون لهم بما قطعوه على أنفسهم من وعدٍ في أقرب فرصة، ويصلحون الأخطاء وأوجه الإهمال اللاإرادية.

وهنا يتوجّب على الأزواج التسامح فيما بينهم في مواجهة ما قد يحدث من تأخيرٍ بسببِ عملٍ لا بدّ من إنجازه، ويجب ألا يُنسى أصلاً أن الساعات والدقائق بل وحتى الثواني التي تمرّ في فترة انتظارٍ كهذه هي في حكم العبادة بالنسبة للمتظرين؛ لأن انتظاراً على هذا النحو يُعدُّ تضحيةً حقيقيةً، وكل واحد من الزوجين في حاجةٍ إلى الآخر؛ فهناك قضايا وأمور معيَّنة يجب عليه أن يتقاسمها ويتدارسها مع رفيق حياته، وهكذا فإن ثواني يقضيها إنسان ينتظر رفيق حياته المناضل المجاهد في سبيل الخدمة، -وهو في حاجةٍ إليه- قد تُقبل دون أن يشعر هو كعبادة سنوات طويلة؛ ذلك لأن "بَيَّةَ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ"<sup>(٩٤)</sup>، وإن كان أحد الزوجين يسعى في الخير والآخر يدعمه معنوياً ومادياً نال كلاهما -ياذن الله تعالى- ثواب ذلك العمل الصالح.

## الْوَلَه بِالْأَوْلَاد

سؤال: ما الدروس المستفادة من قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (سورة الأعراف: ١٩٠/٧)؟

الجواب: يقول الله تعالى في الآية السابقة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَتُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (سورة الأعراف: ١٨٩/٧)، وتحتل كلمة "صالح" الواردة في الآية معنيين؛ الأول: أن يكون بشراً سويّاً معافى من العيوب، والثاني: أن يكون متعمقاً في إيمانه، مراعيّاً بالغ الدقة في عبادته وطاعته، متوَعلاً في شعور الإحسان والمشاهدة.

إن الرغبة في أن يكون المولود صالحاً تقيّاً من مقتضيات الإيمان بالله والآخرة، فما من قلب مؤمن يتمنى الولد إلا ويرفع يديه بالدعاء قائلاً: "اللهم هب لي ولداً صالحاً، معافى في بدنه وسائر أعضائه، كامل الإيمان والإسلام والإخلاص، اللهم سلّم بدنه وأصلح عمله، وقوّم حياته الروحية والقلبية".

ولكن رُبما يأتي المولودُ مُعاقاً كسيحاً على سبيل الابتلاء، ومثل هذه الحالة تستلزم الصبرَ والثباتَ وتَجَسُّمَ الصعوبات؛ لأننا لا ندرى الحكمة من وراء هذا الأمر، ولعلَّ ربنا ﷻ قد أراد بذلك أن يُطَهِّرَ الأبوين من الذنوب والمعاصي، ويرفع درجتَهُما المعنوية إذا ما صبرا على تحمُّل مشقات العناية بهذا الطفل المسكين.

### الخطاب للأمة كلها في شخص النبي ﷺ

قد يُفهم للوهلة الأولى انطلاقاً مما ذُكِرَ في الآية الكريمة السابقة أن المقصود بالخطاب هنا أبونا آدمُ وأمنا حواءُ ﷺ، وإن كان اللذين سألاً الله تعالى ولداً صالحاً إياهما فإننا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار صفة العِصْمَةِ الملازمة للأنبياء فسيتبين لنا أن المقصود بقوله "جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ" هم بعضُ بني آدم وليس آدم وحواء ﷺ، ولا جرم أن الأنبياء بمقتضى ما بلغوه من أفق عالٍ في محاسبة النفس لم يُعْفُوا أَنفُسَهُمْ من هذا الإنذار واعتبروه خطاباً موجَّهاً لهم، غير أن هذه مسألة أخرى، فالإنذار الحقيقي هنا هو لأُمَّمِ الأنبياء لا للأنبياء أنفسهم، وكما تعلمون فإن مخاطبة الأنبياء ببعض خصائص قومهم أسلوبٌ متبعٌ في مواطنَ عدَّة من القرآن الكريم.

على سبيل المثال يقول ربُّنا ﷻ في سورة الزُّمَرِ مخاطباً نبيَّهُ ﷺ: ﴿لَئِن أُشْرِكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (سورة الزُّمَرِ: ٢٩/٦٥)، مع أنه من المُسَلَّم به أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يكن ليتأخَّرَ بالشُّركِ مطلقاً، وهذا يُؤكِّدُ أن الخطاب هنا إنما هو للبشرية جمعاء في شخص النبي ﷺ، وكأَنَّ ربَّنَا ﷻ يقول: "لئن أشركتم ليحبطنَّ عملكم"؛ لأن النبي ﷺ مصونٌ معصومٌ بحفظ الله تعالى وعنايته.

أجل، لم يتلطَّحْ مفخرةُ الإنسانيةِ محمد ﷺ في ذلك العهد الذي غاصت فيه الإنسانيةُ حتى أذنبها في أحوال ذنوبِ الجاهلية وأرجاسها ولو بذرةٍ من الشرك حتى في عُرةِ حياته السَّيِّئَةِ، بل دعمكم من الشرك، لم يُخَلِّ صلوات ربي وسلامه عليه حتى بالآداب العامة، ولم يجرح أحدًا بكلمة ولم يُؤذِ مشاعرَ الآخرين ولو بقدر شعرة.

ومن ثَمَّ فأياً كانت المسألة التي نتناولها فلا بدَّ أولاً من الإقرار بَعْضَمَةِ الأنبياء وطهارتهم وتركيبهم، وأن نعلم أن ما وردَ من خطابٍ للأنبياء بهذا المنهج وعلى هذه الشاكلة إنما هو خطابٌ موجَّهٌ إلى جميع الأمة بطريق الأولى، فإذا ما أخذنا في اعتبارنا هذا الأمر يكون من الأنسب أن نستوعب أسلوبَ الخطابِ هنا على النحو التالي: "انتبهوا واحذروا! فإذا كان هذا الإنذار قد جاء في حقِّ نبيٍّ معصومٍ بحفظ الله تعالى وصيائته فالأولى لمن لم تُضمَّنْ لهم العصمةُ والصيانةُ أن يأخذوا حذرهم ويضعوا هذا الإنذار نصبَ أعينهم".

وهكذا علينا أن ننظر بهذا المنظارِ إلى نصيبِ سيدنا آدم من الخطاب الوارد في الآية، كيلا ننسج هالةً قدرةً وغيرَ لائقةٍ من وحي الخيال حول مَنْ اصطفاه الله وفضَّله على العالمين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٣٣/٣)، فلننزه أفكارنا وخيالنا حول سادتنا العظام من الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم وسلامه، ولذا أذكرُ مرَّةً أُخرى بأن سؤال الولدِ الصالح وإن صدَرَ من آدم عليه السلام إلا أن الشُّركَ الحاصلَ بسببِ الولدِ لا علاقةَ له ألبتَّةَ، بل الخطاب لنا نحن.

### الْوَلَدُ بِالْوَلَدِ قَدْ يَفْتَحُ الْبَابَ لِلشَّرِّكَ

إن تجاوزَ حدود الاعتدالِ في حبِّ الولدِ قد يوقع في دائرة الشَّرِّكَ، فبعض الناس يتعاطم هذا الشعور لديهم لدرجة أنهم يقولون: "إن ولدي هو كلُّ شيءٍ في حياتي"، فمثلاً تراه إذا ما جلس في أحد المجالس وذكر المقطع الهجائي الأول من اسم ولده ينتهزُ الفرصة مباشرةً للحديث عن ولده وتعداد ما أثره.

أجل، قد تكون نقطة الضعف هذه قد استحكمت لدى بعض الناس حتى إنهم يسعون لإيجاد مدخلٍ لسحب الكلام كي يتحدثوا عن أولادهم، وهذا ما يعنيه قولنا: "الْوَلَدُ بِالْوَلَدِ".

### يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حُبُّ الْأَوْلَادِ وَسِيلَةً لِسَعَادَتِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ

إنَّ الأولادَ الذين هم بمثابة مرايا صغيرة تعكس "أحسن تقويم" إنما هم وديعة الله عندنا، فلا بدَّ أن نحَبِّهم ونحتضنهم لأنهم أكثر من آثار خالقهم ومبدعهم، والأهمُّ من ذلك أن نستغلَّ حبِّنا وشفقتنا عليهم في تزويدهم بالتربية الإسلامية، وبعبارة أخرى: لا بدَّ أن يُسهم هذا الحبُّ في أن ينشؤوا على الاستقامة ويعيشوا عليها ويصبحوا مثلاً عُليا لها، وعلى الآباء والأمهات أن يهتمسوا بهذه الأمور دائماً في آذان أبنائهم وهم يقبلونهم ويمسحون رؤوسهم ويُرَبِّتُون على أكتافهم؛ حتى لا يُجاهر الأولادُ الله بمعاصيهم أو يقعوا في فخِّ الإلحاد أو تستولي عليهم مشاعر التمردِّ والتهوُّر التي تُفضي إلى خسران الحياة الأبدية؛ لأن على الأبوين مسؤولية إعداد بيئةٍ صالحة لتنشئة أبنائهم وعمل كلِّ ما يلزم حتى يرحل أبنائهم عن الدنيا أطهاراً كما جاؤوها، ولا شك أن الوفاء بكلِّ هذا بعدد آخرٍ لحبِّ الأولاد ولا غضاضةً فيه.

ولكن إن لم يعبأ الإنسان بكل هذا، وتعلّق بولده تعلقاً يصل إلى العبودية لمجرد أنه ولده، وربط كل شيء به، ورغب في التحدّث عنه دائماً فهذا يعني أنه قد طرّق باباً من أبواب الشّرك دون أن يدري، وإن كان يدّعي أنه يؤمن بالله تعالى ورسوله ﷺ، ونبيّه هنا إلى أن من يتلفظ بالشهادتين ليس بمشرك، ولكن لتعلّقه الشديد بولده صار يحمل صفة من صفات الشرك، وسيدنا رسول الله ﷺ يشير إلى هذا المعنى: "إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافَ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَضْعَرُّ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشِّرْكَ الْأَضْعَرُّ؟ قَالَ: "الرِّيَاءُ"<sup>(١)</sup>.

وإذا أردنا أن نُعبّر عن هذا الأمر بأمثلة ملموسة نقول: من الرياء أن يُعبّر الإنسان عن نفسه بقسمات وجهه، وأن يبالح في حساسيته عند أداء العبادات أمام الآخرين رغم أنه لا يفعل ذلك إن اختلى بنفسه، وأن يحاول إعلام الآخرين بمواهبه الخاصّة كحُسن التآليف والرسم والخطابة، والأنكى من ذلك أن يغلّف رغبته في حبّ الظهور بغلاف التعبير عن عجزه وفقره في مُستهلّ حديثه قائلاً: "أنا الفقيرُ أنا العاجزُ"، وهذا يُعبّر أخطر أنواع الرياء، وإنّ محاولة الشخص إظهار نفسه من خلال ولده لا يختلف عما ذكرناه آنفاً؛ فمثله يُدبّر حبه لولده بصفة من صفات الشّرك، في حين أن على المؤمن أن يُراعي الدقّة البالغة في المحافظة على صفات إيمانه قدرَ محافظته على عِرضه وشرفه، ولا بدّ أن يُطهّر أفكاره ومشاعره من أيّ شائبة للشرك الخفي سواء أكان رياءً أو عُجباً أو سمعة أو فخراً أو كبراً؛ لأن كل واحدة منها صفة من صفات الشرك، ووجود صفة كهذه لدى الإنسان بمثابة وجود فيروس فيه، وبعض هذه الفيروسات يصيبُ الجسم بنزلة بردٍ، وبعضها يصيبه بالسرطان، وبعضها يصيبه بالإيدز

(١) مسند الإمام أحمد، ٤٣/٣٩؛ الطبراني: المعجم الكبير، ٤/٢٥٣.

والعياذ بالله، ولذا على الإنسان ألا يستصغر أيَّ صفةٍ من صفاتِ الشُّركِ والكفرِ، وألا يُفَسِّحَ المجالَ لنمُوِّ مثلِ هذه الصفاتِ في قلبِه وروحِه.

ولا جرم أن مَنْ يُبدي محبَّةً مُفْرِطَةً وولعًا شديدًا بولده وأسرتهِ ليس بمشركٍ وإن كان يحمل صفةً من صفاتِ الشرك، فإن مات على الإيمان دخل الجنة، ولا يعامله الله تعالى - وهو أعلم - معاملةً المشرك، غير أننا لا بدَّ وأن نُفَتِّشَ عن حلِّ لهذا الأمر ونتحرَّى الدقة البالغة فيه لأن صفةَ الشُّركِ هذه تُشبهُ الفيروسَ، والفيروس لا يُتْرَكُ يعيشُ فسادًا في الجسم، بل لا بدَّ من استئصاله، ففيروس الإنفلونزا مثلًا إن لم نبحث له عن علاجٍ ناجعٍ فربما يصرُعُ الإنسانَ أو يقتله، وعلى ذلك يجب على الإنسان ألا يسمح بأن يستقرَّ في بنيتهِ أيُّ فيروسٍ يتنافى مع فِطْرَتِهِ الأصلية ومع صورة "أحسن تقويم" التي خلقه الله عليها، فإن حاولت هذه الفيروسات أن تطرُقَ بابَه أغلقه في وجهها قائلًا: "لا تُتعبني نفسك هباءً، فكلُّ الأبوابِ موصدةٌ".

قد يسأل سائل فيقول: لماذا يجب على الإنسان أن يتحلَّى بهذا القَدْرِ من الحَذَرِ والدِقَّةِ حيالِ الشُّركِ؟

والجواب: لأن الشرك يكون أحيانًا خفيًا أو ضئيلًا جدًا لا يكادُ الإنسانُ يدركُه أو يعبأُ به، ولكن يجب ألا ننسى أن صغائر الذنوب التي لا نعبأُ بها ونقللُ من شأنها تصبحُ أحيانًا أعظمَ من الكبائرِ بكثرةِ تكرارها، بل قد تكون أخطرَ منها، كما يقال: "لا صغيرةٌ مع الإصرار ولا كبيرةٌ مع الاستغفار"، وإلى جانب هذا فإن العبد إن أطلع على كبائره واستحضرَ وأدركَ فظاعتها وأخذها على محمل الجدِّ فسرعانَ ما يعودُ إلى ربِّه في أسَى وانكسارٍ متوسلًا إليه بالتوبة والإنبابة والأوبة، وبعد ذلك يستنْفِرُ هذا



الشعورُ بالذنبِ لديه مشاعرَ مكافحةِ المعاصي، وفي النهاية يعيشُ في حذرٍ وتحفُّظٍ دائمٍ منها.

وهكذا فإن لم يحافظ الأبوان على حدِّ الاعتدالِ في ولعِهما بأولادهما وإن بدا صغيرًا في البداية فسَيُضِحُّ مشكلةً فيما بعد تتفاقمُ مع مرور الزمن.

وحتى نفهم الموضوع بشكلٍ أفضلٍ يمكننا أن نضربَ مثالاً بالخطيأ الذي وقع فيه أسلافُ قومِ نوحٍ عليه السلام، فكما تعلمون كان "وَدَّ وشواع وَيَعُوثُ وَيَعُوقُ ونَسْر" -في رواية- أشخاصًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: "لو صَوَّرْنَاهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم"، فَصَوَّرُوهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: "إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسَقَوْنَ المطرَ"، فَعَبَدُوهم<sup>(٢)</sup>، لقد كانت هذه الفكرة بريئةً في البداية، ولكنها أصبحت مع الوقت سببًا في تأليه هؤلاء الرجال الصالحين، كان مُبْتَدِئُها وجهةَ نظرٍ بسيطةً لكنَّها آلت في النهاية إلى مصيبةٍ عظيمةٍ

أجل، على الإنسان ألا يُطِنَّبَ أو يُفَرِّطَ في حُبِّه سواء أكان المحبوب أولاده أم غيرهم، وألا يتجاوز الحدَّ المعقول؛ فطوبى لمن عرف حدَّه فوقَ عنده.

### التوازن في حُبِّ الولد

يرى البعضُ في أيامنا هذه أن الولدَ هو المرتكزُ الذي تقوم عليه الأُسْرُ، غير أن الأخرى أن نساءل: هل نقطة الارتكاز في الأسرة اليوم هي الولد، أو الهوى والرغبة، أو النفس، أو الأناية؟! كلُّ هذا تساؤلٌ

(٢) تفسير الطبري، ٦٣٩/٢٣.

دون حكمٍ قطعيٍّ ولكن ما نقطعُ به هو أن المرء إن اختار لنفسه نمطَ حياةٍ لا يتماشى مع الأوامر والنواهي الإلهية التي وضعها الدين فقد كثرت نقاط الارتكاز السلبية عنده، وانفتح الباب أمامه لمختلف أنواع الشرك المنافية للتوحيد.

فضلاً عن ذلك فليس من الصحيح وفقاً للأخلاق الإيمانية أن تُبنى سعادةُ الأسرة وتعاستُها على مسألة الإنجاب بل وأن تنشأ الخلافات والنزاعات من أجل ذلك؛ لأنَّ مثلَ هذا السلوك -نسأل الله السلامة- يُعبّر عن عدم الرضا بقضاء الله، والاعتراض على القَدْرِ، والتمرُّد على الله ﷻ.

أجل، إن المشاكل الناشئة عن عدم الإنجاب -رغم أنه من تخصُّصات القَدْرِ- هي أمورٌ لا يرتضيها الله ﷻ، ولنذكر دائماً ولا ننس أن الولد بوجوده أو عدمه ابتلاءٌ في حدِّ ذاته، قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَاطُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: ٢٨/٨).

أما الصَّرْرُ في اعتبارِ الولدِ كلِّ شيءٍ، والحبِّ المُفْرِطِ له، وجعله المرتكز الذي تقوم عليه العائلة فإنَّه يكمن في التغاضي عن تصرُّفاته السلبية، وعدم البحث عن حلٍّ سويٍّ لهذه المشاكل والسلبيات، فمثل هذا التصرُّف قد يُفضي مع الوقت إلى نشأة أبناءٍ غير أسوياء، بيد أن الهدف الأساس في هذا الأمر هو إنجاب طفلٍ صالحٍ مستقيمٍ طاهرٍ على خُلُقٍ حسنٍ، فعلى الأبوين أن يبذلا جهدهما ويقوما بكلِّ ما يلزم للوصول إلى هذا الهدف، ولكن الحقيقةُ المُرَّة تُشير إلى أن الغالبية العظمى من الأطفال اليوم قد ضاعوا وضلُّوا الطريقَ بسبب انتشار الجهل في الأسرة، والوحشية في الشارع، وتبلُّد الأحاسيس في دُور العبادة، وافتقار التعليم إلى الجودة.

## تربية الأبوين هي البداية لنشأة الولد الصالح

فإذا ما ابتغينا الولد الصالح فعلينا بدايةً أن نُحسِنَ تربيةً والديه؛ إذ يجبُ أن يتعلّم الوالدان في البداية كيف يكونان قدوةً لأولادِهِما، وكيف يعاملانهم، بل ومن الممكن أن يلتحقَ المُقبِلون على الزواجِ بدوراتِ تأهيليةٍ قبلِ الزواجِ، فإن حصلوا على شهادةٍ منها تزوّجوا وإلا فلا، وخلال هذه الدورة يتعلم هؤلاء الشباب المقصد الأساس من الزواج، وكيف يمكن تأسيس علاقة صحيّة بين الزوجين، وكيف يعاملان بعضهما البعض، كلُّ هذه الموضوعات وأمثالها لا بدّ من تأسيسها على أرضيّة صلبة؛ لأنّ المقبل على الزواج -ذكرًا كان أو أنثى- إن تزوّدَ بالعتادِ السليم في هذا الشأن فستصبح هذه المؤسسةُ المُقدَّسةُ التي يُشكّلها مع شريكِ حياته روضةً من رياض الجنة، ولا شك أن الأولاد الذين يتربّون في كنفِ مثل هذه العائلة سيغدون صالحين أسوياء، ولكن إن لم تكن لدى الأبوين كفاءة لتحملِ مسؤوليّة الأبوة والأمومة فسيظلُّ الأطفال مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وللأسف نشأت معظم الأجيال الحالية على هذا النحو، وإن نشأ البعض في بيئةٍ طاهرةٍ وبلغوا ذاتيتهم فالغالبية العظمى لم تتمكّن من فعل ذلك.

ولطالما تلقى الذين تورّطوا في حبٍّ غير مشروعٍ على خلاف مقصدهم لطماتٍ ممّن أحبّوهم أيًّا كانوا هم، من أجل ذلك إن لم يعتبر الوالدان ولدهما وديعةً من الله عندهما، بل ونظرا إليه على أنه بضعةٌ منهما فحسب، وأحجّاه حبًّا أنانيًّا وولعا به ولعًا مُفرطًا؛ فسيغدو هذا الولد ابتلاءً لهما في المستقبل؛ لأنّه كما يتسبّب الإفراطُ في شيءٍ تفریطٌ في آخر، فكذلك التفریطُ بالتالي يؤدّي إلى إفراطٍ آخر، وكما أن هذا الأمر يتخلّل

العلاقة بين الأبوين والولد فهو يسري أيضاً على العلاقة بين كلِّ مُحِبِّ ومحبوبٍ.

حاصل القول: لو أن الإنسان وضع غيره -أيًّا كان هو- في مقامٍ أعلى من قدره، وأفرطَ في حُبِّهِ له فسيتلقَّى لكمةً منه على عكس ما كان يهدُفُ أو يتتَظَر، ثم يأتي اليوم الذي يسمع فيه كلُّ منهما ما لا يحبُّ من الطرف الآخر.

## تكامُل الطبيعة الإنسانية والإسلام

سؤال: كيف يمكن للإنسان أن يجعل الإسلام جزءاً لا يتجزأ عن طبيعته؟ وما هي وسائل تحقيق ذلك؟

الجواب: إنَّ الإحساس والشعور بالمعلومات الإسلامية النظرية على نحوٍ يتناسب مع ماهيتها الحقيقية الكامنة في وجدان الإنسان، وضرورة هذه المعلومات عمقاً من أعماق الطبيعة الإنسانية مع مرور الزمن ليرتبط في المقام الأول بالإقرار بأنَّ تطبيق هذه المعلومات شرطٌ أساسيٌّ لا غنى عنه، ولقد لفتَ بعضُ الفلاسفة الانتباهَ إلى هذه المسألة باستخدامهم مفاهيم كـ"العقل العملي" وما شابه ذلك، بينما ركّز الصوفيّة على هذا الأمر بطرق وأنظمة مختلفة عنهم مثل "السّير والسلوك الروحاني".

وعلى حين أنّ فيلسوفاً كـ"برجسون (Bergson)" -مثلاً- يقول بإمكانية العثور على الحقيقة عبر الأحاسيس والبصيرة الوجدانية فحسب؛ يؤكد "كانط (Kant)" على أنّ معرفة الله تعالى لا يمكن أن تتم إلاّ بواسطة "العقل العملي"، ونظرًا لأنّ هذين الفيلسوفين تربّيا في أحضان الثقافة الغربية، فإنّ وصولهما إلى الحقيقة من عدمه، وإمكانية وصولنا إلى الحقيقة على منوالهم سيبقى مثارَ جدلٍ ونقاش؛ إلاّ أننا لسنا بصددٍ تحرير ذلك؛ فهذه مسألة أخرى.

إنكم إن أبقيتُم الأدلة التي تسوقونها حول معرفة الله تعالى مجرد معلومات نظرية، ولم تدعموها بالعمل؛ فإن هذا قد لا يكفي لحماية الإيمان والإسلام وأسسهما الخاصة. أجل، إنَّ الریحَ المعاكسة قد تعصف بكلِّ أنواع المعلومات والأدلة النظرية وتنسفها نسفًا، ومن ثمَّ فإنه يلزم تطبيق المعلومات النظرية وتفعيلها على أساس قاعدة العمل.

### سبيل النجاة: الإيمان والعمل الصالح

الحقيقة أن القرآن الكريم يربط خلاص الإنسان من الخسران، ونجاته من التردّي في أسفل سافلين بالإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ ﴿١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ (سورة التين: ١-٤-٦).

واستخدام صيغة الفعل عند الحديث عن الإيمان والعمل في الآية، والتعبير بالجملة الفعلية لا الاسمية يُشير إلى أهمية الاستمرارية فيهما كي تتحقّق النجاة، ومن هنا فإنّه ينبغي للإنسان أن يُقوي إيمانه على الدوام مقتديًا بالصحابة الكرام؛ إذ كان أحدهم يقول لصاحبه: "الجلس بنا نُؤمّن ساعة" (٣)، وأن يسعى دائمًا لتجديده وتنميته، وربّما تكونون قد حللتُم مسبقًا كلَّ المشكلات الخاصة بالكفر والإلحاد، وتغلّبتم وحكمتُم عليها بالإعدام، إلا أنه حريٌّ بكم ألا تتوقفوا أبدًا، ولا تكتفوا بما وصلتُم إليه؛ حتى لا تفقدوا هذه المكتسبات الإيمانية، وعليكم أن تبحثوا يوميًا عن مزيدٍ من السبل لتجديد إيمانكم ونموّه.

وقد ركّز القرآنُ إثرَ حديثه عن الإيمان على العمل الصالح السليم الدائم الذي لا يشوبه رياء ولا سمعة ولا يتخلّله نقض ولا قصور؛ إذ إنَّ

نطاق العمل الصالح واسعٌ جدًّا، فجميع الأعمال التي يجب القيام بها بدءًا من الإيمان بالله وعبادته وطاعته، ومرورًا برعاية حقوق الوالدين، ووصولًا إلى حماية حقوق المسلمين... كل ذلك يدخل في إطار مفهوم "الصالحات"، واستخدام صيغة الفعل دون غيرها من الصيغ عند الحديث عن العمل الصالح يعني ضرورة ألا يكتفي الإنسان بفعل البر والخير مرة واحدة فحسب، بل عليه أن يسلم قياده إلى شلال العمل الصالح ويواصل حياته على هذا المنوال دائمًا.

ويمكنكم رؤية نفس المضمون في سورة العصر أيضًا؛ إذ يُذكر فيها أنّ الإنسان في خُسْرٍ، ثم تُعلّق النجاة والخلاص من هذا الخسران على الإيمان والعمل الصالح معًا؛ حيث توجد في ماهية الإنسان مجموعة من القوى والمشاعر والأحاسيس مثل: "القوة الشهوية" و"القوة الغضبية" و"القوة العقلية" قد تؤدي إلى ارتكابه أمورًا سلبية، كما أنها قد تسوقه إلى الخسران وتغرقه في مستنقع في أيّ وقتٍ وآن، وقد قدّم الحقّ تعالى في تلك السورتين الوصفة العلاجية الناجعة التي يمكنها أن تكون ترياقًا يحمي الإنسان في مواجهة هذه المخاطر القاتلة، وفي صدّد الحديث عن هذه الحقيقة قال الإمام الشافعي: "لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَّتْهُمْ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العَصْرِ: ١٠٣-١٠٤/٣)".<sup>(٤)</sup>

### العجز والفقر، الشوق والشكر

لقد أوصى الصوفيّة كذلك بـ"السير والسلوك الروحاني" من أجل تَشَكُّلِ شخصيّة الفرد المسلم واكتساب الإنسان فطرةً جديدةً، غير أنّ لهذا

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٣/١.

سبلاً ومناهج مختلفة خاصة به؛ فقد وضع أولئك العظماء في حساباتهم العوامل الضاغطة على المسلمين في الفترة التي عاشوا هم فيها، وأسسوا أنظمة قادرة على التصدي لتلك الظروف، والصمود في مواجهتها؛ وبينما ربط بعضهم نظامه بـ"مراتب النفس السبع"، أسس البعض الآخر نظامه بناءً على "اللوائف العشرة".

أما الأستاذ بديع الزمان فقد ربط النظام الذي وضعه بأربعة أسس هي: العجز المطلق والفقر المطلق والشوق المطلق والشكر المطلق، وتحدث عن أساسين آخرين قد يُتَمَّان هذه الأسس الأربعة، ألا وهما: الشفقة والتفكير<sup>(٥)</sup>، وهذا النظام بمثابة درٍبٍ يجبُ على مَنْ يبغى الإنسانية الحقيقية والكمال أن يسلكه، غير أن إقرار إنسانٍ بهذه الأسس وقبوله بها واستيعابه إياها يتطلب جهداً وسعيًا حقيقيًا.

الأساس الأول: هو العجز المطلق، ويُفصِّدُ به أن يعي الإنسان ويُدرِك أنه يستحيل عليه القيام بكلِّ عملٍ يرغب فيه؛ فالحوادث تقع وفقاً لتقدير الحقِّ تعالى، ولا نستطيع التدخل فيها، وحتى وإن لم نُنكر وظيفة الإرادة في هذا الموضوع فمن المؤكَّد أن الله تعالى هو خالق النتائج كما أنه الخالق لكلِّ شيءٍ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يعتبر نفسه قطرةً في بحرٍ أمام كُلِّ من الإرادة والقدرة الإلهيتين الأبديتين، ويرضى بوضعه ومقامه ويُسلِّمَ زمام أمره للخالق ﷻ.

أما الفقر المطلق فهو: أن يُدرِك الإنسان ويعي تماماً حقيقة أن الله تعالى هو الصاحب والمالك الحقيقي لكلِّ الموجودات والأشياء،

(٥) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب الرابع، ص ٢٤؛ الكلمات، الكلمة السادسة والعشرين، ذيل، ص ٥٥٥.



وما نملكه ممَّا استُخْلِفنا عليه إنما هو منه ولَّه، فهو الذي استخلفنا في الأرض، ومنَّ علينا بنِعْمٍ لا تُعدُّ ولا تُحصَى، وجعلنا مسلمين، وعرفنا بسلطان الأنبياء ﷺ، وفتح لنا آفاقاً ساميةً عاليةً على الرغم من عدم أهليتنا لها، وربطنا بغايات ساميةٍ وحثنا على استهدافها وتحقيقها، فإن جحدنا النعمةَ وأعرضنا عن الحديث عمَّا أنزله الله تعالى علينا من نعمٍ وانتقلنا إلى الحديث عمَّا هو من عند أنفسنا فلن يبقى في أيدينا بل ولن نجد في جعبتنا شيئاً أبداً! فماذا نكون نحن ما دام جسدنا وعقلنا وحسنا وفكرنا وكل أعضاءنا وأملاكنا من عنده تعالى؟ إننا إذاً -وكما قال فضيلة الأستاذ بديع الزمان- ظلُّ ظلِّ نورٍ وجوده ﷺ، بل إننا أمامه جلٌّ وعلا لا نُعتبر ولو حتى مجردَ قطرة في بحرٍ<sup>(٦)</sup>.

### التفكير والشفقة

بالرغم من أن هذه الأسس المذكورة مهمة جداً إلا أنها لا يمكن أن تتوحد مع طبيعة الإنسان تماماً بمجرد قراءتها والتفكير السطحي بها، إذ إنَّ تحوُّلها إلى بُعدٍ من أبعاد الطبيعة الإنسانية مرتبطٌ بحالةٍ من التأمل والتدبُّر والتذكُّر الحقيقي الجاد، فعلينا أن نُمعن في التفكير والتأمل في الإنسان والقرآن والكون، ونفعل كلَّ ما بوسعنا حتى نجعل حديثنا وكلامنا وسيلةً وسبيلاً لشرح هذه الحقائق، وأن نُديم التفكير فيما نملكه، وكم لدينا من رأسمال، وما مدى وجود قُوَّتنا؛ فالحقيقة أن بلوغ الإنسان آفاق مرتبتي الشوق والشكر مرتبطٌ ومرهونٌ بتوفُّرِ نظامٍ فكريٍّ فعَّالٍ ينسَّطُ على هذا النحو.

(٦) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: المكتوبات، المكتوب الخامس عشر، السؤال السادس، ص

أما الشفقة التي هي مِنْ أَسَسِ منهنجا فتعني الرحمة بالإنسانية والسعي الجادَّ والتفاني والتضحية لإنقاذ الآخرين، بل إنه يجب على الإنسان ألاَّ يَقْضِرَ مشاعرَ الشفقة التي يمتلكها على الإنسانية فحسب وإنما عليه أن ينشرها وينثرها على الوجود بأسره، ويستثمر كلَّ فرصة تَعِنُّ له في عَرْضِ هذا الشعور عرضاً عميقاً ودقيقاً، بل إنه ينبغي له أن يتحلَّى بأسمى معاني الشفقة وأزحبا حتى إنه ليبيكي إذا رأى نحلة تُعالج الموت.

ولا ريب أن اكتساب مثل هذا النوع من حسِّ الشفقة مرتبطٌ بامتلاك إيمانٍ قويٍّ بالآخرة إلى جانب التفكير والتدبُّر، وأحسبُ أن ذلك الهيجان والخلجان لدى الأنبياء العظام إنما كان ينبع خوفاً من سوء العاقبة، وشوقاً إلى حسن الخاتمة، لأنهم يؤمنون أن أولئك المتحررين الذين أطلقوا لأنفسهم الأعنة دونَ حدودٍ أو ضوابط سيتردُّونَ في جهنم حتماً، وأنَّ هناك جنةً في الآخرة تتمايل وتتراعى بكلِّ عظمتها ورونقها، ولهذا السبب فقد بذلوا كلَّ طاقاتهم ووسعهم وسخروها لدفع الناس عن تلك النارِ إلى تيك الجنة، وحالة مفخرة الإنسانية ﷺ الذي خُوطب في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٦/٢٣)، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (سورة الكهف: ٦/١٨) إنما تنبع من هذه التأملات الواسعة الكامنة بين جوانحه.

أجل، ينبغي للإنسان أن يسعى ويجتهد كي يرتقي إلى الدرجات العلى وكأته في دوامة حلزونية، سواء باستخدامه المنهج الذي وضعه فضيلة الأستاذ بديع الزمان أو بغير ذلك من الطرق والمناهج؛ فبينما هو يؤدي حقَّ المقام الذي يشغله؛ عليه -وبنفس الوقت- أن يطمح بنظره دائماً إلى

مقاماتٍ أُسمى وأرفع، ويكونَ لسانُ حاله دائماً لسانَ حالِ المسافرِ في سبيلِ معرفةِ الله تعالى التي لا يُشبعُ منها أبداً، ويستزيد منها قائلاً: "فهل من مزيد؟" فإن استطاع الاستفادة الجيدة من العطايا والواردات التي حظي بها فيما وصل إليه من مقام؛ فَلَسَوْفَ تستيقظُ الأشواقُ في أعماقه نحو أشياءٍ جديدةٍ، ومن ثمَّ فإنَّ مثلَ هذا المسافرِ سيطرق أبواباً شتى دائماً ودون توقُّف.

### الاستقامة والسعي الدؤوب

إنَّ مسافرًا في طريق الحقِّ كهذا الذي يتحرَّك باتجاه الشوق والتوق المستيقظ في وجدانه سوف يسعى دائماً لإعلاء هِمَّتِه، وكلما أعلاها أكثر كلما أُتيحت له فرصة التحرك أكثر، وبهذا سيدخل في إطار دائرة صالحة؛ فتتكون في فؤاده دوماً اشتياقات جديدة يطلب بفضلها ويطمح إلى مراتب ومقامات جديدة؛ أي إنَّ الإنسان حين يبذل طاقته ووسعه كشرطٍ عاديٍّ فإن المشيئة الإلهية التي هي الشرط الأساس تُسعفه؛ فتوصله إلى المراتب التي ينشدها.

ولا شك أنَّ استيعابَ كلِّ هذه الأمور وصيرورتها بُعداً من أبعاد الطبيعة الإنسانية لن يتحقق هكذا فجأة؛ فهذا الأمر مرتبطٌ بجهد وسعي حقيقي وجادٍ، ولكن قد تتحقَّق خوارقُ عاداتٍ في بعض الحالات الخاصة، فيُصل الناس على جناح السرعة إلى ذروة الكمالات الإنسانية؛ وعلى سبيل المثال فهناك مَنْ لم يتسنَّ له من صحبة النبي ﷺ ومجالسته إلا مدَّةً وجيزةً، ومع ذلك فقد ارتقى ووصل آفاق الصحابة، لأن مجلسه ﷺ مناخٌ يصبغُ المخاطبين ويؤثِّرُ في أعماقهم، فهو يُدكِّرُ بالله تعالى دائماً بحاله وسلوكه وجلسته وقومته وصمته وحديثه وما في وجهه

من قشعريرة، وما في تقاسيمه من سعادة، إنه ﷺ يُشعر -بكلِّ أحواله- مَنْ بجواره أنه في حضرة الله تعالى.

والأمر كذلك بالنسبة لبعض أولياء الله تعالى الذين جاؤوا بعد سيد الأنبياء ﷺ؛ فقد يرتقون -بنفسٍ واحدٍ منهم أحياناً- بمنْ يدخل في جوهم ومناخهم إلى أفق الإنسان الكامل، ويمكنكم أن تضربوا مثلاً على ذلك الارتقاء العمودي بما كان لدى ذوي القابليات العالية مثل: "طاهر موتلو (Tahiri Mutlu)" و"حسن فيضي (Hasan Feyzi)" وحافظ علي (Hafiz Ali) وخلوصي أفندي (Hulusi Efendi) الذين تحلَّقوا حول فضيلة الأستاذ بديع الزمان.

غير أن هذه الأمور من النادرِ وقوعها، وليست دائمةً ولا مستمرةً، لأن ذلك كرمٌ إلهيٌّ يظهر لدى الأنبياء العظام في صورة معجزة، بينما يظهر لدى الأولياء العظام في صورة كرامة، أما الجانب الموضوعي من هذه المسألة، أي شكلها الذي يمكن للجميع اللجوء إليه في كل آنٍ وحينٍ فيتسنى باستغلال الإرادة استغلالاً صحيحاً في جميع الأوامر والنواهي.

إن كنا نريد أن نجعل قيمنا الخاصة بُعداً من أبعاد طبيعتنا فعلينا أن نجتهد للاشتغال الدائم بروافدنا ومصادرنا، وأن نتحدث عن الحبيب تبارك وتعالى في حلِّنا وترحالنا، وننسج كلَّ أحاديثنا وجلساتنا حوله.

كذلك ينبغي ألا ننسى أن الله في عون العبد ما دام العبد يبذل جهداً حقيقياً ويسعى سعياً حثيثاً في موضوع العبودية له تعالى.

إن تحبِّ المولى، أتظنُّ أنه لن يحبك؟

وإن طلبت رضا الحق، أتحسبه خاوياً يرِّدك؟

وإن ضحيّت بالروح عند باب الحق

وكنّت طوعَ أمره، أفيخسك الله ثوابك وأجزك؟

إنكم إن تتجهوا إلى الله، يتجه إليكم، وإن تحوّلوا أنظاركم وأبصاركم إليه تعالى ينظر إليكم، وإن تفتحوا إليه قلوبكم وأفئدتكم لا يتركها خاويةً فراغاً.

وختاماً أقول إن استطاع الإنسان جعل تطبيق الإسلام طبيعة فيه فلن يتعسر ولن يتعب كثيراً في أداء مجموعة من العبادات والتكاليف المنوطة به، فمثلاً إن الاستيقاظ من النوم ليلاً والقيام إلى التهجد ليثقل ويشق على النفس، غير أن الإنسان إن جعل هذا الأمر جزءاً لا يتجزأ من طبيعته، وكأنه عقد اتفاقاً سرّياً بينه وبين الله تعالى؛ فلن ينزعج ولن يتأذى بسبب النهوض من فراشه، ربما يعاني في أول الأمر من خمول بسبب النوم، إلا أنه حين يسلم نفسه للصلاة ويتوجه بالدعاء ويشرع في التضرع إلى الله تعالى؛ فإنه سيقول من شغاف قلبه: "ما أحسن أن استيقظت، واستثمرت هذه الساعات الليلية الموحشة، وتوجهت فيها بالمناجاة لربي!".



## نحو أفق الرضا

سؤال: قال رسول الله ﷺ "رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا"<sup>(٧)</sup> ماذا يعني إقرار المؤمن بهذا؟ وكيف يُقال هذا الذكر المبارك؟

الجواب: بشرنا سيد الأنام ﷺ فقال: "مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرَضِيَهُ"<sup>(٨)</sup>؛ فينبغي للمؤمن أن يتخذ من هذا الإقرار الميمون والذكر المبارك وردًا دائمًا يكرره صباح مساء؛ فهو هنا يقرّ أنه رضي بالله، فهو إذا راضٍ بكل تصرفاته تعالى؛ وأنه قبل بالإسلام نظامًا إلهيًا، ورضي عنه، ورضي كذلك بسيد الأنبياء ﷺ رسولًا، وسلم برسالته؛ فالطريق إلى الإيمان الحقيقي يمر أصلًا من شعور واعتقاد وإذعان كهذا. فرسول الله ﷺ يعلمنا بهذا الإقرار النفيس حقيقة مهمة، ويحث المسلمين بالإشارة على القيام بأعمال تبلغهم أفق ذلك الرضا الذي أقروا به بألسنتهم، إقرارًا من شأنه أن ينوي هذا الحس في قلوبهم ويعتقه ويؤصله.

(٧) صحيح البخاري، العلم، ٢٩؛ صحيح مسلم، الصيام، ٣٦.

(٨) سنن أبي داود، الأدب، ١١٠.

## قطب مرتبة الرضا

أثبتت العبارة الأولى من حديثه هذا أنه ﷺ قطب مرتبة الرضا، وذلك بقوله "رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا" وبحياته السَّنية المخلصة لهذه الحقيقة الشاهدة عليها؛ أجل، إنه ﷺ في القلب من مركز مرتبة الرضا؛ فلنعلم في كل مرة نقول فيها "رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا" أنه سبقنا إليها، وعلينا أن نقتدي به، بل حتى لو حلَّق إنسان نحو السموات، وناداه ربّه مباشرة "إني عنك راضٍ"، بل وأجلسه -فَرَضًا- مع سيد السادات جنبًا إلى جنب، وأنعم عليه بالإلهام والواردات كما أنعم على الرسول ﷺ بالوحي، وألقى في روع كلٍّ منهما الأمر نفسه؛ لوجب دائمًا على ذلك الشخص أن يرى الرسول الأكرم ﷺ المرشدَ والهادي؛ لأنه ما وصل إلى ما وصل إليه من حِسِّ وفكرٍ ومنطقٍ وفهمٍ وتدبرٍ وتأمّلٍ إلا بفضلِهِ وفي ظلِّ إرشاده ﷺ، ولولاه لكانت دنيا ذلك الإنسان وأخرته سجنًا حالكًا؛ فإقرار الإنسان بدايةً طوعًا وقصدًا بأن سيد السادات ﷺ هو المرشد والمعلم واتباعه له أمرٌ مهمٌّ جدًّا لبلوغ أفق الرضا. وبينما يبلغ البعض بالسير والسلوك الروحاني من المراتب ما يُوثق صلّتهم به ﷺ؛ قد يسقط بذلك من لا يَزِن كل شيء بميزان الشريعة في شطحاتٍ وطيشٍ -نسأل الله السلامة-، وقد يقول هذا حينئذ: "سبق نوري نوره ﷺ"، والحقُّ أنه ﷺ هو النور كله من أوله إلى آخره، وليس لأحد أن يبلغ ذلك النور ألبتة، ولا ذلك المقام الذي أحرزه.

وقول رسول الله ﷺ "وَبِالإِسْلَامِ دِينًا" معناه أنه رضي بالإسلام نظامًا إلهيًا. أجل، فلا أحد ألبتة وَعَى الإسلام وفهمه مثلما وعاه وفهمه هو ﷺ، ولا أحد رضي عن هذا النظام الإلهي ووقف حياته عليه، ولم يكن له همٌّ سوى إقامته مثله هو ﷺ؛ ولو اجتمعت صدّيقية أبي بكرٍ رضي الله عنه، وفاروقية عمر



ابن الخطاب عليه السلام، واستمسك سيدنا عثمان رضي الله عنه بالقرآن الكريم وعشقه له، ورتبة سيدنا علي عليه السلام بطل الروح والقلب؛ لما عُذَّتْ شيئاً بجانب مرتبة رضا سيدنا محمد عليه السلام، ولا يذهبن بأحد الوهم إلى أنني أستخف بهؤلاء الأعلام العظام، بل إنما أردت أن أؤكد على عظمة العظيم عليه السلام، وبيان عظمة رضاه بالإسلام.

وأخيراً يذكر سيدنا رسول الله عليه السلام بقوله "وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا" أنه راضٍ برسالته هو، والأصل في الحبيب الأكرم عليه السلام التواضع والفناء، حتى إن كل ما يفعله يفعلُه بوصفه عبداً لله، فيأكل مع خادمه، ولا يأكل حتى يأكل معه، ولا يرى لنفسه فضلاً على أصغر إنسان، وقد سُرفَ مع هذا كَلِّه بمهمة الرسالة "القول الثقيل"؛ ويستحيل أن يكون الإنسان مسلماً ما لم يشهد أن "محمدًا رسول الله" مع شهادته أن "لا إله إلا الله"؛ لأن الإيمان برسالته ركن أصيل من أركان الإسلام والإيمان؛ وهنا يبدو كأن هناك تناقضاً صورياً بين تواضع سيد السادات الفريد النادر وإعلانه مهمة الرسالة، وبناء على هذا فإن قوله عليه السلام "وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا" -مع تواضعه الفائق- له مغزى عميق؛ نعم، ما قال هذا إلا لأن هذه الحقيقة تقدير من الله وتكليف لا يسعه عليه السلام نفيه ولا إخفاؤه تواضعاً.

### الشعور بالرضا على قدر المعرفة

كيف يقال هذا الذكر المبارك؟

من المهم جداً أن يؤدِّي الإنسان هذا الذكر بعشق واشتياق ينبعث من أعماق قلبه بعد أن يتحرر من الغفلة والألفة، والأصل أن الرضا بالله وبرسوله وبالإسلام رهنٌ أوَّلاً بمعرفتهم معرفةً كاملة؛ فمحببة العارف على قدر معرفته، أما الجاهل فلا يبالي بما يجهره؛ ومن ثم فإنه يستحيل عليكم

بلوغ أفق الرضا ما لم تعرفوا الله بعظمته وجلاله وأسرار ربوبيته وأسرار ألوهيته حق المعرفة، ويستحيل عليكم أن ترضوا حق الرضا برسالة مفخرة الإنسانية ﷺ إن لم تعرفوه بفضائله وخصائصه، كما يتعذر عليكم بالشكل نفسه أن ترضوا بالإسلام إن لم تعرفوه بسعته وعمقه، وأصوله وفروعه.

وجفاء الكثيرين اليوم لمفخرة الإنسانية ﷺ مرده إلى جهلهم به وعدم تعرفهم عليه، ولو أننا استطعنا إشعال شمعة لسيدنا رسول الله ﷺ في قلوبهم، لشُغفوا به وحظوا بالتعرف عليه. نعم، فكما أن الشوارع لا تتيح فرصة التعرف عليه، فكذا المدارس والبيوت، بل المساجد كذلك لم توفر إمكانية التعرف عليه بالشكل اللائق؛ فنشأ هؤلاء محرومين من التعرف على مفخرة الإنسانية ﷺ؛ فالحمد لله وله المنة أنه ما زالت تتلألأ في قلب إنساننا -رغم كل هذا الإهمال الذي تعرض له- معانٍ خاصةً به ﷺ، وأنه ما زال يشهد "أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله".

### الإلحاح في الدعاء لتحصيل أكبر نعمة

لما كان الرضا نعمةً أكبر بكثير من الجنة ونعيمها، وجب أن نرفع أيدينا إلى الله، ونضرع إليه بالدعاء دائماً قائلين: "اللهم بلِّغنا أفق الرضا". أجل، علينا أن تكون أنفاسنا قائمة على "اللَّهُمَّ اهْدِنَا إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى"، ونستشعر دائماً "اللَّهُمَّ عَفْوِكَ وَعَافِيَتِكَ وَرِضَاكَ"؛ لأن الله تعالى وعد بأنه سيمُنِّ على الإنسان بما يطلبه بصدق وإخلاص، لكن لا بد من الإلحاح في الطلب؛ لأن استجابة الدعاء قد تتأخر بضع سنين أو عقوداً، فإن كنا نرغب بأن يرضى الله تعالى عنا، وتنبض قلوبنا في كل لحظة بالرضا عن تديره فعلينا أن نتضرع ونبتهل عشراً بل عشرين سنةً لتحقيق هذه الغاية.

وأعتقد أن تحقيق هذا ربما يقتضي الدخول في "ماراثون" دعاءٍ طويل؛  
 فالحق تعالى بين بقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾  
 (سورة التوبة: ٧٢/٩) أن الرضا الإلهي أسمى وأعظم من دخول الجنة ومن  
 الفردوس ورؤية المصطفى ﷺ؛ إلا أنني أظن أنه لا أحد منا دعا الله بالرضا  
 زمناً طويلاً بهذا القدر، إنما ندعُ الله "اللهم رضاك، اللهم رضاك..."  
 خمساً وعشرين سنة مثلاً، ولم نتذلل له، وليس هذا الأمد فحسب، بل لو  
 طال بنا العمر لكان علينا أن نتصرع ونبتهل مئات السنين.

فإن رسولنا الأكرم ﷺ قد حدد للمسلمين هدفاً علوياً سامقاً، فوق  
 على عاتق المسلمين السعي الحثيث لتحقيق هذا الهدف؛ فعلى كل مؤمن  
 أن يتبنى ذلك الهدف ويُعنى به، فمن يحدد لنفسه هدفاً يمضي حياته أملاً  
 في تحقيقه، حتى إن ذهنه كثيراً ما ينشغل به أثناء وضوئه أو مشيه إلى  
 المسجد، بل حتى أثناء صلاته؛ فهذه الأفكار التي يرددها في ذهنه وينشغل  
 بها دائماً يتقبلها الله تعالى منه كأنها دعاء، ولا يُخيبها سبحانه؛ فالذي يجب  
 علينا إذاً هو السعي المتواصل لبلوغ أفق الرضا الذي حدده رسول الله لنا  
 هدفاً، وأن يكون حديثنا دائماً عنه، وأن نحيا به ونفكر فيه في أحوالنا كلها.



## رمضان والقلوب الرقيقة

سؤال: يأتينا شهر رمضان كل سنة وكأنه سكينه تنزل من السماء؛ فترقق قلوبنا وتذيبها، وتوصلها إلى قوام معين؛ فما الأمور التي توصوننا بها كي نستفيد من هذا الشهر الكريم استفادة كاملة في حياتنا الفردية والاجتماعية؟

الجواب: إن شهر رمضان يلوح في أفقنا بجمالياته الساحرة الجذابة مثل الصيام والإفطار والسحور وصلاة التراويح؛ فيشكل مناخاً قدسياً خاصاً به، وهو ذو تأثير متميز تماماً حيث يسهم في أن تدرك الأرواح الصلاح مجدداً، وتسلم القلوب والأحاسيس والأفكار، وتهدأ كل أنواع القسوة والخشونة، حتى في تلك الفترات التي تتوالى فيها التوترات، وتطفح فيها الشدة والعنف، وتعتبر المعارضة والمخالفة نوعاً من المهارة، ويعيش فيها جموع الناس فيما بينهم جموداً خطيراً، والواقع أن إنساننا يحمل في داخله مشاعر من الاحترام الحقيقي تجاه هذا الشهر المبارك الذي تُستشعر فيه الوداعة والرفقة واللطف بشكل واضح؛ ومن هذه الزاوية فإننا حتى وإن كنا في الوقت الراهن محاطين من كل جهة بسلبيات مختلفة؛ إلا أننا إن أعطينا إرادتنا حقها، وفتحنا قلوبنا لهذه الفترة الزمنية المباركة، وآمنّا من أعماقنا ببركته، وتوجّهنا إليه بمشاعر التعظيم والاحترام؛ فإنه هو

أيضاً سوف يحتضننا، ويُفيض علينا بركته وابله غزيرة تشملنا من رؤوسنا إلى أخامص أقدامنا، وسوف يمكننا التغلب على الحدة والغضب والعنف، وبهذه الطريقة يُسود من جديد مناخ من السعادة والطمأنينة والسكون في المجتمع.

### ليس تنوع الطعام، وإنما كثرة الضيوف

أما بالنسبة للأمر الواجب فعلها في هذا السياق؛ فهي على سبيل المثال تتمثل في أن الشخص المقيم في شقة بعمارة سكنية يستطيع -بقدر طاقته- أن يبدي كرمه وحسن تصرفه بدعوته جيرانه -أيًا كانت ثقافتهم ومنطقهم- إلى مائدة الإفطار عن طريق إخبارهم بذلك قبل بضعة أيام من الموعد، ويقدم لهم بعد الطعام هدية صغيرة أعدها لهم مسبقاً قائلاً: "لقد شرفتمونا بتلبية الدعوة، وأتعبتم أنفسكم في تناول طعامنا، فنرجو أن تفضلوا بقبول هذه الهدية البسيطة منا"، كما أنه يمكنه إسعاد قلوب أولادهم إن كان قادرًا على ذلك، وبالشكل نفسه فإن من يعمل مدرِّسًا في مدرسة، أو أستاذًا في جامعة، أو عاملاً في مؤسسة يمكنه أن يساهم في تحقيق السلم الاجتماعي عبر فتحه باب منزله للجميع وإشراكهم في مائدة إفطاره دون تفریق بين فئة وأخرى.

ينبغي لنا أن نشتم هذا الشهر المبارك المليء بالنور بحيث لا يمر علينا يوم من أيامه على الإطلاق دون أن ينزل ضيف على مائدة إفطارنا. أجل، لا بد من إثراء موائد الإفطار بكثرة الضيوف وتنوعهم أكثر من إثرائها بكثرة الطعام، فقد قال الرسول الأكرم ﷺ كما تعلمون:

"طَعَامُ الاثْنَيْنِ كَافِي الثَّلَاثَةِ، وَطَعَامُ الثَّلَاثَةِ كَافِي الأَرْبَعَةِ"<sup>(٩)</sup>.

ومن هذه الزاوية يجب ألا نقلق من كثرة الضيوف في شهر رمضان ذي البركة الخاصة به.

إن مثل هذا الأسلوب في التصرف طريق دبلوماسي مهم من أجل ردم الفجوات بين مختلف شرائح المجتمع، وتجاوز الأحكام المسبقة، فالحقيقة أن هناك كثيرًا من المشاكل التي يتعذر حلها بالقوة والشدة، ولا يُغلب عليها بالوحدات العسكرية المدجّجة؛ يمكن حلّها بهذا الطريق. أجل، إنكم إذا فتحتم قلوبكم للجميع، ودخلتم قلوب مخاطبيكم بإنسانيتكم، وهيأتهم في قلوبكم مكانا يمكن للجميع أن يحل به، وبهذه الطريقة جعلتم القلوب تساندكم، فحينذاك تتم الحيلولة دون ما لا قبل لكم بها من شتى أنواع الكراهية والحقد والغیظ وإراقة الدماء وإزهاق الأرواح؛ كما أنه لم يُشاهد على مر تاريخ الإنسانية مشكلات أو أزمات حُلّت بالتهديدات على الإطلاق، بل لقد زاد غضب الناس بصورة أكثر في مواجهة التهديدات، وساروا نحو هيكلة أنفسهم بالتمحور حول التخريب بحرارة أكثر.

وكما ورد في أحد الأمثال التركية "فنجان قهوة خاطره أربعون سنة"؛ فإنه سيكون للإفطار الذي نقدمه لضيوفنا خاطر أربعين سنة، ومن هذه الزاوية فإنه لا بد من القيام حتمًا بمثل هذه الرجولة والكرم الذي يكون مردوده مختلفًا جدًّا، ولسنا ندري ربما أن بركة أخرى من بركات شهر رمضان المتميزة تكمن في هذا، أي إننا كما نستطيع الحصول على الثواب الأخرى بالصوم وصلاة التراويح؛ فإننا نحقق ربحًا ومكسبًا متميزًا عن طريق دخولنا قلوب الناس.

## صدى من وراء السماوات يدوي في القلوب

ويمكن أيضاً لرجال الخدمة الذين هرعوا إلى خدمة الإنسانية في كل أنحاء العالم أن يعتبروا شهر رمضان وسيلةً مهمةً للنفوذ إلى القلوب؛ فلقد كشفت الأضاحي التي تُذبح وتوزع في عيد الأضحى في كل أنحاء العالم - بدءاً من تركيا حتى آسيا وإفريقيا- عن كرم وأصالة إنساننا، فأصبحت وسيلةً لفتح القلوب وإثارة عاطفة الثقة لدى هذه الشعوب فينا واقتناعهم بأن هناك أناساً هم محل ثقتهم وأمانهم، وعلى نفس الشاكلة قد يكون القيام بحملة تعبويةً رمضانية عن طريق فتح أبواب الفطور والسحور أمام الجميع فرصة ذهبية لكسب العديد من القلوب والوصول إلى كيفية يرضى بها ربنا ﷻ عنا، لأن المدعوين على الإفطار والسحور في رمضان لا سيما في بلاد غير مسلمة يتأثرون للغاية بمثل هذه الفعاليات حتى إنكم إن استمتعتم إلى انطباعاتهم أدركتم بشكل أكبر مدى أهمية العمل الذي تقومون به، فمثلاً يأتيهم الأذان الذي يسبق الإفطار غصاً طرياً فيطربون به ويُسحرون. ومن ثم ينبغي لنا أن نحسن استغلال هذه المناسبة في تعريف مخاطبيننا بجمالياتنا والثراء المعنوي الذي عندنا.

وربما تؤدي جميع هذه الفعاليات إلى مجرد تعاطف هؤلاء المخاطبين في نظرهم إلى الإسلام، وليس لنا أن نستهين بهذا الأمر، فمن يدري لعل هؤلاء الذين يشعرون بالحيوية والطراوة في كل شيء يدركون مع الوقت جماليات الإسلام بشكل آخر، فيرتقون فجأة وبشكل عمودي إلى عرش كمالاتهم؛ ولذلك فإنني أعتقد أن الحصول على مثل هذه النتيجة جديرٌ بأن نقيم الموائد كل يوم مرات لا مرة واحدة.



مع الأسف عاش الناس في عصرنا محرومين من جماليات الإسلام، لم يلمسوا السلوكيات والأخلاق الإسلامية؛ فأهم مهمة ملقاة على عاتقنا هي الكشف لهم عن الإسلام الحقيقي من خلال بيتنا الأسرية، والعلاقة بين الأب والأم والأولاد عندنا، ومن خلال ولائتنا وكرمنا، فإن كان البعض يرى الإسلام "بُعْبَعًا" فالسبيل إلى إزالة هذا هو مخالطتهم وتأسيس علاقة وثيقة بيننا وبينهم، ومن ثم ينبغي أن يقوم المسلمون في هذا الشهر المبارك بتحقيق هذا الأمر بشكل معقول وفقاً لما يستلزمه موقعهم أيًا كان هو، مع الأخذ بالشورى والعقل والمنطق والعقلانية.

### ليس هناك عملٌ يحلّ محلّ العمل في رمضان

إن كل عبادة فرضها الله ﷻ علينا وكلفنا بها ستتحقق ما هيئة مختلفة على حسب أدائها لها، وستشهد لنا عنده تبارك وتعالى، وبقدر بذلنا في شهر الغفران هذا ستكون شهادة الشهر في حقنا قوية ندية، فإن أحسنًا استغلال هذا الشهر الفضيل شهد لنا لدى الحق تعالى عند رحيله عنّا وفراقه لنا وربما رشّحنا للدخول من باب "الريّان"، من أجل ذلك علينا أن نقدّر العبادات التي كتبها الله علينا حق قدرها ونجلّها ونعظّمها ونسعى إلى استغلالها بالأسلوب الأمثل.

وسيعلم الإنسان أي الأعمال التي كانت سببًا في إسباغ النعم عليه في الآخرة، وهذا سيزيد من فرحته بقدر فرحته بهذه النعم، وربما يناجي ربه ﷻ شاكرًا له على أنعمه قائلاً: "حمدًا لك يا ربي! شرّفتني بالعمل بدايةً، وشرفتني بثوابه آخرًا".

أجل، سيعرف العبد صيامه هنالك معرفة كاملة، وسيتعرف على جوعه وظمئه وتعبه في صلاة التراويح، ومشاعره الجياشة حين القيام

للسحور، وكرمه في موائد الإفطار بشكل يتوافق مع خصوصيات العالم الآخر، وسيعيش فرحة هذا كله.

إن بعض العبادات والطاعات تستمد عمقها من ظرفها ووقتها خاصة، وهكذا كل عبادة وطاعة تُؤدَّى في رمضان، وعلى ذلك تكتسب الأعمال في رمضان قيمة أخرى، ويتقرب الناس إلى ربهم في رمضان بصورة مختلفة تمامًا؛ فليس هناك صومٌ يبلغ صوم رمضان، كما أن عشرين ركعة في غير رمضان لا تعدل مطلقاً صلاة التراويح في رمضان، ولا يصل ثواب السحور في الليالي الأخرى في غير رمضان إلى ثواب السحور فيه، ولا يشبه انتظار الأذان الذي يسبق الإفطار في غير رمضان الأذان فيه.

والخلاصة: لا يتساوى ثواب الأعمال في غير رمضان مع ثواب الأعمال الذي يحصل عليه العبد في رمضان، فليس هناك عمل قط يملأ فراغ العمل في رمضان، فإن المؤمنين الصادقين الذين يشعرون بهذه الحقيقة بعمق في وجدانهم يشعرون بألم فراق غريب مع رحيل رمضان، ويلفهم الحنين إلى أن يأتي رمضان القادم، ولا ندري ربما يكسبهم هذا الحنينُ ثوابَ رمضان آخر.





## مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتَانِي (ت: ٢٧٥هـ)؛ سنن أبي داود؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، رياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ المسند؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، ١-١٣، ط ٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء؛ السعادة - مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي - بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٣- دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)].

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد التميمي أبو حاتم الدارمي البُسْتِي (ت: ٣٥٤هـ)؛ صحيح ابن حبان؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ تفسير القرآن العظيم؛ تحقيق: سامي بن محمد سلامة؛ دار طيبة للنشر والتوزيع، ١-٨، ط ٢، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ سنن ابن ماجه (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ مسند البزار؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (٢٠٠٩م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُو جردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ شعب الإيمان؛ تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

—————، كتاب الزهد الكبير؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ٣، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ صحيح البخاري (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

—————، التاريخ الكبير؛ دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن، ١-٨.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرويه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمداني (ت: ٥٠٩هـ)؛ الفردوس بمأثور الخطاب؛ تحقيق: السعيد بن بسونني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم ابن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ المستدرک علی الصحیحین؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ المعجم الصغير؛ تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمير؛ المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

—————، المعجم الأوسط؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

—————، المعجم الكبير؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)؛ جامع البيان في تأويل القرآن؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

الكشّي، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكشّي (ت: ٢٤٩هـ)؛ المنتخب من مسند عبد بن حميد؛ تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي؛ مكتبة السنة - القاهرة، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ صحيح مسلم (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ)؛ سنن النسائي؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

السنن الكبرى؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-١٠، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

سعيد التُوْرسي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: الكلمات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

من كليات رسائل النور: المكتوبات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

من كليات رسائل النور: اللمعات؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

من كليات رسائل النور: السيرة الذاتية؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

من كليات رسائل النور: الملاحق؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

من كليات رسائل النور: صيقل الإسلام؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ مصنف عبد الرازق؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ كشف الخفاء ومزيل الإلباس؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندواي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكيمون القضاعي المصري (ت: ٤٥٤هـ)؛ مسند الشهاب؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: ٥٠٢هـ)؛ المفردات في غريب القرآن؛ تحقيق: صفوان عدنان الداودي؛ دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ سنن الترمذي؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.